الشهيد سيد قطب (رحمه الله)

في ظلال القرآن

طبعة إلكترونية منقحة و مختصرة

قا م بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعــة

الجزء السابع (7)

دار القبس للنشر الإلكتروني

ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)

الهاتف: 78 ـ 73 ـ 20 ـ 0662

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا
إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا
طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا
فانصرنا على القوم الكافرين) البقرة {286}

مختصر في ظلال القرآن الجزء السابع (٧) الطبعة الثانية (٢) ماي ٢٠٢٢

عندما وصلنا للجزء السابع من كتاب مختصر فى ظلال القرآن ، تبين أن عدد الصفحات تجاوزت ٣٠٠ صفحة ، مما يحول دون تحميلها و نشرها فى المواقع بسهولة، لذلك إرتأينا إضافة جزء ثامن يبدأ من سورة تبارك و ينتهى عند سورة الناس

سورة الشورى

مكية ، و آياتها ٥٣

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحى والرسالة ، حتى ليصح أن يقال:إنها هي المحور الرئيسى الذى ترتبط به السورة كلها ؛ وتأتى سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها هذا مع أن السورة تتوسع فى الحديث عن حقيقة الوحدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة ; كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ؛ ويأتى ذكر الآخرة ومشاهدها فى مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التى يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق:بسطه وقبضه ؛ وصفة الإنسان فى السراء والضراء .. ونضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالاً , قبل أن نأخذ فى التفصيل ، تبدأ بالأحرف المقطعة: حا . ميم . عين . سين . قاف . . يليها (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) مقرراً وحدة مصدر الوحى فى الأولين والآخرين (إليك وإلى الذين من قبلك) ثم يستطرد السياق فى صفة الله العزيز الحكيم (له ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العلى العظيم) مقرراً وحدانية المالك لما فى السماوات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد . ثم يستطرد استطراداً آخر فى وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد ، وتجاه الشرك الذى يشذ به بعض الناس (تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل) فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهل الأرض ، بينما الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض جميعاً من هذه الفعلة الشنعاء التى جاء بها بعض المنحرفين ! وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى (وكذلك أوحينا إليك ، قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير) ثم يستطرد مع (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) فيقرر أن لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت – بما له من علم وحكمة – أن (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير) ويقرر أن الله وحده هو الولى (وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير) ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، حقيقة الوحى والرسالة ، فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شىء هو الله الذى أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس فى كل اختلاف (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب) ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق ، وتفرد ذاته . ووحدانية المتصرف فى مقادير السماوات والأرض ، وفى بسط الرزق وقبضه . وفى علمه بكل شىء (فاطر السماوات والأرض , جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ،ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه , ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم) ثم يعود إلى الحقيقة الأولى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك , وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى:أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم وقل:آمنت بما أنزل الله من كتاب . . . الخ. وعلى مثل هذا النسق تمضى السورة فى عرض هذه الحقيقة ؛ محوطة بمثل هذا الجو ، وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى ، المثبتة فى الوقت ذاته للحقيقة الأولى التى تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسى . وهذا النسق واضح وضوحا كاملا فى هذا الدرس الأول من السورة . فالقارىء يلتقى بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحى والرسالة فى جانب من جوانبها . فأما الدرس الثانى ويؤلف بقية السورة ، فيبدأ باستعراض بعض آيات الله فى بسط الرزق وقبضه وفى تنزيل الغيث برحمته (وفى خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وفى الفلك الجوارى فى البحر كالأعلام) ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التى تفردهم وتميز جماعتهم . فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب (يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين (وقال الذين آمنوا:إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا إن الظالمين فى

عذاب مقيم) وفى ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ انفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله , ما لكم من ملجأ يومئذ ، وما لكم من نكير) ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى فى السورة . حقيقة الوحى والرسالة . فى جانب من جوانبها (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ . . .) ويمضى سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أو غير مباشرة ، مع طابع الاستطراد بين كل إشارة وإشارة إلى تلك الحقيقة ، حتى يكون ختام السورة هذا البيان فى شأن الوحى والرسالة (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب , أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه علىّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ؛ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) وبعد فمن وراء التركيز على حقيقة الوحى والرسالة فى سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفى هذا التتابع وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها الرئيسى والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد والاتجاه . وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحا . .

(حم{١} عسق{٢} كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٣} لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ{٤} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٥} وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ{٦} وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ{٧} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ{٨} أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٩} وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{١٠} فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ{١١} لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{١٢} شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ{١٣} وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ{١٤} فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ{١٥} وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{١٦} اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ{١٧} يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ{١٨} اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ{١٩} مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ{٢٠} أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٢١} تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ{٢٢} ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ{٢٣} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ){٢٤}

(حم . عسق) سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور بما فيه الكفاية . وهى تذكر هنا فى مطلع السورة ، ويليها قوله تعالى (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) أى مثل ذلك ، وعلى هذا النسق ، وبهذه الطريقة يكون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك . ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحى . وحدة مصدره فالموحى هو الله العزيز الحكيم . والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان . والوحى واحد فى جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان إنها قصة بعيدة البداية ، ضاربة فى أطواء الزمان . وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابكة الحلقات . ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع . ويستطرد فى صفة الله الذى يوحى وحده إلى الرسل جميعاً ؛ فيقرر أنه المالك الوحيد لما فى السماوات وما فى الأرض ، وأنه وحده العلى العظيم (له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وهو العلى العظيم) وكثيراً ما يُخدع البشر

فيحسبون أنهم يملكون شيئاً ، لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم , مسخرة لهم ، ينتفعون بها ، ويستخدمونها فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً . إنما الملك الحقيقى لله ؛ الذى يوجد ويعدم ، ويحيى ويميت ؛ ويملك أن يعطى البشر ما يشاء ، ويحرمهم ما يشاء ؛ وأن يذهب بما فى أيديهم من شيء ، وأن يضع فى أيديهم بدلاً مما أذهب . ثم يعرض مظهراً لخلوص الملكية لله فى الكون ، وللعلو والعظمة كذلك . يتمثل فى حركة السماوات تكاد تتفطر من روعة العظمة التى تستشعرها لربها ، ومن زيغ بعض من فى الأرض عنها . كما يتمثل فى حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لأهل الأرض من انحرافهم وتطاولهم (تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم) والسماوات هى هذه الخلائق الضخمة الهائلة التى نراها تعلونا حيثما كنا على ظهر هذه الأرض ، والتى لا نعلم إلا أشياء قليلة عن جانب منها صغير . هذه السماوات التى عرفنا منها هذا الجانب الصغير المحدود يكدن يتفطرن من فوقهن . . من خشية الله وعظمته وعلوه ، وإشفاقاً من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم لهذه العظمة التى يحسها ضمير الكون ، فيرتعش ، وينتفض ، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه ! (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض)والملائكة أهل طاعة مطلقة ، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة . ولكنهم دائبون فى تسبيح ربهم ، لما يحسون من علوه وعظمته ، ولما يخشون من التقصير فى حمده وطاعته . ذلك بينما أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون ؛ فيشفق الملائكة من غضب الله ; ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع فى الأرض من معصية وتقصير (ألا إن الله هو الغفور الرحيم)فيجمع إلى العزة والحكمة ، العلو والعظمة ، ثم المغفرة والرحمة . . ويعرف العباد ربهم بشتى صفاته . وفى نهاية الفقرة – بعد تقرير تلك الصفات وأثرها فى الكون كله – يعرض للذين يتخذون من دون الله أولياء . وقد بدا أن ليس فى الكون غيره من ولى . ليعفى رسول الله ﷺ من أمرهم ، فما هو عليهم بوكيل ، والله هو الحفيظ عليهم ، وهو بهم كفيل (والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل) وتبدو للضمير صورة هؤلاء المناكيد التعساء وهم يتخذون من دون الله أولياء وأيديهم مما أمسكت خاوية ، وليس هنالك إلا الهباء ! تبدو للضمير صورتهم – فى ضآلتهم وضآلة أوليائهم من دون الله . والله حفيظ عليهم . وهم فى قبضته ضعاف صغار . فأما النبى ﷺ والمؤمنون معه ، فهم معفون من التفكير فى شأنهم ، والاحتفال بأمرهم ، فقد كفاهم الله هذا الاهتمام . ومن ثم يسير المؤمنون فى طريقهم . مطمئنين إلى أنه الطريق الموصول بوحى الله . وأن ليس عليهم من ضير فى انحراف المنحرفين عن الطريق . كائنا ما يكون هذا الانحراف . . ثم يعود إلى الحقيقة الأولى (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً . . .) يعطف هذا الطرف من حقيقة الوحى على ذاك الطرف الذى بدأ به السورة . والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة ، وعربية القرآن ، مناسبة ظاهرة . فهذه أحرفهم العربية , وهذا قرآنهم العربى . نزل الله به وحيه فى هذه الصورة العربية ، ليؤدى به الغاية المرسومة (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى هى مكة المكرمة . ببيت الله العتيق فيها . وقد اختار الله أن تكون هى – وما حولها من القرى – موضع هذه الرسالة الأخيرة ؛ وأنزل القرآن بلغتها العربية لأمر يعلمه ويريده . وهكذا جاء هذا القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها . فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ؛ وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنسانى الذى قام على أساسها ، للبشرية جميعها – كما هى طبيعة هذه الرسالة – وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها ؛ وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ونشأتها . وليس من المصادفات أن يعيش الرسول ﷺ حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ؛ ويتمحض هذا المهد للعقيدة التى اختير لها على علم . كما اختير لها اللسان الذى يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعا . فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها فى أقطار الأرض . ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعى ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولاً ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانياً . . وقد كانت اللغة ، كأصحابها ، كبيئتها ، أصلح ما تكون لهذا الحدث الكونى العظيم (لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكراراً فى القرآن هو الإنذار بيوم الجمع . يوم الحشر . يوم يجمع الله ما تفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ,ليفرقهم من جديد (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) بحسب عملهم فى دار العمل ، فى هذه الأرض ، فى فترة الحياة الدنيا (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة . ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير)

فلو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم ، فتوحد مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى نار . ولكنه – سبحانه – خلق هذا الإنسان لوظيفة . خلقه للخلافة فى هذه الأرض . وجعل من مقتضيات هذه الخلافة ، على النحو الذى ارادها ، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة بجنسه ، تفرقه عن الملائكة وعن الشياطين ، وعن

غيرهما من خلق الله ذوى الطبيعة المفردة الموحدة الاتجاه (أم اتخذوا من دونه أولياء ؟). ليقرر بعد هذا الاستنكار أن الله وحده هو الولى ، وأنه هو القادر تتجلى قدرته فى إحياء الموتى . العمل الذى تظهر فيه القدرة المفردة بأجلى مظاهرها (فالله هو الولى ، وهو يحيى الموتى) ثم يعمم مجال القدرة ويبرز حقيقتها الشاملة لكل شىء والتى لا تنحصر فى حدود (وهو على كل شىء قدير) ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، لبيان الجهة التى يرجع إليها عند كل اختلاف . وهى هذا الوحى الذى جاء من عند الله يتضمن حكم الله كى لا يكون للهوى المتقلب أثر فى الحياة بعد ذلك المنهج الإلهى القويم (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) والله أنزل حكمه القاطع فى هذا القرآن ؛ وقال قوله الفصل فى أمر الدنيا والآخرة ; وأقام للناس المنهج الذى اختاره لهم فى حياتهم الفردية والجماعية ، وفى نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبيّن لهم هذا كله بياناً شافيا . وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً لحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشمل . فإذا اختلفوا فى أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر فى هذا الوحى الذى أوحاه إلى رسوله ﷺ لتقوم الحياة على أساسه . وعقب تقرير هذه الحقيقة يحكى قول رسول الله ﷺ مسلما أمره كله لله ، منيبا إلى ربه بكليته (ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب) فتجيء هذه الإنابة ، وذاك التوكل ، وذلك الإقرار بلسان رسول الله ﷺ فى موضعها النفسى المناسب للتعقيب على تلك الحقيقة . ثم يعقب مرة أخرى بما يزيد هذه الحقيقة استقراراً وتمكيناً (فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً . يذرؤكم فيه . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) فالله منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون فيه من شىء . . هو (فاطر السماوات والأرض) وهو مدبر السماوات والأرض . والناموس الذى يحكم السماء والأرض هو حكمه الفصل فى كل ما يختص بهما من أمر . وشؤون الحياة والعباد إن هى إلا طرف من أمر السماوات والأرض ؛ فحكمه فيها هو الحكم الذى ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون العريض ، ليعيشوا فى سلام مع الكون الذى يحيط بهم ، والذى يحكم الله فى أمره بلا شريك . والله الذى يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من شىء هو خالقهم الذى سوى نفوسهم , وركبها (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) فنظم لكم حياتكم من أساسها ، وهو أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم . وهو الذى أجرى حياتكم وفق قاعدة الخلق التى اختارها للأحياء جميعا (ومن الأنعام أزواجاً) فهنالك وحدة فى التكوين تشهد بوحدانية الأسلوب والمشيئة وتقديرها المقصود . . إنه هو الذى جعلكم – أنتم والأنعام - تتكاثرون وفق هذا المنهج وهذا الأسلوب . ثم تفرد هو دون خلقه جميعا ، فليس هنالك من شىء يماثله – سبحانه وتعالى –: (ليس كمثله شىء) والفطرة تؤمن بهذا بداهة . فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التى هى من خلقه . . ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف فيما بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ؛ لأنه ليس هناك أحد مثله ، حتى يكون هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف . ومع أنه سبحانه (ليس كمثله شىء) فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل . فهو يسمع ويبصر (وهو السميع البصير) ثم يحكم حكم السميع البصير . ثم إنه إذ يجعل حكمه فيما يختلفون فيه من شىء هو الحكم الواحد الفصل . يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها إليه بعد ما فطرها أول مرة ، وشرع لها ناموسها الذى يدبرها (له مقاليد السماوات والأرض) وهم بعض ما فى السماوات والأرض ,فمقاليدهم إليه ثم إنه هو الذى يتولى أمر رزقهم قبضاً وبسطاً – فيما يتولى من مقاليد السماوات والأرض) يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم وساقيهم . فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف فى الأرزاق . الذى يدبر هذا كله بعلم وتقدير (إنه بكل شىء عليم) والذى يعلم كل شىء هو الذى يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل . . وهكذا تتساوق المعانى وتتناسق بهذه الدقة الخفية اللطيفة العجيبة ؛ لتوقع على القلب البشرى دقة بعد دقة ، حتى يتكامل فيها لحن متناسق عميق . ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو – فى عمومه - ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو أن يقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه . ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهى القديم ، دون التفات إلى أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم ، ودحض حجة الذين يحاجون فى الله ، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد . ويبدو من التماسك والتناسق فى هذه الفقرة كالذى بدا فى سابقتها بشكل ملحوظ (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى:أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وبذلك يقرر. حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى ؟ وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى ؛ وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد ؟ وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين ؟ ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها رسولهم الأخير ؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع

(أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فيقيموا الدين ، ويقوموا بتكاليفه ، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ؛ ويقفوا تحت رايته صفا ، وهى راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى – صلوات الله عليهم – حتى انتهت إلى محمد ﷺ في العهد الأخير . ولكن المشركين فى أم القرى ومن حولها – وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم – كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقفاً آخر (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) كبر عليهم أن يتنزل الوحي على محمد من بينهم ؛ وكانوا يريدون أن يتنزل (على رجل من القريتين عظيم) أى صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت فى قريش . ما كان هذا كله يعدل فى نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان ! وكبر عليهم أن ينتهى سلطانهم الدينى بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التى يقوم عليها هذا السلطان ؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية . فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذى دعاهم إليه الرسول الكريم . وكبر عليهم أن يقال:إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية ; فتشبثوا بالحماقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم , على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين . والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذى يصطفى ويختار من يشاء ؛ وأنه كذلك يهدى إليه من يرغب فى كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين: (الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) وقد اجتبى محمداً ﷺ للرسالة . وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويثوب . ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل ، الذين جاءوا قومهم بدين واحد ، فتفرق أتباعهم شيعاً وأحزابا: (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم – بغيا بينهم – ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب) فهم لم يتفرقوا عن جهل ؛ ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم ,ويربط رسلهم ومعتقداتهم . إنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم . تفرقوا بغيا بينهم وحسدا وظلما للحقيقة ولأنفسهم سواء . تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية . تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم . ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا . فأما الأجيال التى ورثت الكتاب من بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبى , فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ؛ إذ كانت الخلافات السابقة مثارا لعدم الجزم بشىء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب) ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ؛ ويقودوا من وراءهم من البشر فى غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذا هم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حائرون . وكذلك كان حال أتباع الرسل يوم جاء هذا الدين الجديد (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم) إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء . القيادة الحازمة المستقيمة على نهج واضح ويقين ثابت . تدعو إلى الله على بصيرة . وتستقيم على أمر الله دون انحراف . وتنأى عن الأهواء المضطربة المتناوحة من هنا وهناك . القيادة التى تعلن وحدة الرسالة ووحدة الكتاب ووحدة النهج والطريق . والتى ترد الإيمان إلى أصله الثابت الواحد ، وترد البشرية كلها إلى ذلك الأصل الواحد (وقل:آمنت بما أنزل الله من كتاب) ثم هو الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل (وأمرت لأعدل بينكم) فهى قيادة ذات سلطان , تعلن العدل فى الأرض بين الجميع . [هذا والدعوة بعد فى مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هى وأصحابها . ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة] . وتعلن الربوبية الواحد (الله ربنا وربكم) وتعلن فردية التبعة (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل (لا حجة بيننا وبينكم) وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير (الله يجمع بيننا وإليه المصير) وتكشف هذه الآية الواحدة عن طبيعة هذه الرسالة الأخيرة ، فى مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الدقيق . فهى رسالة جاءت لتمضى فى طريقها لا تتأثر بأهواء البشر . وجاءت لتهيمن فتحقق العدالة فى الأرض . وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو فى حقيقته موحد على مدى الرسالات . وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبة المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين فى الله مستنكراً لا يستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب . فتنتهى هذه الفقرة بالفصل فى أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد (والذين يحاجون فى الله . من بعد ما استجيب له . حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب , ولهم عذاب شديد) ومن تكون حجته باطلة مغلوبة عند ربه فلا حجة له ولا سلطان . ووراء الهزيمة والبطلان فى الأرض ، الغضب والعذاب الشديد فى الآخرة . وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب الخالصة ؛ والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح . ثم يبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ؛ وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة , وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ؛ وأقام شرائعه على العدل فى الحكم . العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق . وتوزن به الأعمال والتصرفات . وينتقل من هذه الحقيقة . حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل . إلى ذكر الساعة . والمناسبة بين هذا وهذه

حاضرة ، فالساعة هى موعد الحكم العدل والقول الفصل . والساعة غيب . فمن ذا يدرى إن كانت على وشك (وما يدريك لعل الساعة قريب ؟). . والناس عنها غافلون ، وهى منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل ,والذى لا يهمل فيه شيء ولا يضيع . . ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها وإنها لحق . وإنهم ليعلمون أنها الحق . وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون (ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) فقد أوغلوا فى الضلال وأبعدوا ، فعسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد . . وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستهتار بها ، إلى الحديث عن الرزق الذى يتفضل الله به على عباده (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) وتبدو المناسبة بعيدة فى ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك . ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء . يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر . فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً ؛ وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم اسبابها الأولية ؛ ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعاً وعرياً وعطشاً ، ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار المرء منهما ما يشاء . فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله فى حرثه ، وأعانه عليه بنيته ، وبارك له فيه بعمله . وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له فى هذه الأرض لا يحرم منه شيئاً ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول الحقيقة الأولى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائنا من كان ؛ فالله وحده هو الذى يشرع لعباده . بما أنه – سبحانه – هو مبدع هذا الكون كله ، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التى اختارها له . والحياة البشرية إن هى إلا ترس صغير فى عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغى أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس ؛ ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة ؛ فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أو لا يقتنعون بها ، وهم يجرؤون على استمداد التشريع من غير ما شرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ، ويوائمون بين ظروفهم والتشريع الذى ينشئونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ! أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله ! وليس أخيب من ذلك ولا أجرأ على الله ! (ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم) فقد قال الله كلمة الفصل بإمهالهم إلى يوم القول الفصل . ولولاها لقضى الله بينهم , فأخذ المخالفين لما شرعه الله ، المتبعين لشرع من عداه . لأخذهم بالجزاء العاجل . ولكنه أمهلهم ليوم الجزاء (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) فهذا هو الذى ينتظرهم جزاء الظلم . وهل أظلم من المخالفة عن شرع الله إلى شرع من عداه ؟ ومن ثم يعرض هؤلاء الظالمين فى مشهد من مشاهد القيامة . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون ، بل يستعجلون ويستهترون (ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم) والتعبير العجيب يجعل إشفاقهم (مما كسبوا) فكأنما هو غول مفزع ؛ وهو هو الذى كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون (وهو واقع بهم) وكأنه هو بذاته انقلب عذابا لا مخلص منه ، وهو واقع بهم !وفى الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون . نجدهم فى أمن وعافية ورخاء: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم . ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات . والتعبير كله رُخاء يرسم ظلال الرخاء (فى روضات الجنات) (لهم ما يشاءون عند ربهم) بلا حدود ولا قيود (ذلك هو الفضل الكبير) (ذلك الذى يبشر الله عباده) فهو بشرى حاضرة ، مصداقاً للبشرى السالفة . وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال . وعلى مشهد هذا النعيم الرخاء الجميل الظليل يلقن الرسول ﷺ أن يقول لهم:إنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى الذى ينتهى بهم إلى هذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم . إنما هى مودته لهم لقرابتهم منه ، وحسبه ذلك أجراً (قل:لا أسألكم عليه أجرا . إلا المودة فى القربى . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا . إن الله غفور شكور) والمعنى الذى أشرت إليه ، وهو أنه لا يطلب منهم أجرا ، إنما تدفعه المودة للقربى –وقد كانت لرسول الله ﷺ قرابة بكل بطن من بطون قريش – ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التى يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى ! وعلى أية حال فهو يذكرهم – أمام مشهد الروضات والبشريات – أنه لا يسألهم على شيء من هذا أجراً . ودون هذا بمراحل يطلب عليه الأدلاء أجرا ضخماً ! ولكنه فضل الله الذى لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب السماحة وحساب الفضل (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) فليس هو مجرد عدم تناول الأجر . بل إنها الزيادة والفضل . . ثم هى بعد هذا كله المغفرة والشكر (إن الله غفور شكور) الله يغفر . ثم . . الله يشكر ويشكر من ؟ يشكر لعباده . وهو وهبهم التوفيق على الإحسان . ثم هو يزيد لهم فى الحسنات ، ويغفر لهم السيئات . ويشكر لهم بعد هذا وذاك . . فيا للفيض الذى يعجز الإنسان عن متابعته . فضلاً على شكره

وتوفيته ! ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى (أم يقولون:افترى على الله كذبا ؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل , ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور) هنا يأتى على الشبهة الأخيرة ، التى قد يعللون بها موقفهم من ذلك الوحى ، الذى تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته فى الجولات الماضية (أم يقولون:افترى على الله كذبا ؟) فهم من ثم لا يصدقونه ، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأته شيء من الله ؟ ولكن هذا قول مردود . فما كان الله ليدع أحدا يدعى أن الله أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئاً ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا . وأن يكشف الباطل الذى جاء به ويمحوه . وأن يظهر الحق من ورائه ويثبته (فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته) وما كان ليخفى عليه ما يدور فى خلد محمد ﷺ حتى قبل أن يقوله (إنه عليم بذات الصدور) فهى شبهة لا قوام لها . وزعم لا يقوم على أساس . ودعوى تخالف المعهود عن علم الله بالسرائر .

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ{٢٥} وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{٢٦} وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ{٢٧} وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ{٢٨} وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ{٢٩} وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ{٣٠} وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ{٣١} وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ{٣٢} إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{٣٣} أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ{٣٤} وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ{٣٥} فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٣٦} وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ{٣٧} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{٣٨} وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ{٣٩} وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{٤٠} وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{٤١} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٤٢} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{٤٣} وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ{٤٤} وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ{٤٥} وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ{٤٦} اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ{٤٧} فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ{٤٨} لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ{٤٩} أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ{٥٠} وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ{٥١} وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٥٢} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ){٥٣}

هذا القسم الثانى من السورة يمضى فى الحديث عن دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفى صفة المؤمنين التى تميز جماعتهم . . وذلك بعد الحديث فى القسم الأول عن الوحى والرسالة من جوانبها المتعددة . . ثم يعود فى نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحى وطريقته . وبين القسمين اتصال ظاهر ، فهما طريقان إلى القلب البشرى ، يصلانه بالوحى والإيمان (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون . ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد . ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير) تجىء هذه اللمسة بعد ما سبق من مشهد الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، ومشهد الذين آمنوا فى روضات الجنات . ونفى كل شبهة عن صدق رسول الله ﷺ فيما يلغهم به عن الله . وتقرير علم الله بذوات الصدور . وفى ثنايا هذه اللمسة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم ، وهو يزيدهم من فضله . (والكافرون لهم عذاب شديد) وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقى فضل الله لمن

يستجيب . (ولو بسط الل الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خبير بصير) وهذا يصور نزارة ما فى هذه الحياة الدنيا من أرزاق – مهما كثرت – بالقياس إلى ما فى الآخرة من فيض غزير . فالله يعلم أن عباده ، هؤلاء البشر ، لا يطيقون الغنى إلا بقدر ,وأنه لو بسط لهم فى الرزق – من نوع ما يبسط فى الآخرة – لبغوا وطغوا . إنهم صغار لا يملكون التوازن . ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد . والله بعباده خبير بصير . ومن ثم جعل رزقهم فى هذه الأرض مقدراً محدوداً ، بقدر ما يطيقون . واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون فى بلاء الأرض ، ويجتازون امتحانها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام . ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد) وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده فى الأرض . وقد غاب عنهم الغيث ، وانقطع عنهم المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول . . الماء . . وأدركهم اليأس والقنوط . ثم ينزل الله الغيث ، ويسعفهم بالمطر ، وينشر رحمته ، فتحيا الأرض ، ويخضر اليابس ، وينبت البذر ، ويترعرع النبات ، ويلطف الجو ، وتنطلق الحياة ,ويدب النشاط ، وتنفرج الأسارير ، وتتفتح القلوب ، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء . . وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات . تتفتح فيها أبواب الرحمة ، فتتفتح أبواب السماء بالماء (وهو الولى الحميد) وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات (ومن آياته خلق السماوات والأرض) وهذه الآية الكونية معروضة على الأنظار ، قائمة تشهد بذاتها على ما جاء الوحى ليشهد به ، فارتابوا فيه واختلفوا فى تأويله . وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلا ولا ريبة . فهى قاطعة فى دلالتها ، تخاطب الفطرة بلغتها ، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد . إنها تشهد بأن الذى أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ، كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ويدبرها . أما الفطرة فهى تتلقى منطق هذا الكون تلقيا مباشراً ، وتدركه وتطمئن إليه ، قبل ان تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها ! وتنطوى آية السماوات والأرض على آية أخرى فى ثناياها (وما بث فيهما من دابة) والحياة فى هذه الأرض وحدها آية اخرى . وهى سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد ، فضلاً على التطلع إلى إنشائه . سر غامض لا يدرى أحد من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يتلبس بالأحياء ! وفى ظل هذين المشهدين يحدثهم عما يصيبهم فى هذه الحياة بما كسبت أيديهم . لا كله . فإن الله لا يؤاخذهم بكل ما يكسبون . ولكن يعفو منه عن كثير . ويصور لهم عجزهم ويذكرهم به ، وهم قطاع صغير فى عالم الأحياء الكبير (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وفى الآية الأولى يتجلى عدل الله ، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف . فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه ؛ ولكن الله لا يؤاخذه بكل ما يقترف ؛ وهو يعلم ضعفه وما ركب فى فطرته من دوافع تغلبه فى أكثر الأحيان ، فيعفو عن كثير ، رحمة منه وسماحة . وفى الآية الثانية يتجلى ضعف هذا الإنسان ، فما هو بمعجز فى الأرض ، وما له من دون الله من ولى ولا نصير . فأين يذهب إلا أن يلتجىء إلى الولى والنصير ؟ (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام) والسفن الجوارى فى البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله . آية حاضرة مشهودة . آية تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال . هذا البحر من أنشأه ؟ مَن من البشر أو غيرهم يدعى هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟ وهذه السفن من أنشأ مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ؟ وهذه الريح التى تدفع ذلك النوع من السفن التى كانت معلومة وقتها للمخاطبين (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) وإنها لتركد أحياناً فتهمد هذه الجوارى وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة ! (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) فى إجرائهن وفى ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور . والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان فى القرآن . الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء ؛ وهما قوام النفس المؤمنة فى الضراء والسراء (أو يوبقهن بما كسبوا) فيحطمهن أو يغرقهن بما كسب الناس من ذنب ومعصية ومخالفة عن الإيمان الذى تدين به الخلائق كلها ، فيما عدا بعض بنى الإنسان ! (ويعف عن كثير) فلا يؤاخذ الناس بكل ما يصدر منهم من آثام ، بل يسمح ويعفو ويتجاوز منها عن كثير (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص) لو شاء الله أن يقفهم أمام بأسه ، ويوبق سفائنهم ، وهم لا يملكون منها نجاة ! وهكذا يشعرهم بأن ما يملكون من أعراض هذه الحياة الدنيا ، عرضة كله للذهاب . فلا ثبات ولا استقرار لشىء إلا الصلة الوثيقة بالله . ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم إلى أن كل ما أتوه فى هذه الأرض متاع موقوت فى هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة الباقية هى التى يدخرها الله فى الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفة المؤمنين هؤلاء ، بما يميزهم ، ويفردهم امة وحدهم ذات خصائص وسمات ! إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهى الثابت لحقيقة القيم . والقيم الزائلة القيم الباقية ; كى لا يختلط الأمر فى نفوسهم ، فيختل كل شىء فى تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى) إن فى هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولذائذ وجاه وسلطان ; وهناك نعم آتاها الله لعباده فى الأرض تلطفا منه

وهبة خالصة ، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة فى هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع – ولو فى القليل – ويمحق البركة من العاصى ولو كان فى يده الكثير . ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل . لا يرفع ولا يخفض ، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب . إنما هو متاع (وما عند الله خير وأبقى) خير فى ذاته . وأبقى فى مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله ، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد . وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ فى بيان صفة المؤمنين الذين يذخر الله لهم ما هو خير وأبقى . ويبدأ بصفة الإيمان (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا) وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التى لا تقوم فى النفس البشرية معرفة صحيحة لشىء فى هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التى تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية فيسعد بهذا التناسق ، ويمضى مع الوجود كله إلى بارىء الوجود فى طاعة واستسلام وسلام وهذا هو الإيمان الذى تشير إليه الآية وهى تصف الجماعة التى اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها (وعلى ربهم يتوكلون) وهذا التقديم والتأخير فى تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضى التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد فى أول صورة من صوره . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد فى هذا الوجود يفعل شيئاً إلا بمشيئته ، وأنه لا شىء يقع فى هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه فى فعل ولا ترك لمن عداه (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصى ولا يتجنبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) وتأتى هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان فى ذنوبه وأخطائه ، فتحبب فى السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون (والذين استجابوا لربهم) فأزالوا العوائق التى تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة فى النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها ونزواتها . عوائق من وجودها هى وتشبثها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولا . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها . . وهذه هى الاستجابة فى عمومها . . ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة (وأقاموا الصلاة) وللصلاة فى هذا الدين مكانة عظمى ، فهى التالية للقاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهى صورة الاستجابة الأولى لله . وهى الصلة بين العبد وربه . وهى مظهر المساواة بين العباد فى الصف الواحد ركعاً سجداً ، لا يرتفع رأس على رأس ، ولا تتقدم رجل على رجل ! ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى – قبل أن يذكر الزكاة (وأمرهم شورى بينهم) والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة . وهو كما قلنا نص مكى . كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة فى حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية فى كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد . والواقع أن الدولة فى الإسلام ليست سوى إفراز طبيعى للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامى وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية . ومن ثم كان طابع الشورى فى الجماعة مبكراً ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتى للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهى من ألزم صفات القيادة . أما الشكل الذى تتم به الشورى فليس مصبوباً فى قالب حديدى ؛ فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع فى حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة ، وليست نصوصاً حرفية ، إنما هى قبل كل شىء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان فى القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث فى أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدى إلى شىء . . وليس هذا كلاماً عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالعقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة – فى أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أى التفات إلى الأنظمة فيها – تحوى حقائق نفسية وعقلية هى فى ذاتها شىء له وجود وفاعلية وأثر فى الكيان البشرى ، يهيىء لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة فى الحياة البشرية ؛ ثم تجىء النصوص بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لا لخلقها وإنشائها . ولكى يقوم أى شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لا بد قبلها من وجود

مسلمين ، ومن وجود إيمان ذى فاعلية وأثر . والإ فكل الأشكال التنظيمية لا تفى بالحاجة ,ولا تحقق نظاماً يصح وصفه بأنه إسلامى . ومتى وجد المسلمون حقاً ، ووجد الإيمان فى قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامى نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ؛ وتحقق المبادىء الإسلامية الكلية خير تحقيق (ومما رزقناهم ينفقون) وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التى حددت فى السنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهاً مبكراً فى حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها . وعلى أية حال فالإنفاق فى عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) وذكر هذه الصفة فى القرآن المكى ذو دلالة خاصة كما سلف . فهى تقرير لصفة أساسية فى الجماعة المسلمة . صفة الانتصار من البغى ، وعدم الخضوع للظلم . وهذا طبيعى بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل ؛ وهى عزيزة بالله . فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغى وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية فى مكة ، ولمقتضيات تربوية فى حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر فى العهد المكى منها:

أن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . فالوضع السياسى والاجتماعى فى الجزيرة كان وضعاً قبلياً مخلخلاً . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه – ولم يقع إلا فى الندرة أن وقع اعتداء جماعى على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة – كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالباً . ولم يكن الرسول ﷺ يحب أن تقع معركة فى كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة تثور لصاحب الحق الذى يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة فى صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بنى هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذى حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازنفى الشخصية الإسلامية كان يقتضى كبح جماح هذا التوفز الدائم ، وإخضاعها لهدف ، وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذى يهدف إلى التوازن فى الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضى فى الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر فى مكة . مع تقرير الطابع الأساسى الدائم للجماعة المسلمة (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة فى الحياة (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فهذا هو الأصل فى الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كى لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد فى الأرض فيمضى وهو آمن مطمئن !(إنه لا يحب الظالمين) وهذا توكيد للقاعدة الأولى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد فى الاعتداء ، من ناحية أخرى .وتوكيد آخر أكثر تفصيلا (ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ,ويبغون فى الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم) فالذى ينتصر بعد ظلمه ، ويجزى السيئة بالسيئة ، ولا يعتدى، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقه المشروع . فما لأحد عليه من سلطان . ولا يجوز أن يقف فى طريقه أحد . إنما الذين يجب الوقوف فى طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق . ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة فى الحالات الفردية ، وعند المقدرة على الدفع كما هو مفهوم ؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لا استخذاء ; وتجملاً لا ذلاً (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) ومجموعة النصوص فى هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغى ، وتعلقها بالله ورضاه فى كل حال

. وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل . وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى ، يعرض فى الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران (ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده) إن قضاء الله لا يرد ، ومشيئته لا معقب عليها .فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، فحقت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولى يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضلال الذى قدره الله (وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون:هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفى) والظالمون كانوا طغاة بغاة ، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز فى يوم الجزاء . إنهم يرون العذاب ، فتتهاوى كبرياؤهم . ويتساءلون فى انكسار: (هل إلى مرد من سبيل) فى هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى أى بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار(خاشعين) لا من التقوى ولا من الحياء ، ولكن من الذل والهوان ! وهميعرضون منكسى الأبصار ، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار (ينظرون من طرف خفى) وهى صورة شاخصة ذليلة . وفى هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون (وقال الذين آمنوا:إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) وهم هؤلاء الذين خسروا كل شىء ، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون:هل إلى مرد من سبيل ؟ ويجىء التعليق العام على المشهد بيانا لمآل هؤلاء المعروضين على النار (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله . ومن يضلل الله فما له من سبيل) فقد عدم النصير ، وقد أغلق السبيل . وفى ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدوا لهم ملجأ يقيهم ، ولا نصيراً ينكر مصيرهم الأليم ,ويوجه الرسول ﷺ إلى التخلى عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير ; فما عليه إلا البلاغ ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ) ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذى يعارض ويعاند ، ويعرض نفسه للأذى والعذاب ، وهو لا يحتمل فى نفسه الأذى ؛ وهو رقيق الاحتمال ، يستطار بالنعمة ، ويجزع من الشدة ,ويتجاوز حده فيكفر من الضيق (وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء ومن العطاء والحرمان كله بيد الله . فما لهذا الإنسان المحب للخير الجزوع من الشر ، يبعد عن الله المالك لأمره فى جميع الأحوال (لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير) والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان ؛ وهى قريبة من نفس الإنسان ; والنفس شديدة الحساسية بها . فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق . وقد سبق فى السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه . فهذه تكملة فى الرزق بالذرية . وهى رزق من عند الله كالمال . والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام . وكذلك ذكر (يخلق ما يشاء) فهى توكيد للإيحاء النفسى المطلوب فى هذا الموضع . ورد الإنسان ، المحب للخير ، إلى الله الذى يخلق ما يشاء مما يسر وما يسوء ومن عطاء أو حرمان . ثم يفصل حالات العطاء والحرمان:فهو يهب لمن يشاء إناثاً [وهم كانوا يكرهون الإناث] ويهب لمن يشاء الذكور . ويهب لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء . ويحرم من يشاء فيجعله عقيماً [والعقم يكرهه كل الناس] . . وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله . لا يتدخل فيها أحد سواه . وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته (إنه عليم قدير) وفى ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التى تدور عليها السورة . حقيقة الوحى والرسالة . يعود إلى هذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ، وفى أية صورة يكون . ويؤكد أنه قد وقع فعلا إلى الرسول الأخير ﷺ لغاية يريدها الله سبحانه . ليهدى من يشاء إلى صراط مستقيم (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور) ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها:" من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث (وحيا) يلقى فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله (أو من وراء حجاب) كما كلم الله موسى – عليه السلام (أو يرسل رسولاً) وهو الملك (فيوحى بإذنه ما يشاء) بالطرق التى وردت عن رسول الله ﷺ الأولى:ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ﷺ:" إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . . " والثانية:أنه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلاً ، فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول . والثالثة:أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ،

وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها , ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها . والرابعة:أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم . هذه صور الوحى وطرق الاتصال (إنه على حكيم) يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار . . وبعد فإنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحى أو حديث ، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة فى أوصالى . . كيف ؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التى ليس لها حيز فى المكان ولا حيز فى الزمان ، المحيطة بكل شيء ، والتى ليس كمثلها شيء . كيف يكون هذا الإتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة فى المكان والزمان ، محدودة بحدود المخلوقات ، من أبناء الفناء ؟! ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معانى وكلمات وعبارات (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) (وكذلك) بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا الإتصال (أوحينا إليك) فالوحى تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعا . أوحينا إليك (روحاً من أمرنا) فيه حياة , يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب وفى الواقع العملى المشهود (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحى . وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفاً فى الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة ، فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو اشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير . وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمد – عليه صلوات الله (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء) وهذه طبيعته الخالصة . طبيعة هذا الوحى . هذا الروح . هذا الكتاب . إنه نور . نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وهناك توكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى , بمشيئة الله سبحانه ، وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذى لا يعرفه سواه ؛ والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله , فهو لا ينشيء الهدى فى القلوب ؛ ولكن يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض) فهى الهداية إلى طريق الله ، الذى تلتقى عنده المسالك . لأنه الطريق إلى المالك ، الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ فالذى يهتدى إلى طريقه يهتدى إلى ناموس السماوات والأرض ، وقوى السماوات والأرض ، ورزق السماوات والأرض ، واتجاه السماوات والأرض إلى مالكها العظيم . الذى إليه تتجه ، والذى إليه تصير (ألا إلى الله تصير الأمور) فكلها تنتهى إليه ، وتلتقى عنده ، وهو يقضى فيها بأمره . وهذا النور يهدى إلى طريقه الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا إليه فى النهاية مهتدين طائعين . وهكذا تنتهى السورة التى بدأت بالحديث عن الوحى . وكان الوحى محورها الرئيسى . وقد عالجت قصة الوحى منذ النبوات الأولى . لتقرر وحدة الدين ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق . ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة محمد ﷺ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة . ولتكل إلى هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض . ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز , الذى تصلح به للقيادة ، وتحمل به هذه الأمانة . الأمانة التى تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم . .

سورة الزخرف

مكية ، و آياتها ٨٩

تعرض هذه السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ؛ ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ؛ وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة , التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائماً في النفوس في كل زمان ومكان . كانت الوثنية الجاهلية تقول:إن في هذه الأنعام التي سخرها الله للعباد ، نصيباً لله , ونصيباً لآلهتهم المدعاة (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا:هذا لله – بزعمهم وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) وكانت لهم في الأنعام أساطير شتى وخرافات أخرى كلها ناشىء من انحرافات العقيدة . فكانت هناك أنواع من الأنعام محرمة ظهورها على الركوب – وأنواع محرمة لحومها على الأكل (وقالوا:هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه) وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ؛ ورد النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى . فالأنعام من خلق الله ، وهي طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعاً . وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ; لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم في الأنعام ما لم يأمر به الله ؛ بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ؛ ثم هم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة التي يقرون بها ، ويعزلونها عن حياتهم الواقعة ، ويتبعون خرافات وأساطير (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن:خلقهن العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهدا , وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون , لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا:سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون) وكانت الوثنية الجاهلية تقول: إن الملائكة بنات الله ؛ ومع أنهم هم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ! ويعبدونهم من دونه ، ويقولون:إننا نعبدهم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم ! وكانت مجرد أسطورة ناشئة من انحراف العقيدة . وفي هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم ؛ ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التي لا تستند إلى شيء على الإطلاق (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين . . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا:لو شاء الرحمن ما عبدناهم ! ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا:إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون !) ولما قيل لهم:إنكم تعبدون أصناماً وأشجاراً وإنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم , وقيل لهم:إن كل معبود من دون الله هو وعابدوه في النار . حرفوا الكلام الواضح البين ، واتخذوا منه مادة للجدل . وقالوا:فما بال عيسى وقد عبده قومه ؟ أهو في النار ؟! ثم قالوا:إن الأصنام تماثيل الملائكة والملائكة بنات الله . فنحن في عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى وهو بشر له طبيعة الناس ! وفي هذه السورة يكشف عن التوائهم في هذا الجدل ؛ ويبرىء عيسى – عليه السلام – مما ارتكبه أتباعه من بعده وهو منه بريء (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا: آآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلاً . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل . . .) وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ، وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل عقيدة . وهم في هذه الجاهلية الوثنية يخبطون فبين لهم في هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم ، وأنها ملة التوحيد الخالص ، وأن كلمة التوحيد باقية في عقبه ، وأن الرسول ﷺ قد جاءهم بها ، ولكنهم استقبلوها واستقبلوه بغير ما كان ينبغي من ذرية إبراهيم (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون . بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا:هذا سحر ، وإنا به كافرون . . .) ولم يدركوا حكمة اختيار الله – سبحانه – لرسوله ﷺ ووقفت في وجوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التي اعتادوا أن يقيسوا

بها الرجال . وفى هذه السورة يحكى تصوراتهم وأقوالهم فى هذا الصدد ؛ ويرد عليها ببيان القيم الحقيقية , وزهادة القيم التى يعتبرونها هم ويرفعونها (وقالوا:لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم:أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا , ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكؤون ، وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين) ثم جاء بحلقة من قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون ، يبدو فيها اعتزاز فرعون بمثل تلك القيم الزائفة ، وهوانها على الله ، وهوان فرعون الذى اعتز بها ، ونهايته التى تنتظر المعتزين بمثل ما اعتز به (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال:إنى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا:يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون . ونادى فرعون فى قومه قال:يا قوم أليس لى ملك مصر , وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين)

(حم{١} وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ{٢} إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٣} وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ{٤} أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ{٥} وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى الْأَوَّلِينَ{٦} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٧} فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ{٨} وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ{٩} الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٠} وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ{١١} وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ{١٢} لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{١٣} وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ{١٤} وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ{١٥} أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ{١٦} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{١٧} أَوَمَن يُنَشَّأُ فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ{١٨} وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ{١٩} وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ{٢٠} أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ{٢١} بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ{٢٢} وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ{٢٣} قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ{٢٤} فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ){٢٥}

تبدأ السورة بالحرفين: حا . ميم ثم يعطف عليهما قوله تعالى (والكتاب المبين) ويقسم الله – سبحانه – بحاميم كما يقسم بالكتاب المبين . وحا ميم من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس حا ميم . فهذا الكتاب المبين فى صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين . وهذان الحرفان – كبقية الأحرف فى لسان البشر – آية من آيات الخالق , الذى صنع البشر هذا الصنع ، وجعل لهم هذه الأصوات . فهناك أكثر من معنى وأكثر من دلالة فى ذكر هذه الأحرف عند الحديث عن القرآن . يقسم الله – سبحانه – بحا ميم والكتاب المبين ، على الغاية من جعل هذا القرآن فى صورته هذه التى جاء بها للعرب (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) فالغاية هى أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذى يعرفون . والقرآن وحى الله –سبحانه وتعالى – جعله فى صورته هذه اللفظية عربياً ، حين اختار العرب لحمل هذه الرسالة ، للحكمة التى أشرنا إلى طرف منها فى سورة الشورى ؛ ولما يعلمه من صلاحية هذه الأمة وهذا اللسان لحمل هذه الرسالة ونقلها . والله اعلم حيث يجعل رسالته . ثم يبين منزلة هذا القرآن عنده وقيمته فى تقديره الأزلى الباقى (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) ولا ندخل فى البحث عن المدلول الحرفى لأم الكتاب ما هى:أهى اللوح المحفوظ ، أم هى علم الله الأزلى . فهذا كهذا ليس له مدلول حرفى محدد فى إدراكنا . ولكننا ندرك منه مفهوماً يساعد على تصورنا لحقيقة كلية . وحين نقرأ هذه الآية (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) فإننا نستشعر القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن فى علم الله وتقديره . وهذا حسبنا . فهذا القرآن (على) (حكيم) وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة . وإنه لكذلك ! وكأنما فيه روح . روح ذات سمات وخصائص ، تتجاوب مع الأرواح التى تلامسها . وهو فى علوه وفى حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه . وينشىء فى مداركها وفى حياتها تلك القيم والتصورات

والحقائق التى تنطبق عليها هاتان الصفتان:علي . حكيم (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ؟) ولقد كان عجيباً – وما يزال – أن يعنى الله سبحانه – فى عظمته وفى علوه وفى غناه – بهذا الفريق من البشر ، فينزل لهم كتاباً بلسانهم ، يحدثهم بمافى نفوسهم ، ويكشف لهم عن دخائل حياتهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله فى الغابرين . . ثم هم بعد ذلك يهملون ويعرضون ! وإلى جانب هذا التهديد يذكرهم بسنة الله فى المكذبين ، بعد إرسال النبيين (وكم أرسلنا من نبى فى الأولين ، وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشاً ، ومضى مثل الأولين) فماذا ينتظرون هم وقد أهلك الله من هم أشد منهم بطشاً ، حينما وقفوا يستهزئون بالرسل كما يستهزئون ؟ والعجيب – كان – فى أمر القوم أنهم كانوا يعترفون بوجود الله ، وخلقه للسماوات والأرض . ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائجه الطبيعية من توحيد الله ، وإخلاص التوجه إليه فكانوا يجعلون له شركاء ، يخصونهم ببعض ما خلق من الأنعام ؛ كما كانوا يزعمون أن الملائكة بناته ، ويعبدونهم من دونه فى صورة أصنام ! والقرآن يعرض اعترافهم ، ويرتب عليه نتائجه ، ويوجههم إلى منطق الفطرة الذى يجانبونه ، وإلى السلوك الواجب تجاه نعمته عليهم فيما خلق لهم من الفلك والأنعام . ثم يناقشهم بمنطقهم فى دعواهم عن الملائكة (ولئن سألتهم:من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن:خلقهن العزيز العليم) لقد كانت للعرب عقيدة – نظن أنها بقايا من الحنيفية الأولى ملة إبراهيم عليه السلام ,ولكنها بهتت وانحرفت ودخلت فيها الأساطير – وقد بقى منها ما لا تملك الفطرة إنكاره من وجود خالق لهذا الكون ، وأنه هو الله ، فما يمكن – فى منطق الفطرة وبداهتها – أن يكون هذا الكون قد نشأ هكذا من غير خالق ؛ وما يمكن أن يخلق هذا الكون إلا الله . ولكنهم كانوا يقفون بهذه الحقيقة التى تنطق بها بداهة الفطرة عند شكلها الظاهر ، ولا يعترفون بما وراءها من مقتضيات طبيعية لها ، وواضح أن هاتين الصفتين (العزيز العليم) ليستا من قولهم . فهم كانوا يعترفون بأن الذى خلقهن هو(الله) ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها الإسلام . هذه الصفات الإيجابية التى تجعل لذات الله فى نفوسهم أثراً فعالاً فى حياتهم وحياة هذا الكون . كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون ، وخالقاً لهم كذلك . ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء . لأنهم لم يعرفوه بصفاته التى تنفى فكرة الشرك ، وتجعلها تبدو متهافتة سخيفة . ثم يمضى بهم خطوة أخرى فى تعريف الله سبحانه بصفاته ؛ وفى بيان فضله عليهم بعد الخلق والإنشاء (الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وجعل لكم فيها سبلاً) وحقيقة جعل هذه الأرض مهداً للإنسان يدركها كل عقل فى كل جيل بصورة من الصور . والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها فى رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير ,وأمامهم ممهدة للزرع , وفى عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء . ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة فى مساحة أعرض وفى صورة أعمق ، بقدر ما وصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب (لعلكم تهتدون) فإن تدبر هذا الكون ، وما فيه من نواميس متناسقة كفيل بهداية القلب إلى خالق هذا الكون ، ومودعه ذلك التنظيم الدقيق العجيب . ثم يخطو بهم خطوة أخرى فى طريق نشأة الحياة والأحياء ، بعد تمهيد الأرض للإنسان وتذليل السبل فيها للحياة (والذى نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتاً ، كذلك تخرجون) والماء الذى ينزل من السماء يعرفه كل إنسان ويراه كل إنسان ؛ ولكن أكثر الناس يمرون على هذا الحدث العجيب دون يقظة ودون اهتزاز ، لطول الألفة والتكرار . فأما محمد رسول الله ﷺ فكان يتلقى قطراته فى حب وفى ترحيب وفى حفاوة وفى استبشار ؛ لأنها قادمة إليه من عند الله . ذلك أن قلبه الحى كان يدرك صنع الله الحى فى هذه القطرات , ويرى يده الصناع ! وهكذا ينبغى أن يتلقاها القلب الموصول بالله ونواميسه فى هذا الوجود (والذى نزل من السماء ماء بقدر) فهو مقدر موزون لا يزيد فيغرق ؛ ولا يقل فتجف الأرض وتذبل الحياة ؛ ونحن نرى هذه الموافقة العجيبة ، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما ارادها الله (فأنشرنا به بلدة ميتاً) والإنشاء هو الإحياء . والحياة تتبع الماء . ومن الماء كل شىء حى (كذلك تخرجون) فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ؛ والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة , كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة . فالإعادة من البدء ؛ وليس فيها عزيز على الله . ثم هذه الأنعام التى يجعلون منها جزءاً لله وجزءاً لغير الله ، وما لهذا خلقها الله ; إنما خلقها لتكون من نعم الله على الناس ، يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرهما ، ويقابلون نعمته بما تستحقها (والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا:سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون) والزوجية هى قاعدة الحياة كما تشير إليها هذه الآية . فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص التذكير والتأنيث معها . بل ربما كانت الزوجية هى قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هى الذرة المؤلفة من الكترون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) يذكر الناس بهذه الإشارة بنعمة الله عليهم فى اصطفائهم بخلافة هذه الأرض ، وبما سخر لهم فيها من قوى وطاقات . ثم يوجههم إلى الأدب الواجب

فى شكر هذه النعمة وشكر هذا الاصطفاء ؛ وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة ، لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة فى الحياة (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا:سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) فما نحن بقادرين على مقابلة نعمته بنعمة مثلها ، وما نملك إلا الشكر نقابل به هذا الإنعام . ثم ليتذكروا أنهم عائدون بعد الخلافة فى الأرض إلى ربهم ليجزيهم عما فعلوا فى هذه الخلافة التى زودهم فيها بأنعمه . وسخر لهم فيها ما سخر من القوى والطاقات (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) هذا هو الأدب الواجب فى حق المنعم ، يوجهنا الله إليه ، لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التى تغمرنا ، والتى نتقلب بين أعطافها . . ثم ننساه . . ! بعد ذلك يعالج أسطورة الملائكة واتخاذهم الهة بزعم أنهم بنات الله ، وهم عباد الله، ويبدأ بتصوير سخف هذه الأسطورة وتهافتها ، ومقدار ما فى القول بها من كفر صريح (وجعلوا له من عباده جزءاً ، إن الإنسان لكفور مبين) فالملائكة عباد الله ، ونسبة بنوتهم له معناها عزلهم من صفة العبودية ، وتخصيصهم بقرابة خاصة بالله ؛ وهم عباد كسائر العباد ، لا مقتضى لتخصيصهم بصفة غير صفة العبودية فى علاقتهم بربهم وخالقهم . وكل خلق الله عباد له خالصو العبودية . وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه بالكفر الذى لا شبهة فيه (إن الإنسان لكفور مبين) ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبتهم إلى الله(أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟) فإذا كان الله – سبحانه – متخذاً أبناء ، فما له يتخذ البنات ويصفيهم هم بالبنين ; وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لهم ويستاءون: (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) أفما كان من اللياقة والأدب ألا ينسبوا إلى الله من يستاءون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود وجه أحدهم من السوء الذى يبلغ حداً يجل عن التصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟! أفما كان من اللياقة والأدب ألا يخصوا الله بمن ينشأ فى الحلية والدعة والنعومة ، فلا يقدر على جدال ولا قتال ؛ بينما هم – فى بيئتهم – يحتفلون بالفرسان والمقاويل من الرجال ؟! إنه يأخذهم فى هذا بمنطقهم ، ويخجلهم من انتقاء ما يكرهون ونسبته إلى الله . فهلا اختاروا ما يستحسنونه وما يسرون له فنسبوه إلى ربهم ، إن كانوا لا بد فاعلين ؟ !ثم يحاصرهم هم وأسطورتهم من ناحية أخرى . فهم يدعون أن الملائكة إناث . فعلام يقيمون هذا الادعاء ؟ (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً . أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون) أشهدوا خلقهم ؟ فعلموا أنهم إناث ؟ فالرؤية حجة ودليل يليق بصاحب الدعوى أن يرتكن إليه . وما يملكون أن يزعموا أنهم شهدوا خلقهم . ولكنهم يشهدون بهذا ويدعونه , فليحتملوا تبعة هذه الشهادة بغير ما كانوا حاضريه (ستكتب شهادتهم ويسألون) ثم يتابع الفرية وما يصوغونه حولها من جدل واعتذار(وقالوا:لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم . إن هم إلا يخرصون) إنهم يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتتهافت بين أيديهم الأسطورة . فيحيلون على مشيئة الله ، يزعمون أن الله راض عن عبادتهم للملائكة ؛ ولو لم يكن راضيا ما مكنهم من عبادتهم ، ولمنعهم من ذلك منعاً ! وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطاً ؛ فهم لا يوقنون أن الله اراد لهم أن يعبدوا الملائكة – ومن أين يأتيهم اليقين ؟ – (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون). . ويتبعون الأوهام والظنون (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ؟) يستندون إليه فى دعواهم ، ويستندون إليه فى عبادتهم ، ويستمسكون بما فيه من حقائق , ويرتكنون إلى ما عندهم فيه من دليل !! وعند هذا الحد يكشف عن سندهم الوحيد فى اعتقاد هذه الأسطورة المتهافتة التى لا تقوم على رؤية ، ومزاولة هذه العبادة الباطلة التى لا تستند إلى كتاب (بل قالوا:إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون) وهى قولة تدعو إلى السخرية ، فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة . إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد ، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل . وهى صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضى حيث هو منساق ؛ ولا يسأل:إلى أين نمضى ؟ ولا يعرف معالم الطريق ! وفى نهاية هذه الجولة يعرض عليهم مصائر الذين قالوا قولتهم تلك واتبعوا طريقهم فى المحاكاة والتقليد ، وفى الإعراض والتكذيب ، بعد الإصرار على ما هم فيه على الرغم من الإعذار والبيان ! (وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها:إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال:أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما ارسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم:فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) وهكذا يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) أو(مقتدون) ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة , وتطمس عقولهم دون التدبر لأى جديد . ولو كان أهدى . ولو كان أجدى . ولو كان يصدع بالدليل . وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التى لا تريد أن تفتح عينيها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين . وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرضه عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذى يسلكون .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{٢٦} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{٢٧} وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٢٨} بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ{٢٩} وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ{٣٠} وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{٣١} أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{٣٢} وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ{٣٣} وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ{٣٤} وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ{٣٥} وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ{٣٦} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{٣٧} حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ{٣٨} وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ{٣٩} أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٤٠} فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ{٤١} أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ{٤٢} فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٤٣} وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ{٤٤} وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ{٤٥} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٤٦} فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ{٤٧} وَمَا نُرِيهِم مِّن آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٤٨} وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ{٤٩} فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ{٥٠} وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ{٥١} أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ{٥٢} فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ{٥٣} فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ{٥٤} فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٥} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ){٥٦}

لقد كانت قريش تقول:إنها من ذرية إبراهيم – وهذا حق – وإنها على ملة إبراهيم – وهذا ما ليس بحق – فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ; ومن أجلها هجر اباه وقومه بعد ما تعرض للقتل والتحريق ؛ وعليها قامت شريعته , وبها أوصى ذريته . فلم يكن للشرك فيها ظل ولا خيط رفيع ! وفى هذا الشوط من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التى يدعون . ثم يحكى اعتراضهم على رسالة النبى ﷺ وقولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوى عليه من خطأ فى تقدير القيم الأصيلة التى أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التى تخايل لهم وتصدهم عن الحق والهدى . وعقب تقرير الحقيقة فى هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله بعد أن يطلعهم على علة هذا العمى وهو من وسوسة الشيطان . ويلتفت فى نهاية هذا الدرس إلى الرسول ﷺ يسليه ويؤسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادى العمى أو مسمع الصم ؛ وسيلقون جزاءهم سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم . ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فإنه الحق ، الذى جاء به الرسل أجمعون . فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا:أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) ثم يعرض من قصة موسى – عليه السلام – حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم . وكأنما هى نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التى يعترضونها ، وتحكى اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم التى يعتز بها المشركون (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه:إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) إن دعوة التوحيد التى يتنكرون لها هى دعوة أبيهم إبراهيم . الدعوة التى واجه بها أباه وقومه مخالفاً بها عقيدتهم الباطلة ، غير منساق وراء عبادتهم الموروثة ، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ؛ بل لم يجاملهم فى إعلان تبرئه المطلق منها فى لفظ واضح صريح ، يحكيه القرآن الكريم بقوله (إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) ويبدو من حديث إبراهيم – عليه السلام – وتبرئه مما يعبدون إلا الذى فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويجحدون وجود الله أصلاً ؛ إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ، فتبرأ من كل ما يعبدون ، واستثنى الله ؛ ووصفه بصفته التى تستحق العبادة ابتداء ، وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد . وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذى فطره ؛ فقد فطره ليهديه ؛ وهو أعلم كيف يهديه . قال إبراهيم هذه الكلمة التى تقوم بها الحياة . كلمة التوحيد التى يشهد بها الوجود . قالها (وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون)

ولقد كان لإبراهيم – عليه السلام – أكبر قسط فى إقرار هذه الكلمة فى الأرض ، وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه . ولقد قام بها من بنيه رسل ، كان منهم ثلاثة من أولى العزم:موسى وعيسى

ومحمد خاتم الرسل – عليهم صلوات الله وسلامه – واليوم بعد عشرات القرون يقوم فى الأرض أكثر من ألفِ مليون ، من أتباع الديانات الكبرى يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم ، الذى جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه , يضل منهم عنها من يضل ، ولكنها هى باقية لا تضيع ، ثابتة لا تتزعزع , واضحة لا يتلبس بها الباطل (لعلهم يرجعون) يرجعون إلى الذى فطرهم فيعرفوه ويعبدوه . ويرجعون إلى الحق الواحد فيدركوه ويلزموه . ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم . ولكن هذه الكلمة لم تستقر فى الأرض إلا من بعد إبراهيم . عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وربما إدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ، ولها . لقد بعد بهم العهد ؛ ومتعهم الله جيلاً بعد جيل ، حتى طال عليهم العمر ، ونسوا ملة إبراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة ، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالمقاييس الأرضية ، فاختل فى أيديهم كل ميزان ، يُضرب السياق عن حديث إبراهيم ، ويلتفت إلى القوم الحاضرين (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين) وكأنه بهذا الإضراب يقول:لندع حديث إبراهيم ، فما لهم به صلة ولا مناسبة ؛ ولننظر فى شأن هؤلاء وهو لا يتصل بشأن إبراهيم . . إن هؤلاء وآباءهم من قبلهم ، قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم فى الأجل ، حتى جاءهم الحق فى هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين , يعرض عليهم هذا الحق فى وضوح وتبيين (ولما جاءهم الحق قالوا:هذا سحر ، وإنا به كافرون) ولا يختلط الحق بالسحر . فهو واضح بين ، وإنما هى دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها . فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ؛ ولكنهم كانوا يخدعون الجماهير من خلفهم ، فيقولون:إنه سحر ، ثم يحكى القرآن تخليطهم فى القيم والموازين ؛ وهم يعترضون على اختيار الله ﷻ ليحمل إليهم الحق والنور (وقالوا:لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)! يقصدون بالقريتين مكة والطائف . ولقد كان رسول الله ﷺ من ذؤابة قريش ، ثم من ذؤابة بنى هاشم . وهم فى العلية من العرب . كما كان شخصه ﷺ معروفاً بسمو الخلق فى بيئته قبل بعثته . ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، فى بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية . وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)! والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل . ولعلهِ – سبحانه – لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ; فاختار رجلاً ميزته الكبرى . . الخلق . . وهو من طبيعة هذه الدعوة . . وسمته البارزة . . التجرد . . وهو من حقيقة هذه الدعوة . . ولم يختره زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا صاحب جاه ، ولا صاحب ثراء . كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء . ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها فى شيء . ولكى لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة . ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف . ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع ، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء ، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)! فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله ، التى يختار لها من عباده من يشاء ؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ؛ مبيناً لهم عن حقيقة القيم التى يعتزون بها ، ووزنها الصحيح فى ميزان الله (أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون) أهم يقسمون رحمة ربك ؟ يا عجباً ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً , ولا يحققون لأنفسهم رزقاً حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ؛ وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) ورزق المعاش فى الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد ، وظروف الحياة ، وعلاقات المجتمع . وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . تختلف من بيئة لبيئة ، ومن عصر لعصر ، ومن مجتمع لمجتمع ، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها . ولكن السمة الباقية فيه ، والتى لم تتخلف أبداً – حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج وللتوزيع – أنه متفاوت بين الأفراد . وتختلف أسباب التفاوت ما تختلف بين أنواع المجتمعات وألوان النظم . ولكن سمة التفاوت فى مقادير الرزق لا تتخلف أبداً . ولم يقع يوماً – حتى فى المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة – أن تساوى جميع الأفراد فى هذا الرزق أبداً (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) والحكمة فى هذا التفاوت الملحوظ فى جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات هى (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) ليسخر بعضهم بعضاً . . ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما . وليس التسخير هو الاستعلاء . . استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد . . كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج ، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهى الخالد . كلا ويسخر بعضهم لبعض فى كل وضع وفى كل ظرف . المقدر عليه فى الرزق مسخر للمبسوط له فى الرزق . وكلهم مسخرون للخلافة فى الأرض بهذا التفاوت فى المواهب والاستعدادات ، والتفاوت فى الأعمال والأرزاق . . وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية

. وأحسب أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون أمام هذا النص ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق فى الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون فى الرزق ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ! ذلك شأن الرزق والمعاش فى هذه الحياة الدنيا . ووراء ذلك رحمة الله (ورحمة ربك خير مما يجمعون) والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أنهم لها أهل . ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا ؛ ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا . فهذه القيم عند الله زهيدة زهيدة . ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون . بينما يختص برحمته المختارين . وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث – لو شاء الله – لأغدقها إغداقاً على الكافرين به . ذلك إلا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين) فهكذا – لولا أن يفتتن الناس . والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا فى قلوبهم – لجعل لمن يكفر بالرحمن صاحب الرحمة الكبيرة العميقة – بيوتاً سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب . بيوتا ذات أبواب كثيرة . قصورا . فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . . رمزاً لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع ؛ بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن ! (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) متاع زائل ، لا يتجاوز حدود هذه الدنيا . ومتاع زهيد يليق بالحياة الدنيا (والآخرة عند ربك للمتقين) وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم ؛ فهو يدخر لهم ما هو أكرم وأبقى ؛ ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى . ويميزهم على من يكفر بالرحمن ، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص ما يبذله للحيوان ! ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ؛ وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله ، ولا يشير إلى فلاح ؛ وأن الآخرة عند ربك للمتقين , استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض ، وهم عمى عن ذكر الله , منصرفون عن الطاعات التى تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين) والعشى ه كلال البصر عن الرؤية ، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذى لا تملك العين أن تحدق فيه ؛ أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله . وقد يكون ذلك لمرض خاص . والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير . وقد قضت مشيئة الله فى خلقة الإنسان ذلك . واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء . وهذا الشرط وجوابه هنا فى الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التى تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله فى علمه . ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين . أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ؛ ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ؛ إنما يوهمه أنه سائر فى الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم . والتعبير بالفعل المضارع (ليصدونهم) (ويحسبون) يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار ؛ يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون . ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون (حتى إذا جاءنا قال:يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين)! وهكذا ننتقل فى ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة . ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمى (الذين يعشون عن ذكر الرحمن) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار . هنا يفيقون كما يفيق المخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ؛ وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذى زين له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده فى طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ! ينظر إليه فى حنق يقول (يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين)! يا ليته لم يكن بيننا لقاء . على هذا البعد السحيق !ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله: (فبئس القرين)! ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون)! فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون ! عندئذ ينصرف عن هؤلاء ، فى مشهدهم البائس الكئيب ؛ ويدعهم يتلاومون ويتشاتمون . ويتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يسليه عن هذا المصير البائس الذى انتهى إليه فريق من البشر ؛ ويعزيه عن إعراضهم عنه وكفرهم بما جاء به ؛ ويثبته على الحق الذى أوحى إليه ؛ وهو الحق الثابت المطرد من قديم ، فى رسالة كل رسول ﷺ وهذا المعنى يتكرر فى القرآن تسلية لرسول الله ﷺ وبياناً لطبيعة الهدى والضلال , ورجعهما إلى مشيئة الله وتقديره وحده ؛ وإخراجهما من نطاق وظيفة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ووضع حدود فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة فى أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ؛ وتثبيت معنى التوحيد فى صورة من أدق صوره ، وفى موضع من ألطف مواضعه (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين) وهم ليسوا صماً ولا عمياً ، ولكنهم كالصم والعمى فى الضلال ، وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى ، والإشارة إلى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يَسمع ، وأن يهدى من يبصر . فإذا

هم عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم فما للرسول إلى هداهم من سبيل ؛ ولا عليه من ضلالهم ، فقد قام بواجبه الذى يطيق . والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدود (فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) والأمر لا يخرج عن هذين الحالين . فإذا ذهب الله بنبيه فسيتولى هو الانتقام من مكذبيه . وإذا قدر له الحياة حتى يتحقق ما أنذرهم به ، فالله قادر على تحقيق النذير , وهم ليسوا له بمعجزين . ومرد الأمر إلى مشيئة الله وقدرته فى الحالين ، وهو صاحب الدعوة . وما الرسول إلا رسول (فاستمسك بالذى أوحى إليك . إنك على صراط مستقيم) واثبت على ما أنت فيه ، وسر فى طريقك لا تحفل ما كان منهم وما يكون . سر فى طريقك مطمئن القلب (إنك على صراط مستقيم) ل ا يلتوى بك ولا ينحرف ولا يحيد . وهذه العقيدة متصلة بحقيقة الكون الكبرى ، متناسقة مع الناموس الكلى الذى يقوم عليه هذا الوجود . فهى مستقيمة معه لا تنفرج عنه ولا تنفصل . وهى مؤدية بصاحبها إلى خالق هذا الوجود , على استقامة تؤمن معها الرحلة فى ذلك الطريق ! والله - سبحانه - يثبت رسوله ﷺ بتوكيد هذه الحقيقة . وفيها تثبيت كذلك للدعاة من بعده ، مهما لاقوا من عنت الشاردين عن الطريق ! (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين:

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير .

أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك . وهذا ما حدث فعلاً . .

فأما الرسول ﷺ فإن مئات الملايين من الشفاه تصلى وتسلم عليه ، وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربع مئة عام . ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم ، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة . وهو الذى جعل لهم دورهم الأكبر فى تاريخ هذه البشرية . وهو الذى واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التى استمسكوا فيها به . فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض ، واستصغرتهم الدنيا ؛ وقذفت بهم فى ذيل القافلة هناك ، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين ! وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التى اختارها الله لدينه ، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة ، إذا هى تخلت عن الأمانة (وسوف تسألون) وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل . وأنا إليه أميل (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا:أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟). والتوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول . فعلام يرتكن هؤلاء الذين يجعلون من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ والقرآن يقرر هذه الحقيقة هنا فى هذه الصورة الفريدة . صورة الرسول ﷺ يسأل الرسل قبله عن هذه القضية: (أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول . وهى صورة طريفة حقاً . وهو أسلوب موح شديد التأثير فى القلوب . وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول ﷺ والرسل قبله . وهناك أبعاد الموت والحياة وهى أكبر من أبعاد الزمان والمكان . . ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى هنا أمام الحقيقة الثابتة المطردة . حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد . وهى كفيلة ان تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسائر الظواهر المتغيرة ; ويتلاقى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين . . وهذه هى ظلال التعبير القرآنى اللطيف العجيب . ثم كيف كانت العاقبة بعدما ألزمهم الله الحجة بالتبليغ (فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسالة ، ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق . كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة فى استقبال دعوة الحق ، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عرض هذه الأرض ؛ وطبيعة الجماهير التى يستخفها الكبراء والطغاة على مدار القرون ! (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فقال:إنى رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) هنا يعرض حلقة اللقاء الأول بين موسى وفرعون ، فى إشارة مقتضبة تمهيداً لاستعراض النقطة الرئيسية المقصودة من القصة فى هذا الموضع - وهى تشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركى العرب وقيمهم - ويلخص حقيقة رسالة موسى (فقال:إنى رسول رب العالمين) وهى ذات الحقيقة التى جاء بها كل رسول:أنه (رسول) وأن الذى أرسله هو (رب العالمين) ويشير كذلك إشارة سريعة إلى الآيات التى عرضها موسى ، وينهى هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها (إذا هم منها يضحكون) شأن الجهال المتعالين !يلى ذلك إشارة إلى ما أخذ الله به فرعون وملأه من الابتلاءات المفصلة فى سور أخرى (وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا:يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) وهكذا لم تكن الآيات التى ظهرت على يدى موسى - عليه السلام -

مدعاة إيمان ، وهى تأخذهم متتابعة . كل آية أكبر من أختها . مما يصدق قول الله تعالى فى مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدى قلباً لم يتأهل للهدى ؛ وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدى العمى ! والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم (يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون). فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء . ومع ذلك يقولون له (يا أيها الساحر) ويقولون كذلك (ادع لنا ربك بما عهد عندك) وهو يقول لهم:إنه رسول (رب العالمين) لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان ، على الرغم من قولهم (إننا لمهتدون) (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) ولكن الجماهير قد تؤخذ بالخوارق المعجزة ، وقد يجد الحق سبيلاً إلى قلوبها المخدوعة . وهنا يبرز فرعون فى جاهه وسلطانه ، وفى زخرفه وزينته ، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحى ، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة فى عهود الطغيان ، المخدوعة بالأبهة والبريق: (ونادى فرعون فى قومه:قال:يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟) إن ملك مصر وهذه الأنهار التى تجرى من تحت فرعون ، أمر قريب مشهود للجماهير ، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه . فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما – ومصر لا تساوى هباءة فيه – فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه ، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد ! والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكونى العريض البعيد ! ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب ! (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ؟) وهو يعنى بالمهانة أن موسى ليس ملكاً ولا أميراً ولا صاحب سطوة ومال مشهود . أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين . شعب إسرائيل . أما قوله (ولا يكاد يبين) فهو استغلال لما كان معروفاً عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان . وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذى له ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته ، خيراً من موسى – عليه السلام – ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم ! (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) هكذا . من ذلك العرض التافه الرخيص ! أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوى أكثر من الآيات المعجزة التى أيد الله بها رسوله الكريم ! أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك ، إذ كانت هذه عادتهم ، فيكون الرسول ذا ملك وذا سلطان ؟ (أو جاء معه الملائكة مقترنين) وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر ، تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ! وهو اعتراض مكرور ، ووجه به أكثر من رسول ! (فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين) واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ؛ ويلقون فى روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين ! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسكون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان . فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة فى مهب الريح . ثم انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير ؛ وعلم الله أن القوم لا يؤمنون ؛ وعمت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهى فى خيلاء ، وعشت عن الآيات البينات والنور ؛ فحقت كلمة الله وتحقق النذير (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) يتحدث الله سبحانه عن نفسه فى مقام الانتقام والتدمير ؛ إظهاراً لغضبه ولجبروته فى هذا المقام . فيقول (فلما آسفونا) أى أغضبونا أشد الغضب (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) يعنى فرعون وملأه وجنده . وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم الله سلفاً يتبعه كل خلف ظالم (ومثلاً للآخرين) الذين يجيئون بعدهم ، ويعرفون قصتهم ،فيعتبرون . وهكذا تلتقى هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السلام – بالحلقة المشابهة لها من قصة العرب فى مواجهة رسولهم الكريم . فتثبت الرسول ﷺ والمؤمنين معه ؛ وتحذر المشركين المعترضين ، وتنذرهم مصيراً كمصير الأولين . .

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ{٥٧} وَقَالُوا آَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ{٥٨} إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِى إِسْرَائِيلَ{٥٩} وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ{٦٠} وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ{٦١} وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ{٦٢} وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{٦٣} إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ{٦٤} فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ{٦٥} هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{٦٦} الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ{٦٧} يَا عِبَادِ لَا

خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ{٦٨} الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ{٦٩} ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ{٧٠} يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ
وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٧١} وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٧٢} لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا
تَأْكُلُونَ{٧٣} إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ{٧٤} لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ{٧٥} وَمَا
ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ{٧٦} وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ{٧٧} لَقَدْ
جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ{٧٨} أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ{٧٩} أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ{٨٠} قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ{٨١} سُبْحَانَ
رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ{٨٢} فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ{٨٣} وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ{٨٤} وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٨٥} وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{٨٦} وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ{٨٧}
وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ{٨٨} فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ){٨٩}

فى هذا الدرس الأخير من السورة يستطرد السياق إلى حكاية أساطيرهم حول عبادة الملائكة ; ويحكى حادثاً من حوادث الجدل الذى كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية ، لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولكن مراء ومحالاً ! فلما قيل لهم:إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . وكان القصد هو أصنامهم التى جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها . وقيل لهم:إن كل عابد وما يعبد من دون الله فى النار . لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم - وقد عبده المنحرفون من قومه - أهو فى النار ؟ وكان هذا مجرد جدل ومجرد مراء . ثم قالوا:إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ! وكان هذا باطلاً يقوم على باطل . وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى ابن مريم ، يكشف عن حقيقته وحقيقة دعوته , واختلاف قومه من قبله ومن بعده . . ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة . وهنا يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين . وينفي اساطيرهم عن الملائكة ، وينزه الله - سبحانه - عما يصفون ، ويعرفه لعباده ببعض صفاته ؛ وملكيته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة وإليه يرجعون . ويختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصفح عنهم والإعراض ويدعهم ليعلموا ما سيعلمون ! وهو تهديد ملفوف يليق بالمجادلين المرائين بعد هذا الإيضاح والتبيين (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا:أآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلاً . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون ، هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) (ولما جاء عيسى بالبينات قال:قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل) فليس إلهاً يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه . إنما هو عبد أنعم الله عليه . ولا جريرة له فى عبادتهم إياه . فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً لبنى إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به . فنسوا المثل ، وضلوا السبيل ! واستطرد إلى أسطورتهم حول الملائكة ، يبين لهم أن الملائكة خلق من خلق الله مثلهم . ولو شاء الله لجعل الملائكة يخلفونهم فى هذه الأرض ، أو لحول بعض الناس إلى ملائكة يخلفونهم فى الأرض (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) فمرد الأمر إلى مشيئة الله فى الخلق . وما يشاؤه من الخلق يكون . وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب ، ولا يتصل به - سبحانه - إلا صلة المخلوق بالخالق ، والعبد بالرب ,والعابد بالمعبود . ثم يعود إلى تقرير شيء عن عيسى عليه السلام . يذكرهم بأمر الساعة التى يكذبون بها أو يشكون فيها (وإنه لعلم للساعة . فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية (وإنه لعلم للساعة) بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية (وأنه لَعَلَم للساعة) بمعنى أمارة وعلامة . وكلاهما قريب من قريب . عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال:قال رسول الله ﷺ :" والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية , ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها " وهو غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين (فلا تمترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم) وكانوا يشكون فى الساعة ، فالقرآن يدعوهم إلى اليقين . وكانوا يشردون عن الهدى ، والقرآن يدعوهم

على لسان الرسول ﷺإلى اتباعه فإنه يسير بهم في الطريق المستقيم, القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه . ويبين لهم أن انحرافهم وشرودهم أثر من اتباع الشيطان . والرسول أولى أن يتبعوه (ولا يصدنكم الشيطان . إنه لكم عدو مبين) والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم , ومنذ المعركة الأولى فى الجنة . وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقف له بالمرصاد , عن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ثم لا يأخذ حذره ثم يزيد فيصبح تابعاً لهذا العدو الصريح ! وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى – عليه السلام – وحقيقة ما جاء به ؛ وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده (ولما جاء عيسى بالبينات قال:قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه , فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التى أجراها الله على يديه ، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم . وقال لقومه (قد جئتكم بالحكمة) ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير ؛ واطمأن إلى خطواته في الطريق على اتزان وعلى نور . وجاء ليبين لهم بعض الذى يختلفون فيه . وقد اختلفوا فى كثير من شريعة موسى – عليه السلام – وانقسموا فرقاً وشيعاً . ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله . وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) ولم يقل إنه إله ، ولم يقل إنه ابن الله . وقال لهم:إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج ، ولا زلل فيه ولا ضلال . ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً . اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة (فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) ثم جاء مشركو العرب يحاجون رسول الله ﷺ في عيسى – عليه السلام – بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده ، وما أحدثته حوله من أساطير ! وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى – عليه السلام – مع المحاجين لرسول الله ﷺ بفعل هذه الأحزاب ؛ ويصور حالهم يوم القيامة في مشهد رائع طويل ، يحتوى كذلك صفحة المتقين المكرمين فى جنات النعيم ، يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لا يشعرون بمقدمها (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون)! هذه المفاجأة تحدث حدثاً غريباً ، يقلب كل ما كانوا يألفونه في الحياة الدنيا (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم . . لقد كانوا فى الحياة الدنيا يجتمعون على الشر ، ويملى بعضهم لبعض فى الضلال . فاليوم يتلاومون . واليوم يلقى بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر . واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون ، من حيث كانوا أخلاء يتناجون ! (إلا المتقين) فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى , وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوى الكريم للمتقين (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) أى تسرون سروراً يشيع فى أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور . ثم نشهد – بعين الخيال – فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم . وإذا لهم فى الجنة ما تشتهيه الأنفس . وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون ، كمالاً وجمالاً في التكريم (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين) ومع هذا النعيم . ما هو أكبر منه وأفضل . التكريم بالخطاب من العلى الكريم (وأنتم فيها خالدون) وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون)فما بال المجرمين الذين تركناهم منذ هنيهة يتلاحون ويختصمون ؟ (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون) وهو عذاب دائم ، وفى درجة شديدة عصيبة . لا يفتر لحظة ، ولا يبرد هنيهة . ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل فى الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد . فهم فيه يائسون قانطون (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) كذلك فعلوا بأنفسهم ، وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) ثم تتناوح فى الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معانى اليأس والكرب والضيق (ونادوا:يا مالك . ليقض علينا ربك) إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة فى الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين . إنهم لا يصيحون فى طلب النجاة ولا فى طلب الغوث . فهم مبلسون يائسون . إنما يصيحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذى يريح . . وحسب المنايا أن يكن أمانيا ! . . وإن هذا النداء ليلقى ظلاً كثيفاً للكرب والضيق . وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب ، وأجساماً تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة (يا مالك . ليقض علينا ربك)! ولكن الجواب يجيء فى تيئيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام (قال:إنكم ماكثون)! فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء . . إنكم ما كثون ! وفى ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المعرضين عن الهدى , الصائرين إلى هذا المصير ؛ ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد ، فى أنسب جو للتحذير والتعجيب (لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون) وكراهة الحق هى التى

كانت تحول بينهم وبين اتباعه ، لا عدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك فى صدق الرسول الكريم ؛ فما عهدوا عليه كذباً قط على الناس ، فكيف يكذب على الله ويدعى عليه ما يدعيه ؟ والذين يحاربون الحق لا يجهلون فى الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ، لأنه يصادم أهواءهم ، ويقف فى طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ؛ ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته ! فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والإجتراء على الدعاة ! لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت ، العليم بما يسرون وما يمكرون (أم أبرموا أمراً ؟ فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم و نجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون) فإصرارهم على الباطل فى وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيته . وتدبيرهم ومكرهم فى الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى . والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم . ويتركهم بعد هذا التهديد المرهوب ، ويوجه رسوله الكريم ، إلى قول يقوله لهم . ثم يدعهم من بعده لمصيرهم الذى شهدوا صورته منذ قليل (قل:إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) لقد كانوا يعبدون الملائكة بزعم أنهم بنات الله . ولو كان لله ولد لكان أحق أحد بعبادته , وبمعرفة ذلك ، نبى الله ورسوله ، فهو منه قريب ، وهو أسرع إلى طاعة الله وعبادته , وتوقير ولده إن كان له ولد كما يزعمون ! ولكنه لا يعبد إلا الله . فهذا فى ذاته دليل على أن ما يزعمونه من بنوة أحد لله لا أصل له ، ولا سند ولا دليل ! تنزه الله وتعالى عن ذلك الزعم الغريب ! (سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش . عما يصفون) وحين يتأمل الإنسان هذه السماوات والأرض ، ونظامها ، وتناسقها ، ومدى ما يكمن وراء هذا النظام من عظمة وعلو . ومن سيطرة واستعلاء . يشير إلى هذا كله قوله (رب العرش) يصغر فى نفسه كل وهم وكل زعم من ذلك القبيل . ويدرك بفطرته أن صانع هذا كله لا يستقيم فى الفطرة أن يكون له شبه – اى شبه – بالخلق . الذين يلدون وينسلون ! ومن ثم يبدو مثل ذلك القول لهواً ولعباً وخوضاً وتقحماً لا يستحق شىء منه المناقشة والجدل ; إنما يستحق الإهمال أو التحذير (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) والذى شهدوا صورة منه يوم يكون ! ثم يمضى – بعد الإعراض عنهم وإهمالهم – فى تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته للسماوات والأرض والعرش العظيم (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ، وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وعنده علم الساعة ، وإليه ترجعون . ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) وهو تقرير الألوهية الواحدة فى السماء وفى الأرض ، والتفرد بهذه الصفة لا يشاركه فيها مشارك . مع الحكمة فيما يفعل . والعلم المطلق بهذا الملك العريض . ثم تمجيد لله وتعظيم فى لفظ (تبارك) أى تعاظم الله وتسامى عما يزعمون ويتصورون . وهو (رب السماوات والأرض وما بينهما). وهو الذى يعلم وحده علم الساعة وإليه المرجع والمآب . ويومذاك لا أحد ممن يدعونهم أولاداً أو شركاء يملك أن يشفع لأحد منهم – كما كانوا يزعمون أنهم يتخذونهم شفعاء عند الله . فإنه لا شفاعة إلا لمن شهد بالحق ، وآمن به . ومن يشهد بالحق لا يشفع فى من جحده وعاداه ! ثم يواجههم بمنطق فطرتهم ، وبما لا يجادلون فيه ولا يشكون ، وهو أن الله خالقهم . فكيف حينئذ يشركون معه أحداً فى عبادته ، أو يتوقعون من أحد شفاعة عنده لمن أشرك به (ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله . فأنى يؤفكون) وكيف يصرفون عن الحق الذى تشهد به فطرتهم ويحيدون عن مقتضاه المنطقى المحتوم ؟ وفى ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول ﷺ لربه ، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم . فيبرزه ويقسم به (وقيله . يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) وهو تعبير خاص ذو دلالة وإيحاء بمدى عمق هذا القول ، ومدى الاستماع له ، والعناية به ، والرعاية من الله سبحانه والاحتفال . ويجيب عليه – فى رعاية – بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصفح والإعراض ، وعدم الاحتفال والمبالاة . والشعور بالطمأنينة . ومواجهة الأمر بالسلام فى القلب والسماحة والرضاء . وذلك مع التحذير الملفوف للمعرضين المعاندين ، مما ينتظرهم يوم ينكشف المستور (فاصفح عنهم ، وقل سلام . فسوف يعلمون)

سورة الدخان

مكية ، و آياتها ٥٩

يشبه إيقاع هذه السورة المكية ، بفواصلها القصيرة ، وقافيتها المتقاربة ، وصورها العنيفة ، وظلالها الموحية . . يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشرى المشدودة . ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعاً . سواء فى ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكونى ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشرى واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن فى القلوب . وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله فى ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد وإنذاراً لهم وتحذيراً . ثم تعريف للناس بربهم:رب السماوات والأرض وما بينهما ، وإثبات لوحدانيته وهو المحيى والمميت رب الأولين والآخرين . ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم (بل هم فى شك يلعبون)! ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) ودعاءهم بكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتى لا يكشف . وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فلينتهزوا الفرصة ، قبل أن يعودوا إلى ربهم ، فيكون ذلك العذاب المخوف (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ؛ ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه يوم جاءهم رسول كريم ، وناداهم: أن أدوا إلىَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله . . فأبوا أن يسمعوا حتى يئس منهم الرسول . ثم كان مصرعهم فى هوان بعد الاستعلاء والاستكبار (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) وفى غمرة هذا المشهد الموحى يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة ، وقولهم (إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) ليذكرهم بمصرع قوم تبع ، وما هم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثل مصيرهم الأليم ويربط بين البعث ، وحكمة الله فى خلق السماوات والأرض (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق . ولكن أكثرهم لا يعلمون) ثم يحدثهم عن يوم الفصل (ميقاتهم أجمعين) وهنا يعرض مشهداً عنيفاً للعذاب بشجرة الزقوم ، وعتل الأثيم ، وأخذه إلى سواء الجحيم ، يصب من فوق رأسه الحميم . مع التبكيت والترذيل (ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون) وإلى جواره مشهد النعيم عميقاً فى المتعة عمق مشهد العذاب فى الشدة . تمشياً مع ظلال السورة العميقة وإيقاعها الشديد . وتختم السورة بالإشارة إلى القرآن كما بدأت (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) وبالتهديد الملفوف العنيف (فارتقب إنهم مرتقبون) إنها سورة تهجم على القلب البشرى من مطلعها إلى ختامها ، فى إيقاع سريع متواصل . تهجم عليه بإيقاعها كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحدة فى سمة العنف والتتابع . وتطوف به فى عوالم شتى بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، والجحيم والجنة ، والماضى والحاضر ، والغيب والشهادة ، والموت والحياة ، وسنن الخلق ونواميس الوجود . . فهى – على قصرها نسبياً – رحلة ضخمة فى عالم الغيب وعالم الشهود . .

(حم{١} وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ{٢} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ{٣} فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ{٤} أَمْراً مِّن عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ{٥} رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٦} رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ{٧} لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{٨} بَل هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ{٩} فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ{١٠} يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ{١١} رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ{١٢} أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ{١٣} ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ{١٤} إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ{١٥} يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ{١٦} وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ{١٧} أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{١٨} وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{١٩} وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ{٢٠} وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ{٢١} فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ{٢٢} فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ{٢٣} وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ{٢٤} كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٢٥} وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ{٢٦} وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ{٢٧} كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ{٢٨} فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ{٢٩} وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ{٣٠} مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ

كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ{٣١} وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{٣٢} وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ{٣٣} إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ{٣٤} إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ{٣٥} فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٣٦} أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ{٣٧} وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ{٣٨} مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{٣٩} إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٠} يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ{٤١} إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{٤٢} إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ{٤٣} طَعَامُ الْأَثِيمِ{٤٤} كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ{٤٥} كَغَلْيِ الْحَمِيمِ{٤٦} خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ{٤٧} ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ{٤٨} ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ{٤٩} إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ{٥٠} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ{٥١} فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٥٢} يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ{٥٣} كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ{٥٤} يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ{٥٥} لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ{٥٦} فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٥٧} فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{٥٨} فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ{٥٩}

(حم . والكتاب المبين) تبدأ السورة بالحرفين حا . ميم . على سبيل القسم بهما وبالكتاب المبين المؤلف من جنسهما . وقد تكرر الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور ؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله فى تركيب الإنسان ، وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه ، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة من ورائه . . وكلها حقائق عظيمة تكبر فى القلب كلما تدبرها مجرداً من وقع الألفة والعادة الذى يذهب بكل جديد ! فأما المقسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب فى ليلة مباركة (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) والليلة المباركة التى أنزل فيها القرآن هى – والله أعلم – الليلة التى بدأ فيها نزوله ; وهى إحدى ليالى رمضان ، الذى قيل فيه: (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن). . والقرآن لم ينزل كله فى تلك الليلة ؛ كما أنه لم ينزل كله فى رمضان ؛ ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض ؛ وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك . وهذا يكفى فى تفسير إنزاله فى الليلة المباركة . وإنها لمباركة حقاً تلك الليلة التى يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتى يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهى فى حياة البشر ؛ والتى يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة فى هذا القرآن ترجمة يسيرة ، تستجيب لها الفطرة وتلبيها فى هوادة ؛ وتقيم على أساسها عالماً إنسانياً مستقراً على قواعد الفطرة واستجاباتها ومضى ذلك الجيل وبقى بعده القرآن كتاباً مفتوحاً موصولاً بالقلب البشرى ، يصنع به حين يتفتح له ما لا يصنعه السحر ؛ ويحول مشاعره بصورة تحسب أحياناً فى الأساطير ! وبقى هذا القرآن منهجاً واضحاً كاملاً صالحاً لإنشاء حياة إنسانية نموذجية فى كل بيئة وفى كل زمان . حياة إنسانية تعيش فى بيئتها وزمانها فى نطاق ذلك المنهج الإلهى المتميز الطابع ، بكل خصائصه دون تحريف . وهذه سمة المنهج الإلهى وحده . وهى سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية . أنزل الله هذا القرآن فى هذه الليلة المباركة . أولاً للإنذار والتحذير (إنا كنا منذرين) فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإنذار والتنبيه . وهذه الليلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلاً وفارقاً بهذا التنزيل (فيها يفرق كل أمر حكيم) وقد فرق فيها بهذا القرآن فى كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد والباطل الزاهق ، ووضعت الحدود , وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ; فلم يبق هناك أصل من الأصول التى تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم فى دنيا الناس ، كما هو واضح ومرسوم فى الناموس الكلى القديم . وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته فى إرسال الرسل للفصل والتبيين (أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين) وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين (رحمة من ربك) وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى فى تنزيل هذا القرآن ، بهذا اليسر ، الذى يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم فى العروق . وتحول الكائن البشرى إلى إنسان كريم ، والمجتمع البشرى إلى حلم جميل ، لولا أنه واقع تراه العيون ! (إنه هو السميع العليم) يسمع ويعلم ، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون وما يعملون , وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم . وهو المشرف على هذا الكون الحافظ لمن فيه وما فيه (رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين) فما ينزله للناس يربيهم به ، هو طرف من ربوبيته للكون كله ، وطرف من نواميسه التى تصرف الكون . . والتلويح لهم باليقين فى هذا إشارة إلى عقيدتهم المضطربة المزعزعة المهوشة ، إذ كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، ثم يتخذون من دونه أرباباً ، مما يشى بغموض هذه الحقيقة فى نفوسهم وسطحيتها وبعدها عن الثبات واليقين . وهو الإله الواحد الذى يملك الموت والحياة ؛ وهو رب الأولين والآخرين (لا إله إلا هو يحيى ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين) والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع ، وأمرهما خارج عن طاقة كل

مخلوق . يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل . . ومشهد الموت كمشهد الحياة فى كل صورة وفى كل شكل يلمس القلب البشرى ويهزه ؛ ويستجيشه ويعده للتأثر والانفعال ويهيئه للتقبل والاستجابة . ومن ثم يكثر ذكره فى القرآن وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به بين الحين والحين . وعندما يبلغ الموقف هذا الحد من الاستثارة والاستجاشة يضرب السياق عنه ، ويلتفت بالحديث إلى حكاية حالهم تجاهه ؛ وهو حال مناقض لما ينبغى أن يكونوا عليه تجاه حقيقة الموقف الجاد الذى لا مجال للعب فيه: (بل هم فى شك يلعبون) إنهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ويشكون فى تلك الآيات الثابتة . فدعهم إلى يوم هائل عصيب: (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس . هذا عذاب أليم) وقد اختلف السلف فى تفسير آية الدخان . فقال بعضهم . إنه دخان يوم القيامة ، وإن التهديد بارتقابه كالتهديد المتكرر فى القرآن . وإنه آت يترقبونه ويترقبه رسول الله ﷺ وقال بعضهم :بل هو قد وقع فعلاً ، كما توعدهم به . ثم كشف عن المشركين بدعاء الرسول ﷺ ونحن نختار قول ابن عباس – رضى الله عنهما – فى تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة , وقول ابن كثير فى تفسيره . فهو تهديد له نظائره الكثيرة فى القرآن الكريم , فى مثل هذه المناسبة . ومعناه:إنهم يشكون ويلعبون . فدعهم وارتقب ذلك اليوم المرهوب . يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس وفى ظل هذا المشهد الذى يرجون فيه كشف العذاب فلا يجابون يقول لهم:إن أمامكم فرصة بعد لم تضع ، فهذا العذاب مؤخر عنكم قليلاً وأنتم الآن فى الدنيا . وهو مكشوف عنكم الآن فآمنوا كما تعدون أن تؤمنوا فى الآخرة فلا تجابون . وأنتم الآن فى عافية لن تدوم . فإنكم عائدون إلينا (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم يكون ذلك الدخان الذى شهدتم مشهده فى تصوير القرآن له (إنا منتقمون) من هذا اللعب الذى تلعبون ، وذلك البهت الذى تبهتون به الرسول ﷺ بهذا يستقيم تفسير هذه الآيات ، كما يبدو لنا ، والله أعلم بما يريد . بعد ذلك يأخذ بهم فى جولة أخرى مع قصة موسى عليه السلام . فيعرضها فى اختصار ينتهى ببطشة كبرى فى هذه الأرض . بعد إذ أراهم بطشته الكبرى يوم تأتى السماء بدخان مبين ، هذه الجولة تبدأ بلمسة قوية لإيقاظ قلوبهم إلى أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنة وابتلاء . والإملاء للمكذبين فترة من الزمان ، وهم يستكبرون على الله ، ويؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنة وابتلاء . وأن إغضاب الرسول واستنفاد حلمه على أذاهم ورجائه فى هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم و البطش الشديد (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) وابتليناهم بالنعمة والسلطان ، والتمكين فى الأرض ، والإملاء فى الرخاء ، واسباب الثراء والاستعلاء (وجاءهم رسول كريم) وكان هذا طرفاً من الابتلاء ، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم ، الذى لا يطلب منهم شيئاً لنفسه ؛ إنما يدعوهم إلى الله ، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شىء لله ، وألا يستبقوا شيئاً لا يؤدونه من ذوات أنفسهم يضنون به على الله (أن أدوا إلىَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين . وألا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون) إنها كلمات قصيرة تلك التى جاءهم بها رسولهم الكريم – موسى عليه السلام: إنه يطلب إليهم الاستجابة الكلية . والأداء الكامل . والاستسلام المطلق لله . الذى هم عباده . وما ينبغى للعباد أن يعلوا على الله . فهى دعوة الله يحملها إليهم الرسول ، ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم . البرهان القوى والسلطان المبين ، الذى تذعن له القلوب . وهو يتحصن بربه ويعوذ به أن يسطوا عليه وأن يرجموه . فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويعتزلهم ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه . وذلك منتهى النصفة والعدل والمسالمة . ويختصر السياق هنا حلقات كثيرة من القصة ، ليصل إلى قرب النهاية . حين وصلت التجربة إلى نهايتها ؛ وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته ؛ ولن يسالموه أو يعتزلوه . وبدا له إجرامهم أصيلاً عميقاً لا أمل فى تخليهم عنه . عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التى جنتها يداه ؟ وإلا أن ينفض أمره بين يديه ، ويدع له التصرف بما يريد ؟ وتلقى موسى الإجابة إقراراً من ربه لما دمغ به القوم . . حقاً إنهم مجرمون . (فأسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون . واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون) والسرى لا يكون إلا ليلاً ، فالنص عليه يعيد تصوير المشهد ، مشهد السرى بعباد الله – وهم بنو إسرائيل . ثم للإيحاء بجو الخفية ، لأن سراهم كان خفية عن عيون فرعون ومن وراء علمه . والرهو هو الساكن . وقد أمر الله موسى – عليه السلام – أن يمر هو وقومه وأن يدع البحر وراءه ساكناً على هيئته التى مر هو وقومه فيها ، لإغراء فرعون وجنده باتباعهم ، ليتم قدر الله بهم كما أراده (إنهم جند مغرقون) فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظاهرة . والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم . ويختصر السياق حكاية مشهد الغرق أو عرضه ، اكتفاء بالكلمة النافذة التى لا بد أن تكون (إنهم جند مغرقون) ويمضى من هذا المشهد المضمر إلى التعقيب عليه ؛ تعقيباً يشى بهوان فرعون الطاغية المتعالى وملئه المماليء له على الظلم والطغيان . هوانه وهوانهم على الله ، وعلى هذا الوجود الذى كان يشمخ فيه بأنفه ، فيطاطىء له الملأ المفتونون به ؛ وهو أضأل وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ، ولا يرثى له أحد على سوء المآل (كم تركوا من جنات وعيون . وزروع

ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) ويبدأ المشهد بصور النعيم الذى كانوا فيه يرفلون . . جنات . وعيون . وزروع . ومكان مرموق ، ينالون فيه الاحترام والتكريم . ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين . ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه . ويرثه قوم آخرون – وفى موضع آخر قال (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) وبنو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذات . ولكنهم ورثوا ملكاً مثله فى الأرض الأخرى . فالمقصود إذن هو نوع الملك والنعمة . الذى زال عن فرعون وملئه ، وورثه بنو إسرائيل ! ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس فى هذه الأرض:ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ؛ ولم ينظروا أو يؤجلوا عند ما حل الميعاد (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) وهو تعبير يلقى ظلال الهوان ، كما يلقى ظلال الجفاء . . فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد فى أرض ولا سماء . ولم يأسف عليهم أحد فى أرض ولا سماء . وذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين فى الأرض يطأون الناس بالنعال ! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه ، وهو مؤمن بربه ، وهم به كافرون ! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهى تعيش فيه ! وفى الصفحة المقابلة مشهد النجاة والتكريم والاختيار (ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) ويذكر هنا نجاة بنى إسرائيل من العذاب المهين فى مقابل الهوان الذى انتهى إليه المتجبرون المتعالون المسرفون فى التجبر والتعالى:"من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين . . "

ثم يذكر اختيار الله لبنى إسرائيل – على علم – بحقيقتهم كلها ، خيرها وشرها . اختيارهم على العالمين فى زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف ؛ على كل ما قصه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء . مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ؛ ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالى ؛ إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) فتعرضوا للاختبار بهذه الآيات ، التى آتاهم الله إياها للابتلاء . حتى إذا تم امتحانهم ، وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم والتوائهم ، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم ، فضربهم بمن يشردهم فى الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا فى الأرض إلى يوم الدين . وبعد هذه الجولة فى مصرع فرعون وملئه ، ونجاة موسى وقومه ، وابتلائهم بالآيات بعد فتنة فرعون وأخذه . . بعد هذه الجولة يعود إلى موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وشكهم فيها ، وإنكارهم لها . يعود ليربط بين قضية البعث وتصميم الوجود كله وبنائه على الحق والجد ، الذى يقتضى هذا البعث والنشور (إن هؤلاء ليقولون:إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) إن هؤلاء المشركين من العرب ليقولون:ما هى إلا الموتة التى نموتها ، ثم لا حياة بعدها ولا نشور . ويسمونها (الأولى) بمعنى السابقة المتقدمة على الموعد الذى يوعدونه للبعث والنشور . ويستدلون على أنه ليس هناك إلا هذه الموتة وينتهى الأمر . يستدلون بأن آباءهم الذين ماتوا هذه الموتة ومضوا لم يعد منهم أحد ، ولم ينشر منهم أحد ؛ ويطلبون الإتيان بهم إن كان النشور حقاً وصدقاً . وهم فى هذا الطلب يغفلون عن حكمة البعث والنشور ؛ ولا يدركون أنها حلقة من حلقات النشأة البشرية ، ذات حكمة خاصة وهدف معين ، للجزاء على ما كان فى الحلقة الأولى . والوصول بالطائعين إلى النهاية الكريمة التى تؤهلهم لها خطواتهم المستقيمة فى رحلة الحياة الدنيا ؛ والوصول بالعصاة إلى النهاية الحقيرة التى تؤهلهم لها خطواتهم المنتكسة المرتكسة فى الحمأة المستقذرة . وقبل أن يوجههم هنا إلى هذا التدبر فى تصميم الكون ذاته ، يلمس قلوبهم لمسة عنيفة بمصرع قوم تبع والتبابعة من ملوك حمير فى الجزيرة العربية . ولا بد أن القصة التى يشير إليها كانت معروفة للسامعين ، ومن ثم يشير إليها إشارة سريعة للمس قلوبهم بعنف ، وتحذيرها مصيراً كهذا المصير (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين) وفى ظل هذه الذكرى ، وارتجاف القلوب من تصورها ، يقودهم إلى النظر فى تصميم السماوات والأرض ؛ وتنسيق هذا الكون ؛ وما يبدو وراء هذا التنسيق من قصد وصدق وتدبير(وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم) واللفتة لطيفة ، والمناسبة بين خلق السماوات و الأرض وما بينهما وبين قضية البعث والنشور مناسبة دقيقة . ولكن الفطرة البشرية تدركها فى يسر حين توجه إليها مثل هذا التوجيه . وإن خلق الإنسان بهذا الاستعداد المزدوج ، ونفى العبث عن فعل الله سبحانه ، ليقتضيان أن يكون لهذا الإنسان مصير معين ، ينتهى إليه بعد انتهاء رحلته الأرضية . وهذا هو صميم قضية الآخرة . ومن ثم يجىء بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد فى خلق السماوات والأرض . يجىء قوله تعالى (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم

لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم) هكذا تقتضى الحكمة الظاهرة فى تصميم هذا الكون ، وفى خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق ، وفى التقدير الواضح والقصد الناطق فى كل شىء فى هذا الوجود . وبعد تقرير هذا المبدأ يعرض عليهم مشهداً من مشاهد يوم الفصل ؛ وما ينتهى إليه العصاة والطائعون من عذاب ومن نعيم . مشهداً عنيفاً يتناسق مع ظلال السورة وجوها العنيف (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) ويبدأ المشهد بعرض لشجرة الزقوم ، بعد تقرير أنها طعام الأثيم . عرض مفزع مرعب مخيف . إن هذا الطعام مثل دردى الزيت المغلى – وهو المهل – يغلى فى البطون كغلى الحميم . وهناك هذا الأثيم . هذا المتعالى على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالى يصدر إلى الزبانية ليأخذوه فى عنف يليق بمقامه (الكريم!) (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) خذوه أخذاً واعتلوه عتلاً ، وشدوه فى إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هوادة . وهناك صبوا فوق رأسه من ذلك الحميم المغلى الذى يشوى ويكوى . ومع الشد والجذب والدفع والعتل والكى والشى . . التأنيب والترذيل (ذق . إنك أنت العزيز الكريم) وهذا جزاء العزيز الكريم فى غير ما عزة ولا كرامة ، فقد كان ذلك على الله وعلى المرسلين ! (إن هذا ما كنتم به تمترون) فقد كنتم تشكون فى هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون ! وبينما الأخذ والعتل ، والصب والكى ، والتأنيب والخزى . . فى جانب من جوانب الساحة . . يمتد البصر – بعين الخيال – إلى الجانب الآخر . فإذا(المتقون) الذين كانوا يخشون هذا اليوم ويخافون . إذا هم (فى مقام أمين) لا خوف فيه ولا فزع ، ولا شد فيه ولا جذب ، ولا عتل فيه ولا صب ! بل هم منعمون رافلون (فى جنات وعيون) يلبسون من سندس – وهو الحرير الرقيق – ومن إستبرق – وهو الحرير السميك – ويجلسون متقابلين فى مجالسهم يسمرون . كل ذلك ومثله تزويجهم بحور عين ، يتم بهن النعيم . وهم فى الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاءون و(يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم ، فلا موت هنالك وقد ذاقوا الموتة الأولى ، وغيرها لا يذوقون . . وذلك فى مقابل ما كان المشركون يقولون (إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) فنعم إنها الموتة الأولى ولكن وراءها الجحيم والنعيم (ووقاهم عذاب الجحيم) تفضلاً منه سبحانه . فالنجاة من العذاب لا تكون إلا بفضله ورحمته (فضلاً من ربك . ذلك هو الفوز العظيم) وأى فوز عظيم ؟! وفى ظل هذا المشهد العنيف العميق المؤثر بجانبيه تختم السورة بالتذكير بنعمة الرسالة والتخويف من عاقبة التكذيب (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون) وهو ختام يلخص جو السورة وظلها . ويتناسق مع بدئها وخط سيرها . فقد بدأت بذكر الكتاب وتنزيله للإنذار والتذكير ، وورد فى سياقها ما ينتظر المكذبين (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى الذى يفهمونه ويدركون معانيه . ويخوفهم العاقبة والمصير ,فى تعبير ملفوف . ولكنه مخيف (فارتقب إنهم مرتقبون). .

سورة الجاثية

مكية ، و آياتها ٣٧

هذه السورة المكية تصور جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم فى مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم فى مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعاً كاملاً فى غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذى سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ؛ وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية فى هذا الوجود . ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة فى مكة ، نرى فريقاً من الناس مصراً على الضلالة ، مكابراً فى الحق ، شديد العناد ، سيىء الأدب فى حق الله وحق كلامه ، ترسمه هذه الآيات ، وتواجهه بما يستحقه من الترذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم (ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها , فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب سيئى التصور والتقدير ؛ لا يقيمون وزناً لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولا يحسبون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات . والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلاً فى ميزان الله بين الفريقين ، ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمور ؛ وقيام الأمر فى ميزان الله على العدل الأصيل فى صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ! وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون) ونرى فريقاً من الناس لا يعرف حكماً يرجع إليه إلا هواه ، فهو إلهه الذى يتعبده , ويطيع كل ما يراه . نرى هذا الفريق من الناس مصوراً تصويراً فذاً فى هذه الآية ؛ وهو يعجب من أمره ويشهر بغفلته وعماه (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) نرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة ، ويشك كل الشك فى قضية البعث والحساب , ويتعنت فى الإنكار وفى طلب البرهان بما لا سبيل إليه فى هذه الأرض . والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القائمة الحاضرة على صدق هذه القضية ، وهم عنها معرضون (وقالوا:ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر . وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا:ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل:الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ويجوز أن يكون هؤلاء جميعاً فريقاً واحداً من الناس يصدر منه هذا وذاك ، ويصفه القرآن فى السورة هنا وهناك . كما يجوز أن يكونوا فرقاً متعددة ممن واجهوا الدعوة فى مكة . بما فى ذلك بعض أهل الكتاب ، وقليل منهم كان فى مكة . ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا الفريق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضى هذا وجوده فى مكة بالذات فى ذلك الحين . وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم فى هذه السورة ذلك الحديث . . كذلك واجههم بآيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، وحذرهم حساب يوم القيامة ، وبصرهم بما جرى لمن قبلهم ممن انحرفوا عن دين الله القويم . واجههم بآيات الله فى هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق (إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها , وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) وواجههم بها مرة أخرى فى صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكرها وتدبرها (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) كذلك واجههم بحالهم يوم القيامة الذى ينكرونه أو يمارون فيه (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته . ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ؟ وإذا قيل:إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم:ما ندرى ما الساعة ، إن نظن إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ما

عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وقيل:اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين:ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) كذلك لم يدع أى لبس أو شك فى عدالة الجزاء وفردية التبعة ؛ فبين أن هذا الأصل عميق فى تكوين الوجود كله ، وعليه يقوم هذا الوجود . ذلك حين يقول: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون) وحين يرد على من يحسبون وهم يجترحون السيئات أنهم عند الله كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فيقول (وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) والسورة كلها وحدة فى علاج موضوعها ؛ ولكننا قسمناها إلى درسين اثنين لتيسير عرضها وتفصيلها . وهى تبدأ بالأحرف المقطعة: حا . ميم . والإشارة إلى القرآن الكريم (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وتختم بحمد الله وربوبيته المطلقة ، وتمجيده وتعظيمه ، إزاء أولئك الذين يغفلون عن آياته ويستهزئون بها ويستكبرون عنها (فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم) ويسير سياق السورة فى عرض موضوعها فى يسر وهوادة وإيضاح هادىء ، وبيان دقيق عميق . على غير ما يسير سياق سورة الدخان قبلها فى إيقاع عنيف كأنه مطارق تقرع القلوب . والله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن ، يأخذ القلوب تارة بالقرع والطرق . وتارة باللمس الناعم الرفيق ، وتارة بالبيان الهادىء الرقيق . حسب تنوعها هى واختلافها . وحسب تنوع حالاتها ومواقفها فى ذاتها . وهو اللطيف الخبير . وهو العزيز الحكيم . .

والآن نأخذ فى التفصيل

(حم{١} تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{٢} إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ{٣} وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{٤} وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{٥} تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ{٦} وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{٧} يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٨} وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{٩} مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{١٠} هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ{١١} اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{١٢} وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{١٣} قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{١٤} مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ{١٥} وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{١٦} وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{١٧} ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ{١٨} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ{١٩} هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{٢٠} أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ{٢١} وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{٢٢} أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ){٢٣}

(حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) يذكر الحرفين: حا . ميم ويذكر بعدهما تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . وفيهما دلالة على مصدر الكتاب ، كما أسلفنا الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور .من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف ، وهم لا يقدرون على شىء منه ، فهذه دلالة قائمة على أن تنزيل هذا الكتاب من الله (العزيز) القادر الذى لا يعجزه شىء (الحكيم) الذى يخلق كل شىء بقدر ، ويمضى كل أمر بحكمة . وهو تعقيب يناسب جو السورة وما تتعرض له من ألوان النفوس . ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغاليقها ، وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب ، وخالق هذا الكون العظيم (إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين) والآيات المبثوثة فى السماوات والأرض لا تقتصر على شىء دون شىء ، ولا حال دون حال . فحيثما مد الإنسان ببصره وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون العجيب . . وأى شىء ليس آية ؟ هذه السماوات بأجرامها الضخمة ، وأفلاكها الهائلة ، وهى – على ضخامتها – مبعثرة كالنثار الصغير فى الفضاء . . الفضاء الهائل الرهيب . . الجميل . . ! وكل شىء فى هذه الأرض وكل حى . . آية . . وكل جزء من كل شىء ومن كل حى فى هذه الأرض . . آية . . والصغير

الدقيق كالضخم الكبير . . آية . . هذه الورقة الصغيرة في هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة . . آية . . آية فى شكلها وحجمها ، آية فى لونها وملمسها . آية فى وظيفتها وتركيبها . وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أو الإنسان . . آية . . آية فى خصائصها ولونها وحجمها . وهذه الريشة فى جناح الطائر . . آية . . آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها . وحيثما مد الإنسان ببصره في الأرض أو في السماء تزاحمت الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره . ولكن , من الذى يرى هذه الآيات ويستشعرها ؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها ؟ لمن ؟ (للمؤمنين) فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء والأضواء والأنداء ؛ والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة في الأرض والسماء . والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته فتحيا وترق وتلطف ؛ وتلتقط ما يذخر به الكون من إيحاءات خفية وظاهرة ، تشير كلها إلى اليد الصانعة ، وطابعها المميز فى كل ما تصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء . وكل ما خرج من هذه اليد فهو خارق معجز لا يقدر على إبداعه أحد من خلق الله . ثم ينتقل بهم السياق من آفاق الكون إلى ذوات أنفسهم ؛ وهى أقرب إليهم ، وهم بها أكثر حساسية: (وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) وخلق هذا الإنسان بهذا التكوين العجيب ، وبهذه الخصائص الفريدة ، وبهذه الوظائف اللطيفة الدقيقة المتنوعة الكثيرة . خارقة . خارقة نسيناها لطول تكرارها ، ولقربها منا ! ولكن التركيب العضوى لجارحة واحدة من جوارح هذا الإنسان مسألة تدير الرأس عجباً ودهشة واستهوالاً لهذا التركيب العجيب (لقوم يوقنون) واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كى تحس ، وكى تتأثر ، وكى تنيب . . اليقين الذى يدع القلوب تقر وتثبت وتطمئن ؛ وتتلقى حقائق الكون فى هدوء ويسر وثقة ، وفى راحة من القلق والحيرة والزعزعة . فتصوغ من أقل ما تحصل ، أكبر النتائج وأعظم الآثار فى هذا الوجود . ثم ينتقل بهم من ذوات أنفسهم وحركة الأحياء حولهم ، إلى الظواهر الكونية ، وما ينشأ عنها من أسباب الحياة لهم وللأحياء جميعاً (واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها , وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون). واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يُخلق جدتهما فى نفوس البشر التكرار ! ولكن أية عجيبة تطالع الحس البشرى وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار ؟ إن القلب الشاعر المتفتح يرى هذه العجيبة دائماً ، وينتفض لها دائماً ؛ ويرى يد الله التى تدير الكون كله كلما رأى الليل والنهار (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء . كما فهم منه القدماء . ولكن رزق السماء أوسع . فهذه الأشعة التى تنزل من السماء ليست أقل أثراً فى إحياء الأرض من الماء . بل إنها لهى التى ينشأ عنها الماء بإذن الله . فحرارة الشمس هى التى تبخر الماء من البحار فتتكاثف وتنزل أمطاراً ، وتجرى عيوناً وأنهاراً ؛ وتحيا بها الأرض بعد موتها . تحيا بالماء وتحيا بالحرارة والضياء سواء ! (وتصريف الرياح) وهى تمضى شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، منحرفة ومستقيمة ، دافئة وباردة ، وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود فى تصميم هذا الكون العجيب ؛ وحساب كل شيء فيه حساباً دقيقاً لا يترك شيئاً للمصادفة العمياء . . ولتصريف الرياح علاقة معروفة بدورة الأرض ، وبظاهرتى الليل والنهار ، وبالرزق الذى ينزل من السماء . وكلها تتعاون فى تحقيق مشيئة الله فى خلق هذا الكون ، وتصريفه كما اراد . وفيها (آيات) معروضة في الكون . ولكن لمن ؟ (لقوم يعقلون) هذه بعض آيات الله الكونية ، يشير إليها هذه الإشارات الموحية للمؤمنين . الذين يوقنون والذين يعقلون . يشير إليها بآيات الله القرآنية ، فتلمس القلوب ، وتوقظ العقول , وتخاطب الفطر بلغتها المباشرة ، بما بينها وبين هذا الكون من صلة عميقة باطنة , لا يحتاج إيقاظها إلا إلى كلمات موحية كآيات هذا القرآن . فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء فى أن يؤمن بسواها ؛ ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن توقظه الصرخات من غير هذا الصوت المستجاب (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) إن أى كلام لن يبلغ كلام الله فى القرآن . وإن أى إبداع لن يبلغ إبداع الله فى الكون . وإن أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله فى الثبوت والوضوح واليقين (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟) وهنا لا يليق بمن لا يؤمن إلا التهديد والتنكيل (ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها . فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ، ولهم عذاب عظيم) وتصور هذه الآيات – كما أسلفنا فى تقديم السورة – جانباً من استقبال المشركين لهذه الدعوة في مكة ، وإصرارهم على باطلهم ، واستكبارهم عن سماع كلمة الحق البين ، ومكابرتهم فى هذا الحق كأنه لم يطرق آذانهم , وسوء أدبهم مع الله وكلامه . . ومقابلة القرآن لهذا كله بالترذيل والتقبيح والتهديد والوعيد ، والتلويح بالعذاب الأليم المهين العظيم (ويل لكل أفاك أثيم) والويل هو الهلاك . والأفاك الكذاب المارد على الكذب . والأثيم الكثير المقارفة للإثم . والتهديد شامل لكل من هذه صفته . وهو تهديد صادر من الله القوى القاهر الجبار , القادر على الهلاك والدمار . الصادق الوعد والوعيد والإنذار . فهو تهديد رعيب مفزع مرهوب . هذا الأفاك الأثيم . آية إفكه وعلامة إثمه ، أنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله (

يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها) وهذه الصورة البغيضة ولو أنها صورة فريق من المشركين فى مكة ، إلا أنها تتكرر فى كل جاهلية ، وتتكرر اليوم وغداً . فكم فى الأرض ، وبين من يقال إنهم مسلمون ، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ؛ لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تتمشى له مع اتجاه ! (فبشره بعذاب أليم) والبشارة للخير . فهى هنا للسخرية . فإذا كان لا يسمع النذير ، فليأته الويل المنظور , فى صوت البشير ! زيادة فى السخرية والتحقير ! (وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً) بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها . وهذه أشد وأنكى . وهى صورة كذلك مكرورة فى الجاهليات الأولى والأخيرة . وكم من الناس . وبين من يقال إنهم مسلمون . من يستهزىء بآيات الله التى يعلمها ، ويتخذها مادة للسخرية منها وممن يؤمنون بها ؛ ومن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها . (أولئك لهم عذاب مهين) فالمهانة هى الجزاء المناسب لمن يستهزى ء بآيات الله وهو يعلمها . وهو عذاب حاضر قريب ؛ وإن كان موعده آتياً بعد حين . ولكنه فى حقيقته قائم موجود (من ورائهم جهنم) و لفظ (من ورائهم) مقصودة ظلاله فوق معناه . وظلاله . . أنهم لا يرونه لأنه من ورائهم ولا يتقونه لأنهم فى غفلة عنه ؛ ولا يفوتهم فهم سيقعون فيه ! (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) فليس شىء مما عملوا أو ملكوا بنافعهم شيئاً ، فعملهم – ولو صلح – هباء لا يقدرون على شىء منه ، وهو قائم على غير أساس من إيمان . وملكهم زائل لا يصاحبهم منه شىء فيه غناء . وأولياؤهم من دون الله – آلهة أو أعواناً وجنداً أو خلاناً – لا يملكون لهم نصراً ولا شفاعة (ولهم عذاب عظيم) فوق أنه مهين . فجرمهم فى الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضى المهانة ، جسيم يقتضى جسامة التعذيب . وينتهى هذا المقطع ، الذى ورد فيه ذكر الاستهزاء بآيات الله ، والصد عنها والاستكبار , بكلمة عن حقيقة هذه الآيات ؛ وجزاء من يكفر بهذه الحقيقة فى إجمال(هذا هدى . والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى . هدى خالص مصفى . هدى ممحض لا يشوبه ضلال . فالذى يكفر بعد ذلك بالآيات ، وهذه حقيقتها ، يستحق ألم العذاب . الذى يمثله توكيد معنى الشدة والإيلام . فالرجز هو العذاب الشديد . والعذاب الذى يهددون به هو عذاب من رجز أليم . . تكرار بعد تكرار . وتوكيد بعد توكيد . يليق بمن يكفر بالهدى الخالص الممحض الصريح . وبعد التهديد المخيف ، والوعيد الرعيب ، يعود فيلمس قلوبهم لمساً رفيقاً ، بالتذكير بأنعم الله التى سخرها لهم فى هذا الكون العريض (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التى سخرها الله للإنسان ، فهداه إلى شىء من سر تكوينها وخصائصها ؛ عرف منه هذه الفلك التى تمخر هذا الخلق الهائل ، وهى تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها ! (لتجرى الفلك فيه بأمره). . فهو – سبحانه – الذى خلق البحر بهذه الخصائص ، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص ؛ وجعل خصائص الضغط الجوى ، وسرعة الرياح وجاذبية الأرض . . وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجرى الفلك فى البحر . وهدى الإنسان إلى هذا كله فأمكنه أن ينتفع به ، وأن ينتفع كذلك بالبحر فى نواح أخرى: (ولتبتغوا من فضله) كالصيد للطعام وللزينة ، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة والرياضة والنزهة ؛ وسائر ما يبتغيه الحى من فضل الله فى البحار . سخر الله للإنسان البحر والفلك ، ليبتغى من فضل الله ؛ وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام ، وعلى التسخير والاهتداء (ولعلكم تشكرون) وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق ، وإلى الارتباط بذلك الأفق ، وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة فى المصدر ووحدة فى الاتجاه . . إلى الله ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول . فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما فى السماوات وما فى الأرض ، من قوى وطاقات ونعم وخيرات – مما يصلح له ويدخل فى دائرة خلافته (وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه) فكل شىء فى هذا الوجود منه وإليه ؛ وهو منشئه ومدبره ؛ وهو مسخره أو مسلطه . وهذا المخلوق الصغير . . الإنسان . . مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية . يسخر به قوى فى هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يقاس ! وكل ذلك من فضل الله عليه . وفى كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبر ؛ ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصانعة المدبرة المصرفة لهذه القوى والطاقات (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والفكر لا يكون صحيحاً وعميقاً وشاملاً ، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التى يكشف سرها ، إلى مصدر هذه القوى والطاقات ؛ وإلى النواميس التى تحكمها ؛ وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان . هذه الصلة التى تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها . ولولاها ما اتصل ولا أدرك . ولا عرف ولا تمكن ، ولا سخر ولا انتفع بشىء من هذه القوى والطاقات . وحين يبلغ سياق السورة إلى هذا المقطع القوى الذى يصل قلب المؤمن بقلب هذا الوجود . ويشعره بمصدر القوة الحقيقى وهو الاهتداء إلى أسرار هذا الوجود . . عند هذا يدعو المؤمنين إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ورحابة الصدر فى مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تتصل قلوبهم بذلك المصدر الثرى الغنى . كما

يدعوهم إلى شيء من العطف على هؤلاء المساكين المحجوبين عن الحقائق المنيرة القوية العظيمة ؛ من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله ، التى يظهر فيها عظمته وأسراره ونواميسه (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون . من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون) فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله . تسامح المغفرة والعفو . وتسامح القوة والاستعلاء . وتسامح الكبر والارتفاع . والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكين يستحقون العطف أحياناً بحرمانهم من ذلك النبع ، ومن الجانب الآخر ، ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته . ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة فى سجل الحسنات . ذلك فيما لا يظهر الفساد فى الأرض ، ويعتدى على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال (ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون) ويعقب على هذا بفردية التبعة ، وعدالة الجزاء ، وتوكيد الرجوع إلى الله وحده فى نهاية المطاف (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون) بذلك يتسع صدر المؤمن ، ويرتفع شعوره ؛ ويحتمل المساءات الفردية والنزوات الحمقاء من المحجوبين المطموسين ، فى غير ضعف ، وفى غير ضيق . فهو أكبر وأفسح وأقوى . وهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور ، وحامل بلسم الشفاء للمحرومين من النبع ، وهو مجزىٌّ بعمله ، لا يصيبه من وزر المسيء شيء . والأمر لله فى النهاية ، وإليه المرجع والماب .بعد ذلك يتحدث عن القيادة المؤمنة للبشرية ، وتركز هذه القيادة أخيراً فى الرسالة الإسلامية ؛ فيشير إلى اختلاف بنى إسرائيل فى كتابهم ، بعدما آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة . وانتهاء راية القيادة والحكم إلى صاحب الدعوة الأخيرة . هذا وهو بعد فى مكة . والدعوة بعد مطاردة محاصرة . ولكن طبيعتها هى هى منذ نشأتها ، ومهمتها هى مهمتها ، كانت القيادة – قبل الإسلام – لبنى إسرائيل . كانوا هم أصحاب عقيدة السماء التى اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ . ولا بد للبشر من قيادة مستمدة من السماء . فالأرض قيادتها هوى أو جهل أو قصور . والله خالق البشر هو وحده الذى يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى فكلهم عباده ، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذى خلقهم وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) فكان فيهم التوراة شريعة الله . وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة . وكان فيهم النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب . وكثر فيهم الأنبياء وتتابعوا فترة طويلة نسبياً فى التاريخ (ورزقناهم من الطيبات) فكانت مملكتهم ونبواتهم فى الأرض المقدسة ، الطيبة ، الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات (وفضلناهم على العالمين) وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال ؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله ؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة (وآتيناهم بينات من الأمر) فكان ما أوتوه من الشريعة بينا حاسماً فاصلاً ، لا غموض فيه ولا لبس ولا عوج ولا انحراف ؛ فلم يكن هناك ما يدعو إلى الاختلاف فى هذا الشرع البين كما وقع منهم ؛ وما كان هذا عن غموض فى الأمر ، ولا كان عن جهل منهم بالصحيح من الحكم (فما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم) إنما كان ذلك عن تحاسد بينهم ، ونزاع وظلم ، مع معرفة الحق والصواب (بغياً بينهم) وبذلك انتهت قيادتهم فى الأرض ، وبطل استخلافهم ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله يوم القيامة (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ثم كتب الله الخلافة فى الأرض لرسالة جديدة ورسول جديد ، يرد إلى شريعة الله استقامتها ، وإلى قيادة السماء نصاعتها ؛ ويحكم شريعة الله لا أهواء البشر فى هذه القيادة(ثم جعلناك على شريعة من الأمر ، فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) وهكذا يتمحض الأمر . فإما شريعة الله . وإما أهواء الذين لا يعلمون . وليس هنالك من فرض ثالث ، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة ؛ وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون ! والله – سبحانه – يحذر رسوله ﷺ أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، فهم لا يغنون عنه من الله شيئاً . وهم يتولون بعضهم بعضاً . وهم لا يملكون أن يضروه شيئاً حين يتولى بعضهم بعضاً ، لأن الله هو مولاه (إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض . والله ولى المتقين) إنها شريعة واحدة هى التى تستحق هذا الوصف ، وما عداها أهواء منبعها الجهل . وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها ، ويدع الأهواء كلها . وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء .وتعقيباً على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين ، وعما فى هذا القول وأمثاله فى القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة . فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور . وهو بذاته هدى . وهو بذاته رحمة . . ولكن هذا كله يتوقف على اليقين . يتوقف على الثقة التى لا يخامرها شك ؛ ولا يخالطها قلق ، ولا تتسرب إليها ريبة . ويعقب على الحديث عن ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله للمتقين ؛ وعن طبيعة هذا القرآن بالقياس إلى المتقين ، وأنه بصائر وهدى ورحمة لأهل اليقين . يعقب على هذا الحديث بالتفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون . ويستنكر أن يسوى بينهم فى الحكم ، وهم مختلفون

فى ميزان الله . والله قد أقام السماوات والأرض على أساس الحق والعدل ؛ والحق أصيل فى تصميم هذا الكون (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين امنوا وعملوا الصالحات . سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) ويجوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ، واجترحوا السيئات , وظلوا يحسبون أنفسهم فى صفوف المؤمنين ، ويجعلون أنفسهم أكفاء للمسلمين الذين يعملون الصالحات ، أنداداً لهم فى تقدير الله سواء فى الحياة أو بعد الممات . أى عند الحساب والجزاء . . كما يجوز أن يكون حديثاً عاماً بقصد بيان قيم العباد فى ميزان الله . ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح ؛ واستنكار التسوية بين مجترحى السيئات وفاعلى الحسنات ، سواء فى الحياة أو فى الممات ، وإلى جوار هذا الأصل الثابت يشير إلى الهوى المتقلب . الهوى الذى يجعل منه بعضهم إلهاً يتعبده . فيضل ضلالاً لا اهتداء بعده ، والعياذ بالله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه؟) والتعبير القرآنى المبدع يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت , وتتبع الهوى المتقلب وحين تتعبد هواها , وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلهاً قاهراً لها ، مستولياً عليها ، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول . يرسم هذه الصورة ويعجِّب منها فى استنكار شديد (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟) أفرأيته ؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب ! وهو يستحق من الله أن يضله ، فلا يتداركه برحمة الهدى . فما أبقى فى قلبه مكاناً للهدى وهو يتعبد هواه المريض ! (وأضله الله على علم) على علم من الله باستحقاقه للضلالة . أو على علم منه بالحق ، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلهاً يطاع . وهذا يقتضى إضلال الله له والإملاء له فى عماه (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) فانطمست فيه تلك المنافذ التى يدخل منها النور ؛ وتلك المدارك التى يتسرب منها الهدى . وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة للهوى طاعته العبادة والتسليم (فمن يهديه من بعد الله ؟) والهدى هدى الله . وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة . فذلك من شأن الله ، الذى لا يشاركه فيه أحد ، حتى رسله المختارون . (أفلا تذكرون ؟)ومن تذكر صحا وتنبه ، وتخلص من ربقة الهوى ، وعاد إلى النهج الثابت الواضح ، الذى لا يضل سالكوه .

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ{٢٤} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٢٥} قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٢٦} وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ{٢٧} وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٨} هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٩} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ{٣٠} وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ{٣١} وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ{٣٢} وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٣٣} وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ{٣٤} ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ{٣٥} فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٣٦} وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ){٣٧}

هذا المقطع الأخير من السورة يعرض مقولة المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب . ويرد عليها من واقع نشأتهم الذى لا مجال لإنكاره ، وهو واقع قريب منهم . ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، يرونهواقعاً بهم – وإن كان لم يحن بعد موعده – لأن التصوير القرآنى يعرضه حياً شاخصاً كأنهم يرونه رأى العين من خلال الكلمات . ثم يختم السورة بالحمد لله ، الواحد الربوبية فى السماوات وفى الأرض ولجميع العالمين فى السماوات والأرض ، وتمجيد عظمته وكبريائه المتفردة فى السماوات والأرض , لا ترتفع أمامها هامة ، ولا يتطاول إليها متطاول . . وهو العزيز الحكيم (وقالوا:ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر) هكذا كانوا ينظرون تلك النظرة القصيرة . الحياة فى نظرهم هى هذا الشوط الذى يرونه فى الدنيا رأى العين . جيل يموت وجيل يحيا ؛ وفى ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد بالموت , إنما هى الأيام تمضى ، والدهر ينطوى ، فإذا هم أموات ؛ فالدهر إذن هو الذى ينهى آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون ! لهذا يقول الله عنهم بحق (وما لهم بذلك من علم . إن هم إلا يظنون) يظنون ظناً غامضاً واهياً ، لا يقوم على تدبر ، ولا يستند إلى علم ، ولا يدل على إدراك لحقائق الأمور . ولا ينظرون إلى ماوراء ظاهرتى الحياة والموت من سر يشهد بإرادة أخرى غير إرادة الإنسان ، وبسبب آخر غير مرور الأيام

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، ما كان حجتهم إلا أن قالوا:ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) وهذه تدل على نظرة سطحية لا تدرك نواميس الخلق ، وحكمة الله فيها ، وسر الحياة والموت الكامن وراءهما ، المتعلق بتلك الحكمة الإلهية العميقة (ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين)! ولماذا يأتي الله بآبائهم قبل الموعد الذى قدره وفق حكمته العليا ؟ ألكى يقتنعوا بقدرة الله على إحياء الموتى ؟ يا عجباً ! أليس الله ينشىء الحياة أمام أعينهم انشاء فى كل لحظة ، وفق سنة إنشاء الحياة ؟ (قل الله يحييكم ، ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) هذه هى المعجزة التى يريدون أن يشهدوها فى آبائهم . ها هى ذى تقع أمام أعينهم . بعينها وبذاتها . والله هو الذى يحيي . ثم هو الذى يميت . فلا عجب إذن فى أن يحيى الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، ولا سبب يدعو إلى الريب في هذا الأمر ، الذى يشهدون نظائره فيما بين أيديهم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ويعقب على هذه الحقيقة الماثلة بالأصل الكلى الذى ترجع إليه (ولله ملك السماوات والأرض) فهو المهيمن على كل ما فى الملك . وهو صانع كل شيء فيه . وهو القادر على الإنشاء والإعادة لكل ما فيه وكل من فيه . ثم يعرض عليهم مشهداً من هذا اليوم الذى يشكون فيه (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) إنه يعجل لهم فى الآية الأولى عاقبة المبطلين . فهم الخاسرون في هذا اليوم الذى يشكون فيه . ثم ننظر من خلال الكلمات فإذا ساحة العرض الهائلة ، وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التى عمرت هذا الكوكب فى عمره الطويل القصير ! وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة . فى ارتقاب الحساب المرهوب ، ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق . يقال لها (اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) فيعلمون أن لا شيء سينسى أو يضيع ! وكيف وكل شيء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شيء ولا يغيب ؟! ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة ، على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين . فريقين اثنين . يجمعان كل هذه الحشود:الذين آمنوا . والذين كفروا . فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله وهذان هما الحزبان :حزب الله . وحزب الشيطان . وما عدا هذا من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيدخلهم ربهم فى رحمته . ذلك هو الفوز المبين) وقد استراحوا من طول الارتقاب ، ومن القلق والاضطراب . . والنص ينهى أمرهم فى سرعة وفى بساطة ، ليلقى هذا الظل المستطاب . ثم نلقى بأبصارنا – من خلال الكلمات – إلى الفريق الآخر . فماذا نجن واجدون ؟ إنه التأنيب الطويل ، والتشهير المخجل ، والتذكير بشر الأقوال والأعمال (وأما الذين كفروا . أفلم تكن آياتى تتلى عليكم ، فاستكبرتم ، وكنتم قوماً مجرمين ؟ وإذا قيل:إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم:ما ندرى ما الساعة ! إن نظن إلا ظنا ، وما نحن بمستيقنين) ! فالآن كيف ترون الحال ؟! وكيف تذوقون اليقين ؟!ويتركهم السياق لحظة ليعلن على الملأ شيئاً مما يقع لهؤلاء المنكوبين (وبدا لهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) ثم يعود إليهم بالترذيل والتأنيب وإعلان الإهمال والتحقير ؛ والمصير الأليم (وقيل:اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا . ومأواكم النار . وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ، وغرتكم الحياة الدنيا) ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير . وهم متروكون فى جهنم لا يخرجون ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب (فاليوم لا يخرجون منها ، ولا هم يستعتبون) وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصد إيصادها الأخير ! وقد انتهى المشهد ، فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير ! هنا ينطلق صوت التحميد لله والتمجيد الانطلاقة الأخيرة فى السورة بعد هذا المشهد المؤثر العميق (فلله الحمد . رب السماوات . ورب الأرض . رب العالمين . وله الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ينطلق صوت التحميد . يعلن وحدة الربوبية فى هذا الوجود . سمائه وأرضه . وإنسه وجنه . وطيره ووحشه . وسائر ما فيه ومن فيه . فكلهم فى رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير . ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة (وهو العزيز الحكيم) والحمد لله رب العالمين .

سورة الأحقاف

مكية ، و آياتها ٣٥

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة . . قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه . والإيمان بالوحى والرسالة وأن محمدا ﷺ رسول سبقته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب . والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة. هذه الأسس الأولى التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجها القرآن فى كل سوره المكية علاجا أساسيا ، وظل يتكىء عليها كذلك فى سوره المدنية كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية . ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه ، وبعثة محمد ﷺ والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء . . هى المحور الذى تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ؛ فتبقى حية حارة تنبعث من تأثير دائم بذلك الإيمان . وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ؛ وتوقع فيها على كل وتر ؛ وتعرضها فى مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية. كما أنها تجعلها قضية الوجود كله - لا قضية البشر وحدهم - فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بنى إسرائيل منه . وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بنى إسرائيل شاهدا . سواء بسواء . ثم هى تطوف بتلك القلوب فى آفاق السماوات والأرض ، وفى مشاهد القيامة فى الآخرة . كما تطوف بهم فى مصرع قوم هود وفى مصارع القرى حول مكة . وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء . ويمضى سياق السورة فى أربعة أشواط مترابطة ، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع:

يبدأ الشوط الأول وتبدأ السورة معه بالحرفين :حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها . تليهما الإشارة الى كتاب القرآن والوحى به من عند الله (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وعقبها مباشرة الإشارة الى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ،وعلى التقدير والتدبير (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) فيتوافى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) وبعد هذا الافتتاح القوى الجامع يأخذ فى عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذى لا يقوم على أساس من واقع الكون ، ولا يستند الى حق من القول , ولا مأثور من العلم (قل:أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ويندد بضلال من يدعو من دون الله من لا يسمع لعابده ولا يستجيب . ثم هو يخاصمه يوم القيامة ويبرأ من عبادته فى اليوم العصيب ! ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذى جاءهم به محمد رسول الله ﷺ وقولهم له (هذا سحر مبين) وترقيهم فى الادعاء حتى ليزعمون أنه افتراه . ويلقن رسول الله ﷺ أن يرد عليهم الرد اللائق بالنبوة ، النابع من مخافة الله وتقواه ، وتفويض الأمر كله إليه فى الدنيا والآخرة (قل:إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم , وهو الغفور الرحيم . قل:ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم , إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين) ويحاججهم بموقف بعض من اهتدى للحق من بنى اسرائيل حينما رأى فى القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى - عليه السلام (فآمن واستكبرتم) ويندد بظلمهم بالإصرار على التكذيب بعد شهادة أهل الكتاب العارفين (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) ويستطرد فى عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية عن هذا الإصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين :لو كان خيرا ما سبقونا إليه . . ويكشف عن علة هذا الموقف المنكر: وإذ لم يهتدوا به فسيقولون:هذا إفك قديم ! ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلى وظيفته ومهمته (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) ويختم هذا الشوط بتفصيل هذه البشرى لمن صدق بالله واستقام على الطريق (إن الذين قالوا:ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون)

ويعرض الشوط الثانى نموذجين للفطرة البشرية:المستقيمة والمنحرفة ، فى مواجهة قضية العقيدة . ويبدأ معهما من النشأة الأولى ، وهما فى أحضان والديهم . ويتابع تصرفهما عند بلوغ الرشد والتبعة والاختيار .

فأما الأول فشاعر بنعمة الله بار بوالديه , راغب في الوفاء بواجب الشكر ، تائب ضارع مستسلم منيب (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) وأما الآخر فعاق لوالديه كما هو عاق لربه ، وهو جاحد منكر للآخرة ، وهما به ضيقان متعبان (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس , إنهم كانوا خاسرين)

ويختم هذا الشوط بمشهد سريع من مشاهد القيامة يعرض فيه مصير هذا الفريق (ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون)

والشوط الثالث يرجع بهم إلى مصرع عاد ، عندما كذبوا بالنذير . ويعرض من القصة حلقة الريح العقيم ، التى توقعوا فيها الرى والحياة ؛ فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار , والعذاب الذى استعجلوا به وطلبوه (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا:هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين) ويلمس قلوبهم بهذا المصرع ، وهو يذكرهم بأن عادا كانوا أشد منهم قوة وأكثر ثروة (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) ويذكرهم فى نهاية الشوط مصارع ما حولهم من القرى ، وعجز آلهتهم المدعاة عن نصرتهم ، وظهور إفكهم وافترائهم . لعلهم يتأثرون ويرجعون . .

ويتناول الشوط الرابع قصة نفر من الجن مع هذا القرآن ، حين صرفهم الله لاستماعه , فلم يملكوا أنفسهم من التأثر والاستجابة ، والشهادة له بأنه الحق (مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) وعادوا ينذرون قومهم ويحذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان (يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء , أولئك فى ضلال مبين) وتتضمن مقالة النفر من الجن الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح الناطق بقدرة الله على البدء والإعادة (أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير)وهنا يلمس قلوبهم بمشهد الذين كفروا يوم يعرضون على النار ، فيقرون بما كانوا ينكرون , ولكن حيث لا مجال لإقرار أو يقين ! وتختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب ، فإنما هو أجل قصير يمهلونه ، ثم يأتيهم العذاب والهلاك (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟)

(حم{١} تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{٢} مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ{٣} قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤} وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ{٥} وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ{٦} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ{٧} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٨} قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٩} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{١٠} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ{١١} وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ{١٢} إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ{١٣} أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ){١٤}

والآن نأخذ فى تفصيل هذه الأشواط . .

(حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون) هذا هو الإيقاع الأول فى مطلع السورة ؛ وهو يلمس العلاقة بين

الأحرف العربية التى يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ,وشهادة هذه الظاهرة بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده . كتاب هذا الكون الذى تراه العيون ، وتقرؤه القلوب . وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير . فتنزيل الكتاب (من الله العزيز الحكيم) هو مظهر للقدرة وموضع للحكمة . وخلق السماوات والأرض وما بينهما متلبس بالحق) (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وبالتقدير الدقيق (وأجل مسمى) تتحقق فيه حكمة الله من خلقه ، ويتم فيه ما قدره له من غاية . وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله ، ويشهد بحكمته ,ويشي بتدبيره وتقديره ، ويدل كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو ، وما فيه من إنذار وتبشير (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) وهذا هو العجب المستنكر فى ظل تلك الإشارة إلى الكتاب المنزل والكتاب المنظور ! والكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لا يتعدد ، وأنه رب كل شيء ، بما أنه خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ، ومقدر كل شيء . وكتاب الكون الحى ينطق بهذه الحقيقة ذاتها ; فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحدانية الصانع المقدر المدبر ، الذى يصنع على علم ، ويبدع على معرفة ، وطابع الصنعة واحد فى كل ما يصنع وما يبدع . فأنى يتخذ الناس آلهة من دونه ؟ وماذا صنع هؤلاء الآلهة وماذا أبدعوا ؟ وهذا هو الكون قائما معروضا على الأنظار والقلوب ؛ فماذا لهم فيه ؟ وأى قسم من أقسامه أنشأوه ؟(قل:أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟) وهذا تلقين من الله سبحانه لرسوله ﷺ ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح . الكتاب الذى لا يقبل الجدل والمغالطة – إلا مراء ومحالا – والذى يخاطب الفطرة بمنطقها ,بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، يصعب التغلب عليها ومغالطتها (أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟) ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك المعبودات – سواء كانت حجرا أم شجرا أم جنا أم ملائكة أم غيرها – قد خلقت من الأرض شيئا ، أو خلقت فى الأرض شيئا . إن منطق الفطرة . منطق الواقع . يصيح فى وجه أى ادعاء من هذا القبيل (أم لهم شرك فى السماوات ؟) ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة فى خلق السماوات أو فى ملكيتها . ونظرة إلى السماوات توقع فى القلب الإحساس بعظمة الخالق ، والشعور بوحدانيته ; وتنفض عنه الانحرافات والترهات . . والله منزل هذا القرآن يعلم أثر النظر فى الكون على قلوب بالبشر ومن ثم يوجههم إلى كتاب الكون ليتدبروه ويستشهدوه ويستمعوا إلى إيقاعاته المباشرة فى القلوب (ائتونى بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين) فإما كتاب من عند الله صادق . وإما بقية من علم مستيقن ثابت . وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر المقدر ؛ وليس فيها من كتاب يقر خرافة الآلهة المتعددة ، أو يقول بأن لها فى الأرض خلقا أو فى السماوات شركا ! وليس هنالك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت . ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية فى حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، منددا بضلالهم فى اتخاذها , وهى لا تستجيب لهم ، ولا تشعر بدعائهم فى الدنيا ؛ ثم هى تخاصمهم يوم القيامة , وتنكر دعواهم فى عبادتها (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة . إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة . وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان . . وكلها لا تستجيب لداعيها أصلا . ثم يمضى السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ﷺ وما جاءهم به من الحق . بعدما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك . ويقرر قضية الوحى كما قرر قضية التوحيد ، يبدأ الحديث عن قضية الوحى بترذيل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات (بينات) لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريبة . ثم إنه (الحق) الذى لا مرية فيه . وهم يقولون لتلك الآيات ولهذا الحق (هذا سحر مبين) وشتان بين الحق والسحر . وهما لا يختلطان ولا يشتبهان . وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح ، الذى لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل . ثم يرتقى فى إنكار مقولتهم الأخرى (افتراه) فلا يسوقها فى صيغة الخبر بل فى صيغة الاستفهام . كأن هذا القول لا يمكن أن يقال ، وبعيد أن يقال (أم يقولون افتراه ؟) فيبلغ بهم التطاول أن يقولوا هذه المقولة التى لا تخطر على بال ؟! ويلقن الرسول ﷺ أن يرد عليهم بأدب النبوة ، الذى ينم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم فى هذا الوجود كله (قل:إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بينى وبينكم . وهو الغفور الرحيم) قل لهم:كيف أفتريه ؟ ولحساب من أفتريه ؟ ولأى هدف أفتريه ؟ أأفتريه لتؤمنوا بى وتتبعونى ؟ ولكن (إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) وهو آخذنى بما افتريت . فماذا يجدينى أن تكونوا معى وأن تتبعونى . وأنتم أعجز من أن تحمونى من الله حين يأخذنى بافترائى ، وأضعف من أن تنصرونى ؟! وهو الرد اللائق بنبى ، يتلقى من ربه ، ولا يرى فى الوجود غيره ، ولا يعرف قوة غير قوته ، وهو رد كذلك منطقى يدركه المخاطبون به لو حكموا عقولهم فيه . يجيبهم به , ثم يترك أمرهم لله (هو أعلم بما تفيضون فيه) من القول والفعل . وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم (كفى به

شهيدا بينى وبينكم) يشهد ويقضى ، وفى شهادته الكفاية وفى قضائه (وهو الغفور الرحيم) وقد يرأف بكم ، فيهديكم رحمة منه ، ويغفر لكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان . رد فيه تحذير وترهيب . وفيه إطماع وتحضيض . يأخذ على القلب مسالكه ، ويلمس أوتاره . ويشعر السامعين أن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة ، وادعاءاتهم العابثة . وأنه فى ضمير الداعية أكبر وأعمق مما يشعرون . ويمضى معهم فى مناقشة القضية – قضية الوحى – من زاوية أخرى واقعية مشهودة . فماذا ينكرون من أمر الوحى والرسالة ؟ ولم يعجلون بتهمة السحر أو تهمة الافتراء ؟ وليس فى الأمر غريب ولا عجيب (قل:ما كنت بدعا من الرسل . وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلى . وما أنا إلا نذير مبين) إنه ﷺ ليس أول رسول . فقد سبقته الرسل . وأمره كأمرهم . وما كان بدعا من الرسل . بشر يعلم الله أنه أهل للرسالة فيوحى إليه ، فيصدع بما يؤمر . هذا هو جوهر الرسالة وطبيعتها . . والرسول حين يتصل قلبه لا يسأل ربه دليلا ، ولا يطلب لنفسه اختصاصا إنما يمضى فى سبيله ، يبلغ رسالة ربه ، حسبما أوحى بها إليه (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلى) فهو لا يمضى فى رسالته لأنه يعلم الغيب ; أو لأنه يطلع على ما يكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التى يبشر بها . إنما هو يمضى وفق الإشارة وحسب التوجيه . واثقا بربه ، مستسلما لإرادته ، مطيعا لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله . والغيب أمامه مجهول ، سره عند ربه . وهو لا يتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن ، ولأن أدبه مع ربه ينهاه عن التطلع لغير ما فتح له . فهو واقف أبدا عند حدوده وحدود وظيفته (وما أنا إلا نذير مبين) وإنه لأدب الواصلين ، وإنها لطمأنينة العارفين ، يتأسون فيها برسول الله ﷺ فيمضون فى دعوتهم لله . لا لأنهم يعرفون مآلها ، أو يعلمون مستقبلها . أو يملكون فيها قليلا أو كثيرا . ولكن لأن هذا واجبهم وكفى . وما يطلبون من ربهم برهانا فبرهانهم فى قلوبهم . وما يطلبون لأنفسهم خصوصية فخصوصيتهم أنه اختارهم . وما يتجاوزون الخط الدقيق الذى خطه لهم ، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق . ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ، لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل (قل:أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين) وقد تكون هذه واقعة حال ، ويكون واحد أو أكثر من بنى إسرائيل ، عرف أن طبيعة هذا القرآن هى طبيعة الكتب المنزلة من عند الله ، بحكم معرفته لطبيعة التوراة . فآمن . وقد وردت روايات أنها نزلت فى عبد الله ابن سلام . لولا أن هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى المدينة . وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية توكيدا لنزولها فى شأن عبد الله – رضى الله عنه – . كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه . وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى فى مكة نفسها . فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة فى العهد المكى . وهذا الأسلوب فى الجدل (قل:أرأيتم إن كان من عند الله ...) يراد به زعزعة الإصرار والعناد فى نفوس أهل مكة ، وإثارة التخوف فى نفوسهم والتحرج من المضى فى التكذيب . ما دام أن هذا القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقا كما يقول محمد ﷺ وفى هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة . فأولى لهم أن يحتاطوا لهذا الفرض ، الذى قد يصح ، فيحل بهم كل ما ينذرهم به . ومن الأحوط إذن أن يتريثوا فى التكذيب ، وأن يتدبروا الأمر فى حرص وفى حذر ، قبل التعرض لتلك العاقبة الوخيمة . وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك الاحتمال أن واحدا أو أكثر من أهل الكتاب يشهد بأن طبيعته من طبيعة الكتاب قبله ؛ ويتبع هذا التذوق بالإيمان . بينما هم الذين جاء القرآن لهم ، وبلغتهم ، وعلى لسان رجل منهم ، يستكبرون ويكفرون . . وهو ظلم بين وتجاوز للحق صارخ ، يستحق النقمة من الله وإحباط الأعمال (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الاساليب ، ليواجه شكوك القلب البشرى وانحرافاته وآفاته ؛ ويأخذ عليها المسالك ؛ ويعالجها بكل أسلوب . وبعد ذلك يمضى فى استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين ؛ فيحكى اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه ، اعتذار المستكبر المتعالى على المؤمنين (وقال الذين كفروا للذين آمنوا:لو كان خيرا ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون:هذا إفك قديم) ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه نفر من الفقراء والموالى فى أول الأمر . فكان هذا مغمزا فى نظر الكبراء المستكبرين . وراحوا يقولون:لو كان هذا الدين خيرا ما كان هؤلاء أعرف منا به ، ولا أسبق منا إليه . فنحن ، فى مكانتنا وسعة إدراكنا وحسن تقديرنا ، أعرف بالخير من هؤلاء ! والأمر ليس كذلك . (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون:هذا إفك قديم) طبعا ! فلا بد من عيب فى الحق ما داموا لم يهتدوا به ، ولم يذعنوا له . لا بد من عيب فى الحق لأنهم هم لا يجوز أن يخطئوا . وهم فى نظر أنفسهم ، أو فيما يريدون أن يوحوا به للجماهير ، مقدسون معصومون لا يخطئون ! ويختم هذه الجولة فى قضية الوحى والرسالة بالاشارة إلى كتاب موسى ، وتصديق هذا القرآن له – كما سبقت الإشارة فى شهادة الشاهد من بنى إسرائيل (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة) وقد كرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله ، وبخاصة كتاب موسى ، باعتبار أن كتاب عيسى تكملة وامتداد له . وأصل التشريع والعقيدة فى التوراة . ومن ثم سمى كتاب موسى (إماما) ووصفه بأنه رحمة . وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن فى الأرض

,بكل معاني الرحمه في الدنيا وفى الآخره (وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا) مصدق للأصل الأول الذى تقوم عليه الديانات كلها ؛ وللمنهج الإلهى الذى تسلكه الديانات جميعها ؛ وللاتجاه الأصيل الذى توجه البشرية إليه ، لتتصل بربها الواحد الكريم . والإشارة إلى عروبته للإمتنان على العرب ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، ورعايته لهم , وعنايته بهم ؛ ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة ، واختيار لغتهم لتتضمن هذا القرآن العظيم . ثم بيان لطبيعة الرسالة ، ووظيفتها (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) وفى نهاية هذا الشوط الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التى يحملها إليهم القرآن الكريم ، بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته (إن الذين قالوا:ربنا الله . ثم استقاموا . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها ، جزاء بما كانوا يعملون وقولة (ربنا الله) ليست كلمة تقال . بل إنها ليست مجرد عقيدة فى الضمير . إنما هى منهج كامل للحياة ، يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ، وكل حركة وكل خالجة ؛ ويقيم ميزانا للتفكير والشعور ، وللناس والأشياء ، وللأعمال والأحداث ، وللروابط والوشائج فى كل هذا الوجود (ربنا الله) فله العبادة ، وإليه الاتجاه . ومنه الخشية وعليه الاعتماد (ثم استقاموا) وهذه أخرى . فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج:استقامة النفس وطمأنينة القلب . استقامة المشاعر والخوالج ، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشكك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات . وهى عنيفة ومتنوعة وكثيرة . واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار . وفى الطريق مزالق وأشواك ومعوقات ؛ وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك ! (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقيم الخوف وقيم الحزن . . والمنهج واصل . والاستقامة عليه ضمان الوصول (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) وتوضح كلمة (يعملون) معنى (ربنا الله) ومعنى الاستقامة على هذا المنهج فى الحياة . فهى تشير إلى أن هناك عملا كان الخلود فى الجنة جزاءه . عملا منبعثا من ذلك المنهج :(ربنا الله) ومن الاستقامة عليه والاطراد والثبات .

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ{١٥} أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ{١٦} وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{١٧} أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ{١٨} وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{١٩} وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ) {٢٠}

هذا الشوط يسير مع الفطرة فى استقامتها وفى انحرافها , وفيما تنتهى إليه حين تستقيم وما تنتهى إليه حين تنحرف . ويبدأ بالوصية بالوالدين . وكثيرا ما ترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة فى الله أو مصاحبة لهذا الحديث . ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هى أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان فى القوة والأهمية ، وأولاها بالرعاية والتشريف . وفى هذا الاقتران دلالتان:أولاهما هى هذه . والثانية أن أصرة الإيمان هى الأولى وهى المقدمة ، ثم تليها أصرة الدم فى أوثق صورها . وفى هذا الشوط نموذجان من الفطرة:فى النموذج الأول تلتقى أصرة الإيمان وأصرة الوالدين فى طريقهما المستقيم المهتدى الواصل إلى الله . وفى الثانى تفترق أصرة النسب عن أصرة الإيمان ، فلا تلتقيان . والنموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشرى . والنموذج الثانى مصيره النار ونصيبه استحقاق العذاب . وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب فى مشهد من مشاهد القيامة ، يصور عاقبة الفسوق والاستكبار . فهى وصية لجنس الإنسان كله ، قائمة على أساس إنسانيته ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنسانا . وهى وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد . فصفة الوالدية تقتضى هذا الإحسان بذاتها ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك . وهى وصية صادرة من خالق الإنسان ، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضا . الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع السليم ، الذى يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس الفطرة السليم . ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهية التى تتقدم بها الأمومة ، والتى لا يجزيها أبدا إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله فى الوالدين (حملته أمه كرها ، ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال (حملته أمه كرها . ووضعته كرها) لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة فى أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه ! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا فى عملية الحمل عن

جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة . إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم . وهى مزودة بخاصية أكالة . تمزق جدار الرحم الذى تلتصق به وتأكله ؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها , حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما في بركة من دم الأم الغنى بكل ما في جسمها من خلاصات ؛ وتمتصه لتحيا به وتنمو . وهى دائمة الأكلان لجدار الرحم . دائمة الامتصاص لمادة الحياة . والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص ، لتصب هذا كله دما نقيا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول ! وفى فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير . ذلك أنها تعطى محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير ! ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن الامها الهائلة كلها لا تقف فى وجه الفطرة ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة . ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش , وتمتد . . بينما هى تذوى وتموت ! ثم الرضاع والرعاية . حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية . وهى مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لا تمل أبدا ولا تكره تعب هذا الوليد . وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو . فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد ! فأنى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية ، مهما يفعل . وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ؟ وصدق رسول الله ﷺ وقد جاءه رجل كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأل رسول الله ﷺ هل أديت حقها ؟ فأجابه:" لا ، ولا بزفرة واحدة " ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة فى الأم ، إلى مرحلة النضج والرشد ، مع استقامة الفطرة ، واهتداء القلب (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال:رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى ، إنى تبت إليك ، وإنى من المسلمين) وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين . والأربعون هى غاية النضج والرشد ، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات ، ويتهيأ الإنسان للتدبر والتفكر فى اكتمال وهدوء . وفى هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة . وتتدبر المصير والمآل . ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة ، وهى فى مفرق الطريق ، بين شطر من العمر ولى ، وشطر يكاد آخره يتبدى . وهى تتوجه إلى الله (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى) دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه ، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التى تغمره وتغمر والديه قبله فهى قديمة العهد به ، المستقل المستصغر لجهده فى شكرها . يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله (أوزعنى) لينهض بواجب الشكر ؛ فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير (وأن أعمل صالحا ترضاه) وهذه أخرى . فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح ، يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه . فرضى ربه هو الغاية التى يتطلع إليها . وهو وحده الرجاء الذى يأمل فيه (وأصلح لى فى ذريتى) وهذه ثالثة . وهى رغبة القلب المؤمن فى أن يتصل عمله الصالح فى ذريته . وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه . والذرية الصالحة أمل العبد الصالح . وهى أثر عنده من الكنوز والذخائر . وأروح لقلبه من كل زينة الحياة . والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة فى طاعة الله . وشفاعته إلى ربه . شفاعته التى يتقدم بها بين يدى هذا الدعاء الخالص لله ، هى التوبة والإسلام (إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) ذلك شأن العبد الصالح ، صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه . فأما شأن ربه معه , فقد أفصح عنه هذا القرآن (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة . وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) فالجزاء بحساب أحسن الأعمال . والسيئات مغفورة متجاوز عنها . والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء . ذلك وفاء بوعد الصدق الذى وعدوه فى الدنيا . ولن يخلف الله وعده . . وهو جزاء الفيض والوفر والإنعام . فأما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال (والذى قال لوالديه:أف لكما ! أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟) فالوالدان مؤمنان . والولد العاق يجحد برهما أول ما يجحد ؛ فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح: أف لكما ! . . ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية: أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟ . . أى ذهبوا ولم يعد منهم أحد . . والساعة مقدرة إلى أجلها . والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا . ولم يقل أحد إنه تجزئة . يبعث جيل مضى فى عهد جيل ياتى . فليست لعبة وليست عبثا . إنما هو الحساب الختامى للرحلة كلها بعد انتهائها ! والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما ; ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ؛ ويهتفان به (وهما يستغيثان الله . ويلك آمن . إن وعد الله حق) ويبدو فى حكاية قولهما الفزع من هول ما يسمعان . بينما هو يصر على كفره ، ويلج فى جحوده:(فيقول:ما هذا إلا أساطير الأولين) هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ؛ إنهم كانوا خاسرين) والقول الذى حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذى ينال الجاحدين المكذبين . وهم كثير . خلت بهم القرون , من الجن والإنس . حسب وعيد الله الصادق الذى لا يخلف ولا يتخلف (إنهم كانوا خاسرين) وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين فى الدنيا . ثم خسارة الرضوان والنعيم فى الآخرة .

ثم العذاب الذى يحق على الجاحدين المنحرفين ؟ وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالا للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة (ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون) فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله ، فى حدود ذلك الإجمال فى جزاء كل فريق . وبعد , فهذان النموذجان عامان فى الناس ، ولكن مجيئهما فى هذا الأسلوب ، الذى يكاد يحدد شخصين بذواتهما أوقع وأشد إحياء للمثل كأنه واقع . ولقد وردت روايات أن كلا منهما يعنى إنسانا بعينه . ولكن لم يصح شىء من هذه الروايات . والأولى اعتبارهما واردين مورد المثل والنموذج . يدل على هذا الاعتبار صيغة التعقيب على كل نموذج . فالتعقيب على الأول (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة . وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) والتعقيب على الثانى (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس , إنهم كانوا خاسرين) ثم التعقيب العام (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم , وهم لا يظلمون) وكلها توحى بأن المقصود هو النموذج المكرر من هؤلاء وهؤلاء . ثم يقفهم وجها لوجه أمام مشهد شاخص لهم فى يوم الحساب الذى كانوا يجحدون (ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون) والمشهد سريع حاسم ، ولكنه يتضمن لفتة عميقة عريضة . إنه مشهد العرض على النار . وفى مواجهتها وقبيل سوقهم إليها ، يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) فقد كانوا يملكون الطيبات إذن , ولكنهم استنفدوها فى الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئا ؛ واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابا . استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع , غير ناظرين فيها للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام . ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة . واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذى لا يعلم حدوده إلا الله ! (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون) وكل عبد يستكبر فى الأرض فإنما يستكبر بغير حق . فالكبرياء لله وحده . وليست لأحد من عباده فى كثير أو قليل . وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار فى الأرض . فجزاء الاستكبار الهوان . وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضا . فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وهكذا ينتهى هذا الشوط من السورة بعرض ذينك النموذجين ومصيرهما فى النهاية ؛ وبهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة ، الفاسقين عن منهج الله ، المستكبرين عن طاعته . وهى لمسة للقلب البشرى تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون .

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{٢١} قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٢٢} قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ{٢٣} فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ{٢٤} تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ{٢٥} وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٢٦} وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٢٧} فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ){٢٨}

وهذا الشوط جولة فى مجال آخر ، تخدم القضية التى تعالجها السورة ، وتأخذ القلب البشرى من جانب غير الجوانب التى عالجها الشوطان الأولان . . جولة فى مصرع عاد ومصارع القرى غيرها حول مكة . وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود – عليه السلام – موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد ﷺ، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة فى حدود بشريته وحدود وظيفته . ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر , حين لم يسمعوا النذير . فلم تغن عنهم قوتهم – وكانوا أقوى – ولم يغن عنهم ثراؤهم – وكانوا أغنى – ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم – وكانوا أذكياء – ولم تغن عنهم آلهتهم التى اتخذوها تقربا – بزعمهم – إلى الله . وكذلك يقف المشركين فى مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ؛ فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم . ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل . خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذى لا يتغير وخط السنة الإلهية التى لا تتحول ولا تتبدل . وتبدوا شجرة العقيدة عميقة الجذور ، ممتدة الفروع ضاربة فى أعماق الزمان ; واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) وأخو عاد هو هود – عليه السلام – يذكره القرآن هنا بصفته . صفة الأخوة لقومه . ليصور صلة الود بينه

وبينهم ، وصلة القرابة التى كانت كفيلة بأن تعطفهم إلي دعوته ، وتحسن ظنهم بها وبه . وهى ذات الصلة بين محمد ﷺ وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة . والأحقاف جمع حقف . وهو الكثيب المرتفع من الرمال . وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة – يقال في حضرموت . والله – سبحانه – يوجه نبيه ﷺ أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف . يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقي مثلما يلقي من إعراض قومه وهو أخوهم . ويذكره ليذكر المشركين فى مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم ، على مقربة منهم ومن حولهم . وقد أنذر أخو عاد قومه ، ولم يكن أول نذير لقومه . فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم (وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه) قريبا منه وبعيدا عنه في الزمان وفى المكان . فالنذارة متصلة ، وسلسلة الرسالة ممتدة . والأمر ليس بدعا ولا غريبا فهو معهود مألوف . أنذرهم –ما أنذر به كل رسول قومه (ألا تعبدوا إلا الله . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وعبادة الله وحده عقيدة فى الضمير ومنهج فى الحياة ؛ والمخالفة عنها تنتهى إلى العذاب العظيم فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما على السواء . والإشارة إلى اليوم (عذاب يوم عظيم) تعنى حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم . فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله ، والإنذار بعذابه ؟ (قالوا:أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين !) سوء الظن وعدم الفهم ، والتحدى للنذير ، واستعجال العذاب الذى ينذرهم به ، والاستهزاء والتكذيب . وإصرار على الباطل واعتزاز ! فأما هود النبى فيتلقى هذا كله فى أدب النبى ، وفى تجرده من كل ادعاء ، وفى الوقوف عند حده لا يتعداه (قال:إنما العلم عند الله . وأبلغكم ما أرسلت به . ولكنى أراكم قوما تجهلون) إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم . ولست أعلم متى يحين موعده ، ولا كيف يكون شكله . فعلم ذلك عند الله . وإنما أنا مبلغ عن الله . لا أدعى علما ولا قدرة مع الله (ولكنى أراكم قوما تجهلون) وتحمقون . وأية حماقة وأى جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدى والتكذيب ؟ ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضى إلى النهاية المقصودة أصلا فى هذا المقام ؛ ردا على التحدى والاستعجال (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا:هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به:ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . كذلك نجزى القوم المجرمين) وتقول الروايات:إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف . ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحا شديدا ، وخرجوا يستقبلونها في الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء (قالوا هذا عارض ممطرنا) وجاءهم الرد بلسان الواقع (بل هو ما استعجلتم به:ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها) وهى الريح الصرصر العاتية التى ذكرت في سورة أخرى . وقد أدت الريح ما أمرت به ، فدمرت كل شيء (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) أما هم وأما أنعامهم وأما أشياؤهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى . إنما هى المساكن قائمة خاوية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار (كذلك نجزى القوم المجرمين) سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين . وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه . وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير . مكناهم فيما لم نمكنكم فيه . . إجمالا . . من القوة والمال والعلم والمتاع . وآتيناهم أسماعا وأبصارا وأفئدة – والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعنى الإدراك في صورة من صوره – ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء . إذ أنهم عطلوها وحجبوها (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) من العذاب والبلاء . .

والعبرة التى يفيدها كل ذى سمع وبصر وقلب ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ,ولا ذو علم بعلمه . فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شيء ، وتتركهم (لا يرى إلا مساكنهم)حين يأخذهم الله بسنته التى يأخذ بها المجرمين . ويختم هذا الشوط بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ! بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) وقد أهلك الله القرى التى كذبت رسلها في الجزيرة . كعاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة . وثمود بالحجر فى شمالها . وسبأ وكانوا باليمن . ومدين وكانت في طريقهم إلى الشام . وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها فى رحلة الصيف إلى الشمال . ولقد نوع الله فى آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون . ولكنهم مضوا فى ضلالتهم , فأخذهم العذاب الأليم ، ألوانا وأنواعا ، تتحدث بها الأجيال من بعدهم ، ويعرفها الخلف من ورائهم . وكان مشركو مكة يتسامعون بها ، ويرون آثارها غادين رائحين . وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة . فقد دمر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم التى كانوا

يتخذونها من دون الله ، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه . سبحانه . وهي تستنزل غضبه ونقمته (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) إنهم لم ينصروهم (بل ضلوا عنهم) وتركوهم وحدهم لا يعرفون طريقا إليهم أصلا ، فضلا على أن يأخذوا بيدهم وينجدوهم من بأس الله (وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) فهو إفك . وهو افتراء . وذلك مآله . وتلك حقيقته . . الهلاك والتدمير . . فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى ؟ وهذه هي العاقبة وهذا هو المصير ؟

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ{٢٩} قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ{٣٠} يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّن عَذَابٍ أَلِيمٍ{٣١} وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٣٢} أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٣٣} وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{٣٤} فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ){٣٥}

هذا الشوط الأخير جولة جديدة في مجال القضية التي تعالجها السورة ؛ فسياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات , واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال . سياقة الخبر في هذا المجال وبهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذي يتمثل في قولهم (أنصتوا) عندما طرق أسماعهم ، يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه . كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ، الذين جاء القرآن لهم في الأصل . وهو إيقاع مؤثر ولا شك ، يلفت هذه القلوب لفتة عنيفة عميقة . وفي الوقت ذاته تجيء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن ، فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن ويغفل عنها البشر . ولا يخفى ما في هذه اللفتة من إيحاء عميق متفق مع ما جاء في السورة . كذلك ما يرد في كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السماوات والأرض الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث . وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون . وبمناسبة البعث يعرض مشهدا من مشاهد القيامة (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) وفي الختام تجيء الوصية للرسول ﷺ بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم . وتركهم للأجل المرسوم . وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار . . للبلاغ . . قبل الهلاك ! إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي ﷺ وحكاية ما قالوا وما فعلوا . . هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث . ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق كما يلفظه رسول الله ﷺ ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران ، مستعدون للهدى وللضلال . . وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة ؛ فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التي يقررها الله – سبحانه – ثبوتا . ومن هذا النص القرآني ، ومن نصوص سورة الجن ، والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه , ومن النصوص الأخرى المتناثرة في القرآن عن الجن ، ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث ، نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن . . ولا زيادة . . هذه الحقائق تتلخص في أن هنالك خلقا اسمه الجن . مخلوق من النار . لقول إبليس في الحديث عن آدم (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وإبليس من الجن لقول الله تعالى (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فأصله من أصل الجن . وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر . منها خلقته من نار ، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس – وهو من الجن (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس . وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي – لا ندري أين – لقوله تعالى:لآدم وإبليس معا (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضي أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها . وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن: وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع , فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم – غير عباد الله – للنصوص السابقة ، ولقوله تعالى في حكاية حوار إبليس اللعين (قال:فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) وغير هذا من النصوص المماثلة . ولكنا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأي أداة . وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به . وأنه

قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر في سورة الجن (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهمإلى الإيمان ، بعدما وجدوه في نفوسهم ,وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد . وهذا هو القدر المستيقن فى أمر الجن ، وهو حسبنا ، بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .

فأما الحادث الذى تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح , فقد وردت فيه روايات متعددة نثبت أصحها: قال:ساق ابن إسحاق – فيما رواه ابن هشام فى السيرة – خبر النفر من الجن بعد خبر خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت عمه أبي طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين فى مكة . ورد ثقيف له ردا قبيحا ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه ﷺ بالحجارة . فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم:" اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ,من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك " . قال:ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف . حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى . وهم – فيما ذكر لى – سبعة نفر من جن نصيبين . فاستمعوا له . فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين . قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه ﷺ قال الله عز وجل (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) إلى قوله تعالى (ويجركم من عذاب أليم) وقال تعالى (قل:أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة(. وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا:أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين) لقد كان إذن تدبيرا من الله أن يصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن ، لا مصادفة عابرة . وكان فى تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ؛ وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لشياطين الجن كما هي معدة لشياطين الإنس . ويرسم النص مشهد هذا النفر – وهم ما بين ثلاثة وعشرة – وهم يستمعون إلى هذا القرآن ,ويصور لنا ما وقع فى حسهم منه ، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع . (فلما حضروه قالوا:أنصتوا) وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع (فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين) وهذه كتلك تصور الأثر الذى انطبع فى قلوبهم من الإنصات للقرآن . فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية . فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به . وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب ، يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين فى جد واهتمام (قالوا:يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم:إنا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى فى أصوله . فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكن طبيعتها تشى بأنها من ذلك النبع الذى نبع منه كتاب موسى . وشهادة هؤلاء الجن البعيدين – نسبيا – عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيحاء عميق . ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه (يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) ووقع الحق والهدى فى هذا القرآن هائل ضخم ، لا يقف له قلب غير مطموس ؛ ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامح اللئيم . ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هى تنطق بهذه الشهادة ، وتعبر عما مسها منه هذا التعبير . ثم مضوا فى نذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع ، الذى يحس أن عليه واجبا فى النذارة لا بد أن يؤديه (يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم) فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ؛ واعتبروا محمدا ﷺ داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له ، فنادوا قومهم (يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به) وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب . فبشروا وأنذروا بهذا الذى عرفوه (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك فى ضلال مبين) فهى تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان . فالاحتمال قوى وراجح أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة . وأن الذى لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء . ويذيقه العذاب الأليم ؛ فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه . وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالا بينا

عن الصراط المستقيم وكذلك الآية التى بعدها يحتمل كثيرا أن تكون من كلامهم ، تعجيبا من أولئك الذين لا يستجيبون لله ؛ حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء (أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى . إنه على كل شىء قدير) وهى لفتة إلى كتاب الكون المنظور ، الذى ورد ذكره فى أول السورة . وكثيرا ما يتضمن السياق القرآنى مثل هذا التناسق بين قول مباشر فى السورة ، وقول مثله يجىء فى قصة ، فيتم التطابق بين مصدرين على الحقيقة الواحدة . وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل:السماوات والأرض . ويوحى للحس البشرى بيسر الإحياء بعد الموت . وهذا الإحياء هو المقصود . وصياغة القضية فى أسلوب الاستفهام والجواب أقوى وآكد فى تقرير هذه الحقيقة . ثم يجىء التعقيب الشامل (إنه على كل شىء قدير) فتضم الإحياء وغيره فى نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شىء كان أو يكون . وعند ذكر الإحياء يرتسم مشهد الحساب كأنه شاخص للعيون فيبدأ المشهد حكاية أو مقدمة لحكاية (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) وبينما السامع فى انتظار وصف ما سيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته . وإذا الحوار قائم فى المشهد المعروض (أليس هذا بالحق ؟) ويا له من سؤال ؟ بل يا لها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون ، واليوم تتلوى أعناقهم على الحق الذى كانوا ينكرون . والجواب فى خزى وفى مذلة وفى ارتياع (بلى . وربنا) هكذا هم يقسمون (وربنا) ربهم الذى كانوا لا يستجيبون لداعيه ، ولا يستمعون لنبيه ولا يعترفون له بربوبية . ثم هم اليوم يقسمون به على الحق الذى أنكروه ! عندئذ يبلغ السؤال غاية من الترذيل والتقريع ، ويقضى الأمر ، وينتهى الحوار (قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) [كلمة ورد غطاها] كما يقال ! الجريمة ظاهرة . الجانى معترف . فإلى الجحيم ! وسرعة المشهد هنا مقصودة . فالمواجهة حاسمة ، ولا مجال لأخذ ولا رد . لقد كانوا ينكرون . فالآن يعترفون . والآن يذوقون ! وعلى هذا المشهد الحاسم فى مصير الذين كفروا ، وعلى مشهد الإيمان من أبناء عالم آخر . وفى ختام السورة التى عرضت مقولات الكافرين عن الرسول ﷺ وعن القرآن الكريم . . يجىء الإيقاع الأخير . توجيها للرسول ﷺ أن يصبر عليهم ، ولا يستعجل لهم ، فقد رأى ما ينتظرهم ، وهو منهم قريب (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وكل كلمة فى الآية ذات رصيد ضخم ؛ وكل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال ، والمعانى والإيحاءات ، والقضايا والقيم (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ولا تستعجل لهم) توجيه يقال لمحمد ﷺ وهو الذى احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى . وهو الذى نشأ يتيما ، وجرد من الولى والحامى ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد . الأب . والأم . والجد . والعم . والزوج الوفية الحنون . وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل . كما هو مجرد من كل سند أو ظهير . وهو الذى لقى من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين . وهو الذى خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد فى كل مرة بلا نصرة . وفى بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان ، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهال الخاشع النبيل . وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . . ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ فى تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفى ثباتها وصلابتها ، وفى صفائها وشفافيتها . تحتاج إلى التوجيه الربانى بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين . نعم . وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة ، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر . وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهى المختوم . (فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) تشجيع وتصبير وتأسية وتسلية . . ثم تطمين (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التى يمكثونها قبيل الأخرة . وإنها لتافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر فى النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار . . ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون فى الأبد الذى يدوم . وما كانت تلك الساعة إلا بلاغا قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم (بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) لا . وما الله يريد ظلما للعباد . لا . وليصبر الداعية على ما يلقاه . فما هى إلا ساعة من نهار . ثم يكون ما يكون . . .

سورة محمد ﷺ

مدنية ، و آياتها ٣٨

هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقى لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال فى صورها وظلالها . والقتال فى جرسها وإيقاعها . القتال موضوعها . فهى تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا فى صيغة هجوم أدبى على الذين كفروا ، وتمجيد كذلك للذين آمنوا ، مع إيحاء بأن الله عدو للأولين ولى للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة فى تقدير الله سبحانه . فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول فى السورة (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا ، أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم . فى صيغة رنانة قوية ، مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان فى المعركة والتقتيل العنيف (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق , فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها) ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتشجيع عليه ، وتكريم للإستشهاد فيه ، ووعد من الله بإكرام الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصارا لله ، وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياع الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) كذلك تهديد آخر للقرية التى أخرجت الرسول ﷺ (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) ثم تمضى السورة بعد هذا الهجوم العنيف فى ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان , وحال المؤمنين وحال الكافرين فى الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ; وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوان (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) كما تصف متاع المؤمنين فى الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمر لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، فى وفر وفيض . . فى صورة أنهار جارية . . ذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال أهؤلاء (كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ؟) فإذا انقضت هذه الجولة الأولى فى المعركة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها فى السورة جولة مع المنافقين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل فى تلك الفترة ، التى يبدو من الوقائع التى تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود ، وضعف مركز المنافقين ، والحديث عن المنافقين فى هذه السورة يحمل ظلالها . ظلال الهجوم والقتال ، منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله ، وغيبة وعيهم واهتمامهم فى مجلسه ؛ ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم:ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) ويهددهم بالساعة يوم لا يستطيعون الصحو ولا يملكون التذكر (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟) ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال - وهم يتظاهرون بالإيمان - والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين (ويقول الذين آمنوا:لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت !) ويحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويردل اتجاهاتهم ، ويعلن عليهم الحرب والطرد واللعن (فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) ويفضحهم فى توليهم للشيطان ، وفى تآمرهم مع اليهود ، ويهددهم بالعذاب عند الموت بالفضيحة التى تكشف أشخاصهم فردا فردا فى المجتمع الإسلامى ، الذى يدمجون أنفسهم فيه , وهم ليسوا منه ، وهم يكيدون له (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم

الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله:سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ؟ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم . أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم , ولتعرفنهم فى لحن القول . والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) وفى الجولة الثالثة والأخيرة فى السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول – من بعد ما تبين لهم الهدى – لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم) وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعدائهم: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم . وتحضيض لهم على الثبات عند القتال (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذى يسره الله ، ولم يجعله استئصالا للمال كله ، رأفة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبرمها وضيقها لو أحفاهم فى السؤال (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإنفاق المال ، وبالبذل فى القتال (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم) إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ؛ يظللها جو القتال ، وتتسم بطابعه فى كل فقراتها . وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة:[أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعائهم . .] وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف فى الهواء]:أوزارها . أمثالها . أقفالها] وهناك شدة فى الصور كالشدة فى جرس الألفاظ المعبرة عنها . . فالقتال أو القتل يقول عنه (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) والتقتيل والأسر يصوره بشدة (حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) والدعاء على الكافرين يجىء فى لفظ قاس (فتعسا لهم وأضل أعمالهم) وهلاك الغابرين يرسم فى صورة مدوية ظلا ولفظا: (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) وصورة العذاب فى النار تجىء فى هذا المشهد (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجىء فى مشهد كذلك عنيف (ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت !) حتى تحذير المؤمنين من التولى يجىء فى تهديد نهائى حاسم (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع فى سورة القتال . .

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ{١} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ{٢} ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ{٣} فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ{٤} سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ{٥} وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ{٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ{٧} وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ{٨} ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ{٩} أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا{١٠} ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ{١١} إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ{١٢} وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ{١٣} أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ{١٤} مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ{١٥})

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد ! وإضلال الأعمال الذى يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم – يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها . ولكن هذا المعنى يتمثل فى حركة . فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة ، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال وفى الجانب الآخر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد ﷺ . ولكن السياق يبرزه

ويظهره ليصفه بصفته (وهو الحق من ربهم) ويؤكد هذا المعنى ويقرره . وإلى جوار الإيمان المستكن فى الضمير ، العمل الظاهر فى الحياة . وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه .وهؤلاء (كفر عنهم سيئاتهم) فى مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات فى شكلها وظاهرها . وبينما يبطل العمل ولو كان صالحا من الكافرين ، فإن السيئة تغفر للمؤمنين . وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله ، وفى حقيقة الحياة (وأصلح بالهم) وإصلاح البال نعمة كبرى تلى نعمة الإيمان فى القدر والقيمة والأثر . والتعبير يلقى ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام . ومتى صلح البال ,استقام الشعور والتفكير ، واطمأن القلب والضمير ، وارتاحت المشاعر والأعصاب , ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام . . وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضىء الرفاف (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) والباطل ليست له جذور ضاربة فى كيان هذا الوجود ؛ ومن ثم فهو ذاهب هالك ؛ وكل من يتبعه وكل ما يصدر عنه ذاهب هالك كذلك . ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم ، ولم يبق لهم منها شىء ذو غناء . فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة ، ويرجع إلى أسبابه الأصلية . وما هو فلتة ولا مصادفة ولا جزاف (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) وكذلك يضع لهم القواعد التى يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم . فيعلمون المثل الذى ينتمون إليه ويقاسون عليه . ولا يحتارون فى الوزن والقياس ! ذلك الأصل الذى قررته الآية الأولى فى السورة ، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين . فهم على الحق الثابت الذى ينبغى أن يتقرر فى الأرض ، ويستعلى ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه . والذين كفروا على الباطل الذى ينبغى أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء . حتى تضع الحرب أوزارها) واللقاء المقصود فى الآية هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء . فحتى نزول هذه السورة كان المشركون فى الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد ؛ ولم تكن بعد قد نزلت سورة "براءة " التى تنهى عهود المشركين المحددة الأجل إلى أجلها ، والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر ؛ وتأمر بقتل المشركين بعد ذلك أنى وجدوا فى أنحاء الجزيرة – قاعدة الإسلام – أو يسلموا . كى تخلص القاعدة للإسلام وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجىء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعا . وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة ، وبالحركة التى تمثلها ، تمشيا مع جو السورة وظلالها (حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) والإثخان هو شدة التقتيل ، حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ – لا قبله – يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والعدو ما يزال قويا فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر . فأما الحكم فى الأسرى بعد ذلك ، فتحدده هذه الآية . وهى النص القرآنى الوحيد المتضمن حكم الأسرى (فإما منا بعد وإما فداء) أى إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو فى نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين. وليس فى الآية حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين . ولكن الذى حدث فعلا أن رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى – وهو الغالب – وقتلوا بعضهم فى حالات معينة . ويبقى الإسترقاق . وقد سبق لنا فى مواضع مختلفة من هذه الظلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد فى الحرب عامة . ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام فى جميع الحالات النص العام (فإما منا بعد وإما فداء) فى الوقت الذى يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول ﷺ فى بعض الحالات فأطلق بعض الأسارى منا . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال . وفى حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض) إنما يتخذ الله المؤمنين – حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إثخانهم – إنما يتخذهم سبحانه ستارا لقدرته . ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة . كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم . بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها ,ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير . وهو يبتليهم ، ويربيهم ، ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار . ومن ثم يكشف عن مصير الذين يقتلون فى سبيل الله (والذين قتلوا فى سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم) لن يضل أعمالهم . . فى مقابل ما جاء عن الذين كفروا أنه أضل أعمالهم . فهى أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذى صدرت عنه ، وانبعثت حماية له ، واتجاها إليه . وهى باقية من ثم لأن الحق باق لا يهدر ولا يضيع (سيهديهم ويصلح بالهم) فالله ربهم الذى قتلوا فى سبيله ، يظل يتعهدهم بالهداية – بعد الاستشهاد – ويتعهدهم بإصلاح البال ، وتصفية الروح من بقية أوشاب الأرض ؛ أو يزيدها صفاء لتتناسق مع صفاء الملأ الأعلى الذى صعدت إليه. وهى حياة نامية فى ظلال الله . وأخيرا يحقق لهم ما وعدهم: (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الإمام أحمد فى مسنده قال:قال رسول الله ﷺ :" يعطى الشهيد ست خصال:عند أول

قطرة من دمه ، تكفر عنه كل خطيئة ؛ ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان " وفى ظل هذه الكرامة للذين قتلوا فى سبيل الله . وفى ظل ذلك الرضى ، وتلك الرعاية ، وبلوغ ذلك المقام . يحرض الله المؤمنين على التجرد لله ، والاتجاه إلى نصرة نهجه فى الحياة ؛ ويعدهم على هذا النصر والتثبيت فى المعركة ؛ والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وكيف ينصر المؤمنون الله ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ إن لله فى نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبقى فيها معه أحدا ولا شيئا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه فى رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها . . فهذا نصر الله فى ذوات النفوس (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام . فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) وهو تصوير لما يعتمل فى قلوبهم ويختلج فى نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه . وهذا هو الذى يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة . وهى حالة كثير من النفوس الفاسدة التى تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهى نفوس يلتقى بها الإنسان كثيرا فى كل زمان وفى كل مكان ، ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به ؛ حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لذعتها العقارب ! وتتجنب أن يجىء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث ! ولعلنا نشاهد فى هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة ! ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم فى شدة وعنف (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها) وهى لفتة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقعة . وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم ، وكل ما لهم ، فإذا هو أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة . وذلك المشهد الذى يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته ، والتعبير يحمل فى إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته فى انقضاضه وتحطمه ! وعلى مشهد التدمير والتحطيم والردم ، يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد ، بأنها فى انتظارهم . هذه الوقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شىء وتدفنهم بين الأنقاض (وللكافرين أمثالها)! وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذى يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصيلة الدائمة (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ؛ وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لا تخليا من الله عن ولايته له ، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء . ثم يوازن بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعدما بين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال . مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم) والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون فى الأرض أحيانا من أطيب المتاع ؛ ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقى الضخم للمؤمنين – وهو نصيبهم فى الجنة – والنصيب الكلى للكافرين الذى لا نصيب لهم سواه . ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله فى جنات تجرى من تحتها الأنهار . فالله هو الذى يدخلهم . وهو إذن نصيب كريم علوى رفيع . ونصيب الذين كفروا متاع وأكل (كما تأكل الأنعام) وهو تصوير زرى ، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ؛ ويلقى ظلال الأكل الحيوانى الشره ، والمتاع الحيوانى الغليظ . بلا تذوق ، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح وتعترض سلسلة الموازنات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفتة إلى القرية التى أخرجت الرسول ﷺ وموازنة بينها وبين القرى الهالكة وكانت أشد قوة منها (وكأى من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم . وهى آية يروى أنها نزلت فى الطريق بين مكة والمدينة فى أثناء رحلة الخروج والهجرة ، تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه ؛ وتهوينا من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا فى وجه الدعوة ، وآذوا أصحابها ، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا بعقيدتهم . ثم يمضى فى الموازنة بين حال الفريقين ؛ ويعلل لم كان الله ولى المؤمنين يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الآخرة ، بعد النصر والكرامة فى الدنيا ؟ ولم كان الذين كفروا لا مولى لهم معرضين للهلاك فى الدنيا – بعد حياة حيوانية هابطة – وللعذاب فى الآخرة والثوى فى النار والإقامة (أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟) فهو فارق أصيل فى الحالة التى عليها الفريقان ، وفى المنهج والسلوك سواء . فالذين آمنوا على بينة من ربهم . . رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقون . . والذين كفروا زين لهم سوء عملهم ، فرأوه حسنا وهو سىء ؛ ولم يروا ولم يستيقنوا ، (واتبعوا أهواءهم) بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور

يكشف لهم الحق من الباطل . أهؤلاء كهؤلاء ؟ إنهم يختلفون حالا ومنهجا واتجاها . فلا يمكن أن يتفقوا ميزانا ولا جزاء ولا مصيرا ! وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء فى المصير (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . كمن هو خالد فى النار ، وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ؟) إن هذه الصورة الحسية من النعيم والعذاب ترد في مواضع من القرآن . وقد تجىء معها صور معنوية أو تجىء مجردة . كما أن صور النعيم والعذاب المجردة عن الحسيات تجىء فى مواضع أخرى . وهنالك ناس يعبدون الله لأنهم يشكرونه على نعمه التى لا يحصونها . أو لأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب . أو لأنهم يستحيون أن يراهم الله على حالة لا يحبها . ولا ينظرون وراء ذلك إلى جنة أو إلى نار ، ولا إلى نعيم أو عذاب على الإطلاق ولقد روى عن رسول الل ه ﷺ أنه كان يصلى حتى تنفر رجلاه . فقالت له عائشة – رضى الله عنها – يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ? فقال ﷺ :" يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا ؟ " وهنا نوعان من الجزاء: هذه الأنهار مع كل الثمرات مع المغفرة من الله . والنوع الآخر(كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) وهى صورة حسية عنيفة من العذاب ، تناسب جو سورة القتال ، وتتناسب مع غلظ طبيعة القوم . وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام . فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ . والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء ، التى كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام ! بهذا يختم الجولة الأولى التى بدأت بالهجوم عند افتتاح السورة ، واستمرت فى معركة متصلة ، عنيفة ، حتى الختام . .

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ{١٦} وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ{١٧} فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ{١٨} فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ{١٩} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ{٢٠} طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ{٢١} فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ{٢٢} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ{٢٣} أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا{٢٤} إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ{٢٥} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ{٢٦} فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ{٢٧} ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ{٢٨} أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ{٢٩} وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ{٣٠} وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ){٣١}

هذه الجولة مع المنافقين ، وموقفهم إزاء شخص رسول الله ﷺ وإزاء القرآن . ثم موقفهم من الجهاد الذى فرضه الله على المسلمين لإعلاء كلمة الله . وأخيرا موقفهم من اليهود وتآمرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين .وحركة النفاق حركة مدنية ، لم يكن لها وجود فى مكة ، لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها . فالمسلمون في مكة كانوا فى موقف المضطهد ، الذى لا يحتاج أحد أن ينافقه ! فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج فى المدينة ، وانتشاره فى العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام ، اضطر ناس ممن كرهوا لمحمد ﷺ وللإسلام أن يعز ويستعلى ، ولم يملكوا فى الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة ، اضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره . وهم يضمرون الحقد والبغضاء . ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر . وعلى رأسهم عبدالله بن أبى بن سلول رأس النفاق المعروف . وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السور المدنية ؛ كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم فى بعض المؤامرات المحبوكة . وهذا أحد المواضع التى وردت فيها الإشارة إلى المنافقين ، والإشارة كذلك إلى اليهود (ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم:ماذا قال آنفا) ولفظة (ومنهم) تحتمل أن تكون إشارة للذين كفروا الذين كان يدور الحديث عنهم فى الجولة السابقة فى السورة: باعتبار أن المنافقين فى الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر ,والله يتحدث عنها بحقيقتها فى هذه الآية . كما تحتمل أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندمجون فيهم ، متظاهرون بالإسلام معهم . وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم ، كما هو منهج الإسلام فى معاملة الناس . ولكنهم فى كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم فى

الآية وفعلهم ، وكما يدل السياق فى هذه الجولة من السورة ، والحديث فيها عن المنافقين . وسؤالهم ذاك بعد استماعهم للرسول ﷺ والاستماع معناه السماع باهتمام – يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهرا بأنهم يلقون سمعهم وبالهم للرسول ﷺ وقلوبهم لاهية غافلة . أو مطموسة مغلقة . كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفى اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم:إن ما يقوله محمد لا يفهم ، أو لا يعنى شيئا يفهم . فهاهم أولاء مع استماعهم له ، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشىء ! كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد ﷺ وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه – كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم – فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التى سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية . . وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهوائهم) ذلك حال المنافقين ، فأما حال المهتدين فهو على النقيض (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وترتيب الوقائع فى الآية يستوقف النظر . فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل (وآتاهم تقواهم) والتقوى حالة فى القلب تجعله أبدا واجفا من هيبة الله ، شاعرا برقابته ، خائفا من غضبه , متطلعا إلى رضاه ، متحرجا من أن يراه الله على هيئة أو فى حالة لا يرضاها . . هذه الحساسية المرهفة هى التقوى . . وهى مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون فى الوصول إلى رضى الله . والهدى والتقوى والحساسية حالة تقابل حالة النفاق والانطماس والغفلة فى الآية السابقة . ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المنافقين المطموسين الغافلين , الذين يخرجون من مجلس رسول الله ﷺ ولم يعوا مما قال شيئا ينفعهم ويهديهم . ويستجيش قلوبهم للتقوى ، ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم – إذا جاءتهم – ذكراهم ؟) وهى جذبة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنف ، كما لو أخذت بتلابيب مخمور وهززته هزا ! ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله ﷺ ويخرجون منها ، غير واعين ، ولا حافظين ، ولا متذكرين ؟ ماذا ينتظرون ؟ (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟) فتفجأهم وهم سادرون غارون غافلون . هل ينظرون إلا الساعة ؟ (فقد جاء أشراطها) ووجدت علاماتها . والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، فهى إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب . وقد قال رسول الله ﷺ :" بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها . وإذا كان الزمن يلوح ممتدا منذ هذه الرسالة الأخيرة ؛ فإن أيام الله غير أيامنا . ولكنها فى حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى ؛ وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحوا ولا ذكرا (فأنى لهم – إذا جاءتهم – ذكراهم ؟) إنها الهزة القوية العنيفة التى تخرج الغافلين من غفلتهم ؛ والتى تتفق كذلك مع طابع السورة العنيف . ثم يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين ؛ ليأخذوا طريقا آخر . طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط ؛ ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون (فاعلم أنه لا إله إلا الله ؛ واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات ؛ والله يعلم متقلبكم ومثواكم) وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التى يقوم عليها أمر النبى ﷺ ومن معه (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها فى الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى (واستغفر لذنبك) وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذى يشعر أبدا بتقصيره مهما جهد ؛ ويشعر – وقد غفر له – أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران . ثم هو التلقين المستمر لمن خلف رسول الله ﷺ ممن يعرفون منزلته عند ربه ؛ ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه . ثم للمؤمنين والمؤمنات . وهو المستجاب الدعوة عند ربه . فيشعرون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم . وبفضل الله عليهم وهو يوجهه لأن يستغفر لهم ، ليغفر لهم ! واللمسة الأخيرة فى هذا التوجيه (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعا . الطمأنينة وهو فى رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى . والخوف من هذا الموقف الذى يحيط به علم الله ويتعقبه فى كل حالاته , ويطلع على سره ونجواه . . وينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد ، وما يعتمل فى نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف ، ويكشف دخيلتهم فى هذا الأمر ، كما يكشف لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيبوا ويصدقوا الله عندما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد (ويقول الذين آمنوا:لولا نزلت سورة) وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة:إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذى يحبونه ، ويجدون فى كل سورة منه زادا جديدا حبيبا . وإما أن يكون تطلعا إلى سورة تبين أمرا من أمور الجهاد ، وتفصل فى قضية من قضايا القتال تشغل بالهم . فيقولون (لولا نزلت سورة !) (فإذا أنزلت سورة محكمة) فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا (وذكر فيها القتال) أى الأمر به . أو بيان حكم المتخلفين عنه ، أو أى شأن من شؤونه ، إذا بأولئك (الذين فى قلوبهم مرض) وهو وصف من أوصاف المنافقين . . يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم ستار الرياء الذى

يتسترون به ، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف ، ويبدون فى حالة تزرى بالرجال ، يصورها التعبير القرآنى المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار (رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) وهو تعبير لا تمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أى عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع . والضعف إلى حد الرعشة . والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال والحركة التى تشغف الخيال ! وهى صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر . وهى هى طبيعة المرض والنفاق ! وبينما هم فى هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذى يقوى العزائم ويشد القوائم لو تناولوه فى إخلاص (فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) نعم . أولى لهم من هذه الفضيحة . ومن هذا الخور . ومن هذا الهلع . ومن هذا النفاق . أولى لهم (طاعة وقول معروف) طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة ، وتنهض بأمره عن ثقة . وقول معروف يشى بنظافة الحس واستقامة القلب ، وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرعا مهددا بسوء العاقبة لو قادهم حالهم هذا الى النكسة والتولى إلى الكفر ؛ وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟) وهذا التعبير (هل عسيتم) يفيد ما هو متوقع من حال المخاطبين . ويلوح لهم بالنذير والتحذير . . احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التى كنتم فيها . تفسدون فى الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام . وبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذى حذرهم إياه (أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) أولئك الذين يظلون فى مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيه ، ولم يستيقنوه (أولئك الذين لعنهم الله) وطردهم وحجبهم عن الهدى ، (فأصمهم وأعمى أبصارهم) وهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ; ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ; فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدى هذه الوظيفة . ويتسائل فى استنكار (أفلا يتدبرون القرآن) وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير . وينشىء حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير (أم على قلوب أقفالها ؟) فهى تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التى لا تسمح بالهواء والنور ! ويمضى فى تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه فيتبين أنه تآمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون (إن الذين ارتدوا على أدبارهم – من بعد ما تبين لهم الهدى – الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله:سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم) والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعدما تبين لهم ، فى صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأدبار . ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه . فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ! وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون ! ثم يذكر السبب الذى جعل للشيطان عليهم هذا السلطان ، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر) واليهود فى المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله ؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، وأن يكون خاتم الرسل منهم ؛ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ويوعدونهم ظهور النبى الذى يقودهم ويمكن لهم فى الأرض ويسترجع ملكهم وسلطانهم . فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم ، من غير يهود ، كرهوا رسالته . حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته ، التى هددت ما بقى لهم من مركز هناك . ومن ثم كانوا إلبا عليه منذ أول يوم ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة فى ميادين القتال ؛ وانضم إليهم كل حانق ، وكل منافق ، وظلت الحرب سجالا بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى أجلاهم فى آخر الأمر عن الجزيرة كلها وخلصها للإسلام . وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود (سنطيعكم فى بعض الأمر) والأرجح أن ذلك كان فى الدس والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام (والله يعلم إسرارهم) وهو تعقيب كله تهديد . فأين يذهب تآمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ؛ وهو مكشوف لعلم الله ? معرض لقوة الله ? ثم التهديد السافر بجند الله ، والمتآمرون فى نهاية الحياة (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)! وهو مشهد مفزع مهين . وهم يحتضرون . ولا حول لهم ولا قوة . وهم فى نهاية حياتهم على هذه الأرض . وفى مستهل حياتهم الأخرى . هذه الحياة التى تفتتح بضرب الوجوه والأدبار . فى لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والمخافة . الأدبار التى ارتدوا عليها من بعد ما تبين لهم الهدى ! فيا لها من مأساة ! (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم) فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه . هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه . وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا ما يسخط الله ويغضبه . . (فأحبط أعمالهم . .(التى

كانوا يعجبون بها ويتعاجبون ؛ ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون . فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتنتفخ . ثم تهلك وتضيع ! وفى نهاية الشوط يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله ﷺ وللمسلمين ، الذين يعيشون بينهم متخفين ؛ يتظاهرون بالإسلام وهم لهم كائدون (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكهم ، فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالكم . ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم فى الغالب على المسلمين . فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافيا ، ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين . ويقول لرسوله ﷺ (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) أى لو نشاء لكشفنا لك عنهم بذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه [وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم] ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم ، وإمالتهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقهم فى خطابك سيدلك على نفاقهم (ولتعرفنهم فى لحن القول) ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها (والله يعلم أعمالكم) فلا تخفى عليه منها خافية . ثم وعد من الله بالابتلاء . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ، لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس فى الصفوف ، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلوا أخباركم) والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها ، ويطلع على خفاياها وخباياها ، ويعلم ما يكون من أمرها علمه بما هو كائن فعلا . فما هذا الابتلاء ؟ ولمن يكون العلم من ورائه بما يتكشف عنه ؟ والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعماء والبأساء ، وبالسعة والضيق ، وبالفرج والكرب . . كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس ، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها . .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ{٣٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ{٣٣} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ{٣٤} فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ{٣٥} إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ{٣٦} إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ{٣٧} هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم){٣٨}

الحديث فى هذا الشوط الأخير من السورة عن (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى) وهؤلاء ، الأقرب أن يكونوا هم المشركين الذين كان الحديث عنهم فى أول السورة . فهم الذين ينطبق عليهم هذا التبجح فى الوقوف للدعوة الإسلامية . التبجح الذى يعبر عنه بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ﷺ وإن كان هناك احتمال آخر ، وهو أن يكون الحديث عاما لكل من يقف هذا الموقف ؛ يشمل اليهود فى المدينة ويشمل المنافقين ، على سبيل التهديد لهم إذا هموا أن يقفوا مثل هذا الموقف جهرة أو سرا . ولكن الاحتمال الأول أقرب على كل حال . أما الحديث فى الشطر الثانى والأخير حتى ختام السورة فهو خطاب للمؤمنين ، يدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال ، دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدى الظالم , تحت أى مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة . ودون بخل بالمال الذى لا يكلفهم الله أن ينفقوا منه إلا فى حدود مستطاعة ، مراعيا الشح الفطرى فى النفوس ! وإن لا ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها , ويستبدل بهم قوما غيرهم ينهضون بتكاليفها ، ويعرفون قدرها . وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة ، كما يشى بأنه كان علاجا لحالات نفسية قائمة فى صفوف المسلمين إذ ذاك – من غير المنافقين – وذلك إلى جانب حالات التفانى والتجرد والشجاعة والفداء التى اشتهرت بها الروايات . فقد كان فى الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء . وكان القرآن يعالج ويربى لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالى الكريم (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول – من بعد ما تبين لهم الهدى – لن يضروا الله شيئا ، وسيحبط أعمالهم) إنه قرار من الله مؤكد ، ووعد منه واقع:أن الذين كفروا ، ووقفوا فى وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ؛ وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل , وشاقوا الرسول ﷺ فى حياته بإعلان الحرب عليه ، والمخالفة عن طريقه ، والوقوف فى غير صفه . أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه والمتبعين لسنته والقائمين على دعوته . وذلك (من بعد ما تبين لهم الهدى) وعرفوا أنه الحق ؛ ولكنهم اتبعوا الهوى ، وجمح بهم العناد وأعماهم الغرض ، وقادتهم المصلحة العاجلة قرار من الله مؤكد ، ووعد من الله واقع أن هؤلاء (لن يضروا الله شيئا) وهم أضأل وأضعف من أن يذكروا فى مجال إلحاق ضرر بالله سبحانه وتعالى .

فليس هذا هو المقصود إنما المقصود أنهم لن يضروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته . ولن يحدثوا حدثا في نواميسه وسننه . مهما بلغ من قوتهم ، ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت . فإن هذا بلاء وقتى يقع بإذن الله لحكمة يريدها ؛ وليست ضرا حقيقيا لناموس الله وسنته ونظامه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه . والعاقبة مقررة (وسيحبط أعمالهم) فتنتهى إلى الخيبة والدمار . كما تنتهى الماشية التى ترعى ذلك النبات السام ! وفى ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول . . يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير ، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم) وهذا التوجيه يوحى بأنه كان فى الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة ; أو من تثقل عليه بعض التكاليف ، وتشق عليه بعض التضحيات ، التى يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التى تقف للإسلام , وتناوشه من كل جانب ؛ والتى تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربى يصعب فصمها والتخلى عنها نهائيا كما تقتضى العقيدة ذلك . ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفا عميقا فى نفوس المسلمين الصادقين ؛ فارتعشت له قلوبهم , وخافوا أن يقع منه ما يبطل أعمالهم ، ويذهب بحسناتهم . ثم بين الله لهم فى الآية التالية مصير الذين يشاقون رسول الله ﷺ ويخرجون عن طاعته , ثم يصرون على هذا ويذهبون من هذه الأرض كافرين (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم) فالفرصة متاحة فقط للمغفرة فى هذه الدنيا ؛ وباب التوبة يظل مفتوحا للكافر وللعاصى حتى يغرغر . فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة ، فقد ذهبت الفرصة التى لا تعود . ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار . فأما هؤلاء فهى نذارة لهم ليتداركوا أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب . وأما أولئك فهى تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب التى تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشؤوم ! ندرك هذا من ترتيب النهى عن الوهن والدعوة إلى السلم فى الآية التالية على ما ورد فى الآية السابقة من بيان لمصير الكافرين المشاقين (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم , وأنتم الأعلون والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم) فهذا هو الذى يحذر المؤمنين إياه ، ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين للرسول ، ليحذروا شبحه من بعيد ! وهذا التحذير يشى بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة ؛ وتهن عزائمهم دونه ؛ ويرغبون فى السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب . وربما كان بعضهم ذوى قرابة فى المشركين ورحم ، أو ذوى مصالح وأموال ؛ وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة . فالنفس البشرية هى هى ; والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها . وقد نجحت نجاحا خارقا . ولكن هذا لا ينفى أن تكون هناك رواسب فى بعض النفوس ، وبخاصة فى ذلك الوقت المبكر من العهد المدنى . وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب . فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس . فنحن فى حاجة إلى تحرى خطوات القرآن فى التربية . والنفوس هى النفوس (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . وأنتم الأعلون) أنتم الأعلون . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . أنتم الأعلون اعتقادا وتصورا للحياة . وأنتم الأعلون ارتباطا وصلة بالعلى الأعلى . وأنتم الأعلون منهجا وهدفا وغاية . وأنتم الأعلون شعورا وخلقا وسلوكا . . ثم . . أنتم الأعلون قوة ومكانا ونصرة . فمعكم القوة الكبرى (والله معكم) فلستم وحدكم . إنكم فى صحبة العلى الجبار القادر القهار . وهو لكم نصير حاضر معكم . يدافع عنكم . فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبذلون ، وكل ما تفعلون ، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم , لا يضيع منه شىء عليكم (ولن يتركم أعمالكم) ولن يقطع منها شيئا لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه . فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم ، من يقرر الله – سبحانه – له أنه الأعلى . وأنه معه . وأنه لن يفقد شيئا من عمله . فهو مكرم منصور مأجور ؟ هذه هى اللمسة الأولى . واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، التى قد يصيبهم بعض التضحيات فيها . وتوفية كاملة فى الآخرة للأجور مع عدم إبهاظهم ببذل المال مقابل هذه الأجور ! (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو . وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم) والحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى . حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها . ذلك المنهج الذى يجعلها مزرعة الآخرة ؛ ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذى يستحق وراثة الدار الباقية . وهذا هو الذى تشير إليه الفقرة التالية فى الآية (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) فالإيمان والتقوى فى الحياة الدنيا هو الذى يخرجها عن أن تكون لعبا ولهوا ؛ ويطبعها بطابع الجد ، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيوانى ، إلى مستوى الخلافة الراشدة ، المتصلة بالملأ الأعلى .. ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ، ولا يشق عليهم فى فرائضه وتكاليفه ، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة . وهو لا يكلف نفسا إلى وسعها وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم (إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ، ويخرج أضغانكم) وهذا النص يوحى بحكمة اللطيف الخبير ، كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس . ويكشف عن التقدير الدقيق فى تكاليف هذا الدين ، ومراعاته للفطرة ، وتناسقه مع بشرية البشر بكل استعداداتها ، وطاقاتها ، وأحوالها . وفى النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى

البذل فى سبيل الله ؛ ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية ، كما عالج شحها فى ذات النفس عند الجهاد (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله . فمنكم من يبخل) والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل فى كل بيئة . فهى تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشىء . وقد كان هذا واقعا ، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة ، وسجله القرآن فى مواضع أخرى . وقد حقق الإسلام فى هذا المجال مثلا تحسب من خوارق الأمثال فى البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء والقرآن يعالج هذا الشح فى هذه الآية (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد ، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون . فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور . فإذا بخلوا بالبذل ، فإنما يبخلون على أنفسهم ؛ وإنما يقللون من رصيدهم ؛ وإنما يستخسرون المال فى ذواتهم وأشخاصهم ؛ وإنما يحرمونها بأيديهم ! أجل . فالله لا يطلب إليهم البذل ، إلا وهو يريد لهم الخير ، ويريد لهم الوفر ، ويريد لهم الكنز والذخر . وما يناله شىء مما يبذلون ، وما هو فى حاجة إلى ما ينفقون (والله الغنى وأنتم الفقراء) فهو الذى أعطاكم أموالكم ، وهو الذى يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها . وهو الغنى عما أعطاكم فى الدنيا ، الغنى عن أرصدتكم المذخورة فى الآخرة . وأنتم الفقراء فى الدارين وفى الحالين . ففيم البخل إذن وفيم الشح ؟ وكل ما فى أيديكم ، وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله ، ومن فضل الله ؟ ثم الكلمة الأخيرة وهى فصل الخطاب . إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومن وعطاء . فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل ، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة ، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه . . فإن الله يسترد ، ما وهب ، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم) وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، وأحس بكرامته على الله ، وبمقامه فى هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهى العظيم .

سورة الفتح

مدنية ، و آياتها ٢٩

هذه السورة مدنية ، نزلت فى السنة السادسة من الهجرة ، عقب صلح الحديبية ؛ وهى تتناول هذا الحادث الخطير وملابساته ؛ وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها فى إبانه:فبين وقت نزولها ووقت نزول سورة "محمد" التى تسبقها فى ترتيب المصحف ، نحو من ثلاث سنوات ، تمت فيها تغيرات هامة وخطيرة فى أحوال الجماعة المسلمة فى المدينة . تغيرات فى موقفها وموقف المناوئين لها ، وتغيرات أهم فى حالتها النفسية وصفتها الإيمانية ، واستوائها على المنهج الإيمانى فى إدراك ونضج عميق . وقبل أن نتحدث عن السورة وجوها ودلالتها يحسن أن نمر بصورة للحادث الذى نزلت بصدده . لنعيش فى الجو الذى كان المسلمون يعيشون فيه ، وهم يتلقون هذا التنزيل الكريم :لقد أرى رسول الله ﷺ فى منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين . وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة ، حتى فى الأشهر الحرم التى يعظمها العرب كلهم فى الجاهلية ، ويضعون السلاح فيها ؛ ويستعظمون القتال فى أيامها ، والصد عن المسجد الحرام . حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون فى ظلال هذه الحرمة ، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع فى وجهه سيفا ، ولا يصده عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة فى هذا الشأن ؛ وصدوا رسول الله ﷺ والمسلمين معه طوال السنوات الست التى تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذى رأى فيه رسول الله ﷺ هذه الرؤيا . وحدث بها أصحابه - رضوان الله عليهم - فاستبشروا بها وفرحوا (يمكن الإطلاع على الأجواء التى تتحدث عنها السورة فى كتاب نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين) ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله ﷺ فرح لها قلبه الكبير فرحا عميقا (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا) كما جاء فى الافتتاح ، الامتنان على المؤمنين بالسكينة ، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب ، وعون السماء بجنود الله (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا - مع إيمانهم - ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما). . ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب:(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم ، وساءت مصيرا) ثم التنويه ببيعة رسول الله ﷺ واعتبارها بيعة لله ؛ وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق ، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحى الباقى الذى لا يموت (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت - قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم فى الحديبية - إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، فيفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال فى خواطرهم من سوء الظن بالله ، ومن توقع السوء للرسول ﷺ ومن معه . ويوجه الرسول ﷺ إلى ما ينبغى أن يكون موقفه منهم فى المستقبل . وذلك فى أسلوب يوحى بقوة المسلمين وضعف المخلفين ، كما يوحى بأن هنالك غنائم وفتوحا قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين (سيقول لك المخلفون من الأعراب:شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، قل:فمن يملك لكم من الله شيئا ، إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا) وفى هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا ، والمعفين من الجهاد لعجزهم عنه ، وهو العذر الوحيد: ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما . وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم ؛ حديثا كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ؛ وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية ، البائعة المتجردة . حديثا يتجلى فيهالله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته . ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض ، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون فى مكان بعينه:"تحت الشجرة " وأنه اطلع على

ما في نفوسهم . وأنه رضيهم ورضى عنهم ، وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح ، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود . وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما ...) ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ؛ ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدى أن يبلغ محله ، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام عنهم ؛ وفضله في ترضيتهم بما كان ، وإنزال سكينته في قلوبهم ، لأمر يراه ، وهو أعظم مما يرون . وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ...) وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر ، وتفردها بسمتها الخاصة ، وتنوه بها في الكتب السابقة:التوراة والإنجيل . وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم (محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) ومن سياق السورة وجوها ، وبالموازنة بينها وبين ايحاءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ؛ يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة ، في مدى السنوات الثلاث ، التي نرجح أنها تفرق بين السورتين في زمن النزول . ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن ، وفي رعاية النبوة . فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل . واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة ، وتجانست مستوياتها الإيمانية ، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ؛ ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال ؛ بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها ، وينهنه حدتها ، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء ، والمهادنة بعض الوقت ، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{١} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{٢} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{٣} هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً{٤} لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً{٥} وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً{٦} وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{٧} إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{٨} لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{٩} إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{١٠} سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{١١} بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً{١٢} وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً{١٣} وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{١٤} سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً{١٥} قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً{١٦} لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً){١٧}

(إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا) تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ فتح مبين . ومغفرة شاملة . ونعمة تامة . وهداية ثابتة . ونصر عزيز . . إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه . والاستسلام الراضي لإيحائه وإشارته . والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية . والثقة العميقة بالرعاية الحانية .

. يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها . وتبرك الناقة ، ويتصايح الناس : خلأت القصواء . فيقول . " ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلى أعطيتهم إياها " . ويسأله عمر بن الخطاب فى حمية:فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟فيجيبه ":أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى " . . ذلك وحين يشاع أن عثمان قتل يقول ﷺ " لا نبرح حتى نناجز القوم " . . ويدعو الناس إلى البيعة ، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا . وكان هذا هو الفتح ؛ إلى جانب الفتح الآخر الذى تمثل فى صلح الحديبية ، وما أعقبه من فتوح شتى فى صور متعددة: كان فتحا فى الدعوة . يقول الزهرى:فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين "بين صلح الحديبية وفتح مكة " مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر . قال ابن هشام:والدليل على قول الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربع مائة فى قول جابر بن عبد الله . ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف . وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وكان فتحا فى الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش ، فاتجه رسول الله ﷺ إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودى – بعد التخلص من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة – وكان هذا الخطر يتمثل فى حصون خيبر القوية التى تهدد طريق الشام . وقد فتحها الله على المسلمين ، وغنموا منها غنائم ضخمة ، جعلها الرسول ﷺ فيمن حضر الحديبية دون سواهم . وكان فتحا فى الموقف بين المسلمين فى المدينة وقريش فى مكة وسائر المشركين حولها ، ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة . فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الربانى عليه وعلى المؤمنين معه . فرح بالفتح المبين . وفرح بالمغفرة الشاملة ، وفرح بالنعمة التامة ، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم . وفرح بالنصر العزيز الكريم . وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال – فى رواية ":- نزل على البارحة سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها " . . وفى رواية:" لقد أنزلت على الليلة سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس " . . وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته . فاضت بالشكر فى صورة صلاة طويلة مديدة ، ذلك الافتتاح كان نصيب النبى ﷺ خاصة ؛ ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، و ما ادخره لهم فى الآخرة من غفران وفوز ونعيم (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم , وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال ؛ والسكينة حين ينزلها الله فى قلب ، تكون طمأنينة وراحة ، ويقينا وثقة ، ووقارا وثباتا ، واستسلاما ورضى . ولقد كانت قلوب المؤمنين فى هذا الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة . كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام ; ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت فى هذا العام ، بعد الإحرام ، وبعد إشعار الهدى وتقليده . كان هذا أمرا شاقا على نفوسهم ما فى ذلك ريب . وقد روى عن عمر – رضى الله عنه – أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج ، فكان مما قال له – غير ما أثبتناه فى صلب رواية الحادث –:أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ? قال أبو بكر – الموصول القلب بقلب رسول الله ﷺ الذى ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ﷺ بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال:لا . قال:فإنك تأتيه وتطوف به فتركه عمر – رضى الله عنه – إلى النبى ﷺ فقال له فيما قال: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال ﷺ :" بلى . أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ " قال:لا . قال رسول الله ﷺ :" فإنك آتيه ومطوف به " . . فهذه صورة مما كان يجيش فى القلوب . وكان المؤمنون ضيقى الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويأتى محمدا بغير إذن وليه . ومن حميتهم الجاهلية فى رد اسم الرحمن الرحيم . وفى رد صفة رسول الله ﷺ وقد روى أن عليا – رضى الله عنه – أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها ، فمحاها رسول الله بنفسه وهو يقول:" اللهم إنك تعلم أنى رسولك " .وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة ، يبدو هذا فى بيعتهم الإجماعية ; ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع . فلم يكن هينا على نفوسهم أن تنتهى الأمور إلى ما انتهت اليه . يبدو هذا فى تباطئهم فى النحر والحلق ، حتى قالها رسول الله ﷺ ثلاثا . وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامتثالا . كالذى حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود الثقفى . ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأو رسول الله يفعل هذا بنفسه ، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول ، وثابوا إلى الطاعة كالذى كان فى دهشة المأخوذ ! وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لا ينوون قتالا ، ولم يستعدوا له نفسيا ولا عمليا . ثم فوجئوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لعثمان ، وبإرسال النفر الذين رموا فى عسكر المسلمين بالنبل والحجارة . فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم .

ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له . وهو بعض ما كان يجيش فى قلوبهم من انفعالات وتأثرات . وهم ألف وأربعمائة وقريش فى دارها ، ومن خلفهم الأعراب والمشركون . ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان ، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ،ولا لجاهلية فيهم . فقد تفضل عليهم بهذه السكينة (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة , فيها الثقة التى لا تقلق ، وفيها الرضى المطمئن باليقين . ومن ثم يلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيرا ولا بعيدا ، بل كان هينا يسيرا على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنودا لا تحصى ولا تغلب , تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء (ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما) فهى حكمته وهو علمه ، تسير الأمور وفقهما كما يريد . وعن العلم والحكمة (أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) وإذا كان هذا فى حساب الله فوزا عظيما ، فهو فوز عظيم ! فوز عظيم فى حقيقته ، وفوز عظيم فى نفوس من ينالونه من عند الله مقدرا بتقديره ، موزونا بميزانه . . ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ؛ وكانوا قد تطلعوا بعدما سمعوا افتتاح السورة , وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله . تطلعوا إلى نصيبهم هم ، وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين . ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر فى هذا الحادث ؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فى صفة ظن السوء بالله ;وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين . وفى أنهم جميعا (عليهم دائرة السوء) فهم محصورون فيها ، وهى تدور عليهم وتقع بهم . وفى غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير . . ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءا ، بل إنها أحط ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات , وإن اختلف هذا الأذى وذاك فى مظهره ونوعه . وقد جمع الله فى الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده , وما أعده لهم فى النهاية . ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته (ولله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما) ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوها بوظيفته ، مبينا للغاية منها ، موجها المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم فى بيعتهم إلى الله مباشرة ,وعقد العقدة معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه . وفى ذلك تشريف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التى أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها ما أمر به , وأنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها المنافقون . وكان منها المصلحون ومنها المفسدون . فيؤدى الشهادة كما أدى الرسالة . وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المنقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين . هذه وظيفة الرسول . ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة . إنها الإيمان بالله ورسوله ، ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ، ويوقرونه فى نفوسهم بالشعور بجلاله ؛ وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفى النهار فى البكور والأصيل ، وهى كناية عن اليوم كله ، لأن طرفى النهار يضمان ما بينهما من آونة . والغرض هو اتصال القلب بالله فى كل آن . فهذه هى ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهدا ومبشرا ونذيرا . وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة – مهما غاب شخص رسول الله ﷺ فالله حاضر لا يغيب . والله آخذ فى هذه البيعة ومعط ، وهو عليها رقيب (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) فهو الخاسر فى كل جانب . هو الخاسر فى الرجاع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى . وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله , والله هو الغنى عن العالمين . وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذى يكرهه ويمقته , فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) هكذا على إطلاقه: أجرا عظيما . . لا يفصله ولا يحدده . فهو الأجر الذى يقول عنه الله إنه عظيم . عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذى لا يرتقى إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون الفانون ! وعندما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله , ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين

الخارجين ، الذاهبين إلى قريش فى عقر دارها ، وهى غزت المدينة قبل ذلك عامين متواليين . . يلتفت إليهم لينبى ء الرسول ﷺ عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالما هو ومن معه ، وقد هادنته قريش ولم تقاتله ، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها – مهما كانت شروطها – التراجع من قريش ، واعتبار محمد ﷺ ندا لها تهادنه وتتقى خصومته . ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين . كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه ؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة . ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم . فلا يقبل منهم الخروج معه فى هذا الوجه القريب الميسور الذى سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية . إنما ينبئهم بأن هنالك وجها آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولى بأس شديد . فإن كانوا حقا يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ ، حيث يقسم الله لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير ، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد ، والقرآن لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس ، وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيدا لعلاجها والطب لها . ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة , وقواعد الشعور والتصور والسلوك . فالمخلفون من الأعراب – وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة – سيقولون اعتذارا عن تخلفهم (شغلتنا أموالنا وأهلونا) وليس هذا بعذر . فللناس دائما أهل وأموال . ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها . . وسيقولون (فاستغفر لنا) وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار كما ينبىء الله رسوله ﷺ (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لا يدفعه تخلف ، ولا يغيره إقدام ؛ وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء . وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وفقه (قل:فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خبيرا) وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله ؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ . فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررا ، ولا يؤخر نفعا . وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله . ولا يؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه وفى مناسبته على طريقة القرآن (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا) وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين ، وجها لوجه أمام ما أضمروا من نية ، وما ستروا من تقدير , وما ظنوا بالله من السوء . وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن فى قلوبهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا فى سواه . وكان هذا هو ظن السوء بالله ، إن الميزان هو ميزان الإيمان . ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ؛ ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان ، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة ، والتمتع بمغفرة الله ورحمته (ومن لم يؤمن بالله ورسوله ، فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا . ولله ملك السماوات والأرض , يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما) لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم . فما تنفعهم أموالهم وأهلوهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين . فإن الله الذى يوعدهم هذا الإيعاد ، هو مالك السماوات والأرض وحده . فهو الذى يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذى يملك العذاب لمن يشاء . والله يجزى الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر فى القلوب . غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل ، فهذا الترتيب إختيار مطلق لهذه المشيئة . ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفا لظن المخلفين . بأسلوب يوحى بأنه قريب (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها:ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل:لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . فسيقولون:بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر . وقد يكون هذا . ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصا فى خيبر . فهو يوحى بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير . وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا ، فيقولون (ذرونا نتبعكم) ولعل الذى جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية . إذ كانت فى المحرم من سنة سبع . بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية . وأنها كانت وافرة الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر ما بقى لليهود فى الجزيرة من مراكز قوية غنية . وكان قد لجأ إليها بعض بنى النضير وبنى قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل . وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة فى الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد . ولم أجد فى هذا نصا . ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلا . فقد جعلها رسول الله ﷺ فى أصحاب الحديبية ، ولم يأخذ معه أحدا غيرهم . وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة . وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج (بل تحسدوننا) فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة .

ثم قرر أن قولهم هذا ناشىء عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره . فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا ، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله ، وأن يختصوا بالمغنم حين يقدره الله ، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام ، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة فى الجهاد . ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء ، يقاتلونهم على الإسلام ، فإذا نجحوا فى هذا الابتلاء كان لهم الأجر ، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير (قل للمخلفين من الأعراب:ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) وتختلف الأقوال كذلك فى من هم القوم أولو البأس الشديد . وهل كانوا على عهد رسول الله ﷺ أم على عهود خلفائه . والأقرب أن يكون ذلك فى حياة رسول الله ﷺ ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة . ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد , بلا حرج ولا عقاب: (ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما) فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد . والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ . والأمر فى حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان . هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية . فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه . ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره . ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه ، وبين راحة القعود وما وراءه . . ثم يختار !

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً{١٨} وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{١٩} وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً{٢٠} وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً{٢١} وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{٢٢} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{٢٣} وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً{٢٤} هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{٢٥} إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً{٢٦} لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً{٢٧} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً{٢٨} مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً){٢٩}

هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين . مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة . والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها , ويده فوق أيديهم فيها . تلك المجموعة التى سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله ﷺ (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم , فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) وسمعت رسول الله ﷺ يقول لها ": أنتم اليوم خير أهل الأرض " . حديث عنها من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ﷺ وحديث معها من الله سبحانه وتعالى:يبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح ؛ وما أحاطها به من رعاية وحماية فى هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها ؛ وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التى لا ينالها التبديل أبدا . ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديدا شديدا . ويكشف لها عن حكمته فى اختيار الصلح والمهادنة فى هذا العام . ويؤكد لها صدق الرؤيا التى رآها رسول الله ﷺ عن دخول المسجد الحرام . وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون . وأن دينه سيظهر على الدين كله فى الأرض جميعا . ويختم الدرس والسورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله ﷺ وصفتها فى التوراة وصفتها فى الإنجيل ، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما) وإننى لأحاول اليوم من وراء ألف واربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التى شهد فيها

الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين . أحاول أن أستشرف صفحة الوجود فى تلك اللحظة وضميره المكنون ؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك فى بقعة معينة من هذا الوجود . . وأحاول أن أستشعر بالذات شيئا من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم:لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذى كانوا فيه ، والهيئة التى كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى (إذ يبايعونك تحت الشجرة) يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق ، على لسان ربه العظيم الجليل . . يالله ! كيف تلقوا – أولئك السعداء – تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهى ؟ التبليغ الذى يشير إلى كل أحد ، فى ذات نفسه ، ويقول له:أنت . أنت بذاتك . يبلغك الله . لقد رضى عنك . وأنت تبايع . تحت الشجرة ! وعلم ما فى نفسك . فأنزل السكينة عليك ! إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع (الله ولى الذين آمنوا) فيسعد . يقول فى نفسه ألست أطمع أن أكون داخلا فى هذا العموم ؟ ويقرأ أو يسمع (إن الله مع الصابرين) فيطمئن . يقول فى نفسه ألست ارجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون . واحدا واحدا . أن الله يقصده بعينه وبذاته . ويبلغه:لقد رضى عنه ! وعلم ما فى نفسه . ورضى عما فى نفسه ! يا لله ! إنه أمر مهول ! (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة). . (فعلم ما فى قلوبهم . فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) علم ما فى قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم . وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم . وعلم ما فى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين . فانزل السكينة عليهم . بهذا التعبير الذى يرسم السكينة نازلة فى هينة وهدوء ووقار , تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، بردا وسلاما وطمأنينة وارتياحا (وأثابهم فتحا قريبا) هو هذا الصلح بظروفه التى جعلت منه فتحا ، وجعلته بدء فتوح كثيرة . قد يكون فتح خيبر واحدا منها . وهو الفتح الذى يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذى جعله الله للمسلمين (ومغانم كثيرة يأخذونها) . إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر . وإما تاليا له ، إن كان الفتح هو هذا الصلح ، الذى تفرغ به المسلمون لفتوح شتى (وكان الله عزيزا حكيما) وهو تعقيب مناسب للآيات قبله . ففى الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة ، كما تتجلى الحكمة والتدبير . وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهى الكريم . وبعد ذلك التبليغ العلوى الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم . الحديث عن هذا الصلح ، أو عن هذا الفتح ، الذى تلقوه صابرين مستسلمين (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها , وكان الله على كل شىء قديرا) وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها ، وعلموا أن الله أعد لهم مغانم كثيرة , وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذى لا يخلف ويمن الله عليهم بأنه كف أيدى الناس عنهم . وقد كف الله عنهم أيدى المشركين من قريش كما كف أيدى سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر . وهم قلة على كل حال , والناس كثرة . ولكنهم وفوا ببيعتهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدى الناس عنهم , وأمنهم (ولتكون آية للمؤمنين) هذا الوقعة التى كرهوها فى أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم . فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم ، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم . مما يثبت فى نفوسهم أنها شىء عظيم ، وخير جزيل , ويلقى السكينة فى قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين (ويهديكم صراطا مستقيما) . جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم . وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه ، والهداية يرزقونها . فيتم لهم الخير من كل جانب . فى الأمر الذى كرهوه واستعظموه . وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار ؛ ويربى قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال . كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه . لم يقدروا عليها بقوتهم ، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شىء قديرا) وتختلف الروايات فى هذه الأخرى . أهى فتح مكة ؟ أهى فتح خيبر ؟ أهى فتوح مملكتى كسرى وقيصر ؟ أهى فتوح المسلمين التى تلت هذه الوقعة جميعا ؟ وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هى فتح مكة . بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح . الذى لم يدم سوى عامين ، ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريبا . وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة ، والغنيمة التى قد أحاط الله بها ، وهم فى انتظارها ، يقرر لهم أنهم منصورون ؛ وأن الصلح فى هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف , أو لأن المشركين أقوياء . ولكنه تم لحكمة يريدها . ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا . فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون فى موقعة فاصلة (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا) وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التى لا تتبدل . فأية سكينة ? وأية ثقة ؟ وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون فى أنفسهم ؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية فى هذا الوجود ؟ وهى سنة دائمة لا تتبدل . ولكنها قد

تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التى يعرفها الله لهم . أو تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمته وأثره . أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله . ولكن السنة لا تتخلف . والله أصدق القائلين (ولن تجد لسنة الله تبديلا) كذلك يمن عليهم بكف أيدى المشركين عنهم ، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على من هاجموهم . مشيرا إلى ذلك الحادث الذى أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين . فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ﷺ (وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة . من بعد أن أظفركم عليهم . وكان الله بما تعملون بصيرا) وهو حادث وقع ، يعرفه السامعون ؛ والله يذكره لهم فى هذا الأسلوب ، ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر ؛ وليوقع فى قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهى تدبر لهم كل شىء ، (وكان الله بما تعملون بصيرا) ثم يحدثهم عن خصومهم ، من هم فى ميزان الله ؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام . وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين (هم الذين كفروا) يسجله عليهم كأنهم متفردون به ، عريقون فى النسبة إليه ، فهم أكره شىء إلى الله الذى يكره الكفر والكافرين ! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر , وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدى وتركه محبوسا عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع (وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله) وهى كبيرة فى الجاهلية وفى الإسلام . كبيرة فى الأديان كلها التى يعرفونها فى الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم . كريهة فى عرفهم وفى عقيدتهم وفى عقيدة المؤمنين . إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم) فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين فى مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية فى وسط المشركين . ولو دارت الحرب ، وهاجم المسلمون مكة ، وهم لا يعرفون أشخاصهم ، فربما وطأوهم وداسوهم وقتلوهم . فيقال:إن المسلمين يقتلون المسلمين ! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون . ثم هنالك حكمة أخرى وهى أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول فى رحمته ، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين فى القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم (ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره . ويمضى فى وصف الذين كفروا . وصف نفوسهم من الداخل . بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر(إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) حمية لا لعقيدة ولا لمنهج . إنما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله ﷺ ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدى الذى ساقوه ، أن يبلغ محله الذى ينحر فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة . كى لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته ؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تنتهك فى جاهلية ولا إسلام ! وقد جعل الله الحمية فى نفوسهم على هذا النحو الجاهلى ، لما يعلمه فى نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة , والتقوى (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . وألزمهم كلمة التقوى . وكانوا أحق بها وأهلها) والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة . المراقب لربه فى كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ؛ ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه . فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع . فى رضى وطمأنينة . ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى ، وكانوا أهلها . وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم . إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى . فهم قد استحقوها فى ميزان الله ، وبشهادته ؛ وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير (وكان الله بكل شىء عليما) ولقد مر بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله ﷺ قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام ؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام . فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا ، وينبئهم أنها منه ، وأنها واقعة ولا بد . وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضا (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق:لتدخلن المسجد الحرام – إن شاء الله – آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذى أرسل رسوله بالهدى) ودين الحق ليظهره على الدين كله , وكفى بالله شهيدا) فأما البشرى الأولى . بشرى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمنين , وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة ، لا يخافون . . فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد . ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية . إذ تم لهم فتح مكة ، وغلبة دين الله عليها . ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب

الإيمان ؛ وهو يقول لهم:" لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء الله - " . . فالدخول واقع حتم ، لأن الله أخبر به . ولكن المشيئة يجب أن تظل فى نفوس المسلمين فى صورتها الطليقة لا يقيدها شيء ، حتى تستقر هذه الحقيقة فى القلوب ، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية . والقرآن يتكئ على هذا المعنى ,ويقرر هذه الحقيقة ، ويذكر هذا الاستثناء فى كل موضع ، حتى المواضع التى يذكر فيها وعد الله . ووعد الله لا يخلف . ولكن تعلق المشيئة به أبدا طليق . إنه أدب يلقيه الله فى روع المؤمنين ، ليستقر منهم فى أعماق الضمير والشعور . وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ﷺ وتحقق وعد الله . ثم كان الفتح في العام الذى يليه . وظهر دين الله فى مكة . ثم ظهر فى الجزيرة كلها بعد . ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا) فلقد ظهر دين الحق ، لا فى الجزيرة وحدها ، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان . ظهر فى امبراطورية كسرى كلها ، وفى قسم كبير من امبراطورية قيصر , وظهر فى الهند وفى الصين ، ثم فى جنوب آسيا فى الملايو وغيرها ، وفى جزر الهند الشرقية "أندونيسيا . . "وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض فى القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادى . \وما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله - حتى بعد انحساره السياسى عن جزء كبير من الأرض التى فتحها ، وبخاصة فى أوربا وجزر البحر الأبيض . وانحسار قوة أهله فى الأرض كلها بالقياس إلى القوى التى ظهرت في الشرق والغرب فى هذا الزمان . فوعد الله قد تحقق فى الصورة السياسية الظاهرة قبل مضى قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية . ووعد الله ما يزال متحققا فى الصورة الموضوعية الثابتة ؛ وما يزال هذا الدين ظاهرا على الدين كله فى حقيقته . بل إنه هو الدين الوحيد الباقى قادرا على العمل ,والقيادة ، فى جميع الأحوال . ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم ! فغير أهله يدركونها ويخشونها ، ويحسبون لها فى سياساتهم كل حساب ! والآن نجيء إلى ختام السورة . ختامها بتلك الصورة الوضيئة التى يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التى رضى الله عنها ، وبلغها رضاه فردا فردا (محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة . ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع . صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة . فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ولقطة تصور هيئتهم فى عبادتهم (تراهم ركعا سجدا) ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلي الله فى سمتهم وسحنتهم وسماتهم (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) (ذلك مثلهم فى التوراة) وهذه صفتهم فيها ولقطات متتابعة تصورهم كما هم فى الإنجيل . . (كزرع أخرج شطأه)(فآزره). (فاستغلظ) (فاستوى على سوقه) (يعجب الزراع) (ليغيظ بهم الكفار) وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد ﷺ صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين) :محمد رسول الله). . ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع . والمؤمنون لهم حالات شتى . ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة فى حياتهم ، ونقط الإرتكاز الأصيلة فى هذه الحياة . وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة فى الصور الوضيئة . . وإرادة التكريم واضحة فى اختيار هذه اللقطات ، وتثبيت الملامح والسمات التى تصورها . التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة . إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم فى اللقطة الأولى أنهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا . رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين . فهى الشدة لله والرحمة لله . وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة (تراهم ركعا سجدا) والتعبير يوحى كأنما هذه هيئتهم الدائمة التى يراها الرائى حيثما رآهم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهى الحالة الأصيلة لهم فى حقيقة نفوسهم ؛ فعبر عنها تعبيرا يثبتها كذلك فى زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا . واللقطة الثالثة مثلها . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فهذه هى صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة . كل ما يشغل بالهم , وكل ما تتطلع إليه أشواقهم ، هو فضل الله ورضوانه . ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر فى ملامحهم ، ونضحها على سماتهم (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحى الوضيء اللطيف . وليست هذه السيما هى النكتة المعروفة فى الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله: (من أثر السجود) فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة . واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله فى أكمل صورها . فهو أثر هذا الخشوع . أثره فى ملامح الوجه ،

حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة . ويحل مكانها التواضع النبيل , والشفافية الصافية ، والوضاءة الهادئة ، والذبول الخفيف الذى يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا . وهذه الصورة الوضيئة التى تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدر ؛ ومن ثم فهى قديمة جاء ذكرها فى التوراة (ذلك مثلهم فى التوراة) وصفتهم التى عرفهم الله بها فى كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها (ومثلهم فى الإنجيل) وصفتهم فى بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم (كزرع أخرج شطأه) فهو زرع نام قوى ، يخرج فرخه من قوته وخصوبته . ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده (فآزره) أو أن العود آزر فرخه فشده ((فاستغلظ) الزرع وضخمت ساقه وامتلأت (فاستوى على سوقه) لا معوجا ومنحنيا . ولكن مستقيما قويا سويا هذه صورته فى ذاته . فأما وقعه فى نفوس أهل الخبرة فى الزرع ، العارفين بالنامى منه والذابل . المثمر منه والبائر . فهو وقع البهجة والإعجاب (يعجب الزراع) وفى قراءة يعجب (الزارع) وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامى القوى المخصب البهيج . . وأما وقعه فى نفوس الكفار فعلى العكس . فهو وقع الغيظ والكمد (ليغيظ بهم الكفار) وتعمد إغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هيزرعة الله . أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله ! وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا ، فهو ثابت فى صفحة القدر . ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجىء محمد ومن معه إلى هذه الأرض . ثابت فى الإنجيل فى بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون . وفوق هذا التكريم كله ، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) وهو وعد يجىء فى هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم ، التى تجعلهم أول الداخلين فى هذه الصيغة العامة . مغفرة وأجر عظيم . . وذلك التكريم وحده حسبهم . وذلك الرضى وحده أجر عظيم . ولكنه الفيض الإلهى بلا حدود ولا قيود ، والعطاء الإلهى عطاء غير مجذوذ . ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنا أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم . وهم يتلقون هذا الفيض الإلهى من الرضى والتكريم والوعد العظيم . وهم يرون أنفسهم هكذا فى اعتبار الله ، وفى ميزان الله ، وفى كتاب الله . وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم . وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم . وينظر بعضهم فى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التى يحسها هو فى كيانه . وأحاول أن أعيش معهم لحظات فى هذا المهرجان العلوى الذى عاشوا فيه . . ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه . إلا من بعيد ؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم:فيقرب له البعيد ؟! فاللهم إنك تعلم أننى أتطلع لهذا الزاد الفريد !!!

سورة الحجرات

مدنية ، و آياتها ١٨

تبدأ هذه السورة بموضوع الأدب مع الله ، ومع رسول الله ﷺ . يتمثل هذا الأدب فى إدراك حدود العبد أمام الرب ، والرسول الذى يبلغ عن الرب (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله ، إن الله سميع عليم) فلا يسبق العبد المؤمن إلهه فى أمر أو نهى ، ولا يقترح عليه فى قضاء أو حكم ؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ; ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه . . تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدبا . . وله أدب خاص فيه خطاب رسول الله ﷺ وتوقيره (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى . ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون , ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم) وهو عالم له منهجه فى التثبت من الأقوال والأفعال ، والاستيثاق من مصدرها ، قبل الحكم عليها . يستند هذا المنهج إلى تقوى الله ، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله , فى غير ما تقدم بين يديه ، ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ; واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم . ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم) وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية فى مواجهة ما يقع فيه من خلاف وفتن وقلاقل واندفاعات , تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج . وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين ، ومن حقيقة العدل والإصلاح ، ومن تقوى الله والرجاء فى رحمته ورضاه (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم , واتقوا الله لعلكم ترحمون) وهو عالم له آدابه النفسية فى مشاعره تجاه بعضه البعض ؛ وله آدابه السلوكية فى معاملاته بعضه مع بعض (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ; ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ؛ ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم:الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وهو عالم نظيف المشاعر ، مكفول الحرمات ، مصون الغيبة والحضرة ، لا يؤخذ فيه أحد بظنة , ولا تتبع فيه العورات ، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحريتهم فيه لأدنى مساس) :يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب ; وله ميزانه الواحد الذى يقوم به الجميع . إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير) والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التى تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، تحدد معالم الإيمان ، الذى باسمه دعى المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم . وباسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذى يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل ، الحافز إلى التلبية والتسليم: يا أيها الذين آمنوا . . ذلك النداء الحبيب الذى يخجل من يدعى به من الله أن لا يجيب ؛ والذى ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة , ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب (قالت الأعراب:آمنا . قل:لم تؤمنوا ، ولكن قولوا:أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل:أتعلمون الله بدينكم ، والله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، والله بكل شىء عليم) وتكشف السورة فى ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر . هبة الإيمان التى يمن بها على من يشاء ، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق (يمنون عليك أن أسلموا . قل:لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون) فأما الأمر الثانى الذى يبرز للنظر من خلال السورة ، ومن مراجعة المناسبات الواقعية التى صاحبت نزول آياتها ، فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد ، الذى تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة ، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة , التى تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، الذى وجدت حقيقته يوما على هذه الأرض ؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية ، ولا حلما طائرا ، يعيش فى الخيال ! هذه الجماعة المثالية التى تمثلت حقيقة واقعة فى فترة من

فترات التاريخ لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة ؛ ولم تخلق بين يوم وليلة . كذلك لم تظهر نتيجة نفحة تغير طبائع الأشياء كلها في لحظة أو ومضة . بل نمت نموا طبيعيا بطيئا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور . وأخذت الزمن اللازم لنموها ، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضرورى لهذا النمو . واحتاجت إلى العناية الساهرة ، والصبر الطويل ، والجهد البصير فى التهذيب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتثبيت . واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية ؛ مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات . . وفى هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة – على علم – لحمل هذه الأمانة الكبرى ؛ وتحقيق مشيئة الله بها فى الأرض . وذلك مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكنونة فى ذلك الجيل ؛ وفى الظروف والأحوال المهيأة له على السواء . . وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية ؛ ووجدت هذه الحقيقة التى تتراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف فى قلب ، أو رؤيا مجنحة فى خيال !

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{٢} إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ{٣} إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{٤} وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ{٥} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ{٦} وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ{٧} فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٨} وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{٩} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{١٠} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{١١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ{١٢} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{١٣} قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ{١٤} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{١٥} قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{١٦} يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ{١٧} إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ){١٨}

تبدأ السورة بأول نداء حبيب ، وأول استجاشة للقلوب (يا أيها الذين آمنوا) نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب . واستجاشة لقلوبهم بالصفة التى تربطهم به ، وتشعرهم بأنهم له ، وأنهم يحملون شارته ، وأنهم فى هذا الكوكب عبيده وجنوده ، وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده ، وأنه حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم اختيارا لهم ومنة عليهم ، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا ، وأن يقفوا بين يدى الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه فى نفسه وفى غيره ، يفعل ما يؤمر ويرضى بما يقسم ، ويسلم ويستسلم(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم) يا أيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا ، لا فى خاصة أنفسكم ، ولا فى أمور الحياة من حولكم . ولا تقولوا فى أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا فى أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله . فهو أدب نفسى مع الله ورسوله . وهو منهج فى التلقى والتنفيذ . وهو أصل من أصول التشريع والعمل فى الوقت ذاته . . وهو منبثق من تقوى الله ، وراجع إليها . هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم . . وكل ذلك فى آية واحدة قصيرة ، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصلية الكبيرة . وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم ؛ فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله ; وما عاد واحد منهم يدلى برأى لم يطلب منه رسول الله ﷺ أن يدلى به ؛ وما عاد أحد منهم يقضى برأيه فى أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . . وحتى لكأن رسول الله ﷺ يسألهم عن اليوم الذى هم فيه ، والمكان الذى هم فيه ، وهم يعلمونه حق العلم ، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم:الله ورسوله أعلم . خشية أن يكون فى قولهم تقدم

بين يدى الله ورسوله ! جاء فى حديث أبى بكرة نفيع بن الحارث الثقفى – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ سأل فى حجة الوداع: أى شهر هذا ؟" . . قلنا:الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال:" أليس ذا الحجة ؟ " قلنا بلى ! قال:" أى بلد هذا ؟ " قلنا:الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال:" أليس البلدة الحرام ؟ " قلنا:بلى ! قال:" فأى يوم هذا ؟" قلنا:الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال:أليس يوم النحر ؟ قلنا بلى ! . . الخ فهذه صورة من الأدب ، ومن التحرج ، ومن التقوى ، التى انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء ، وذلك التوجيه ، وتلك الإشارة إلى التقوى ، تقوى الله السميع العليم . والأدب الثانى هو أدبهم مع نبيهم فى الحديث والخطاب ؛ وتوقيرهم له فى قلوبهم ، توقيرا ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ؛ ويميز شخص رسول الله بينهم ، ويميز مجلسه فيهم ; والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب ؛ ويحذرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) يا أيها الذين آمنوا . . ليوقروا النبى الذى دعاهم إلى الإيمان . . أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . . ليحذروا هذا المزلق الذى قد ينتهى بهم إلى حبوط أعمالهم , وهم غير شاعرين ولا عالمين ، ليتقوه ! ولقد عمل فى نفوسهم ذلك النداء الحبيب ، وهذا التحذير المرهوب ، عمله العميق الشديد ، فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب ، وذلك التحذير الرعيب ؛ وهكذا تأدبوا فى حضرة رسول الله ﷺ خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون . ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم ! ولكن هذا المنزلق الخافى عليهم كان أخوف عليهم ، فخافوه واتقوه ! ونوه الله بتقواهم ، وغضهم أصواتهم عند رسول الله ﷺ فى تعبير عجيب (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . لهم مغفرة وأجر عظيم) فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب ، بعد امتحان واختبار ، وبعد تخليص وتمحيص , فلا يضعها فى قلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها . والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهيأها لتلقى تلك الهبة . هبة التقوى . وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم . وعرف علماء هذه الأمة وقالوا:إنه يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره فى حياته ﷺ احتراما له فى كل حال . ثم أشار إلى حادث وقع من وفد بنى تميم حين قدموا على رسول الله ﷺفى العام التاسع . الذى سمى "عام الوفود" . . لمجيء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة ، ودخولهم فى الإسلام ، وكانوا أعرابا جفاة ، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبى ﷺ المطلة على المسجد النبوى الشريف:يا محمد . اخرج لنا . فكره النبى ﷺ هذه الجفوة وهذا الإزعاج . فنزل قوله تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم) فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون . وكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبى ﷺ وحرمة رسول الله القائد والمربى . وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم . وحبب إليهم التوبة والإنابة ، ورغبهم فى المغفرة والرحمة ... كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقى . وكان النداء الثانى لتقرير ما ينبغى من أدب للقيادة وتوقير . وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات فى السورة . فلا بد من وضوح المصدر الذى يتلقى عنه المؤمنون ، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها ، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها . ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ، ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب . وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة فى كل ما ينقله أفرادها من أنباء ، فيقع ما يشبه الشلل فى معلوماتها . فالأصل فى الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها ، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذا بها . فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره . وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء . ولا تعجل الجماعة فى تصرف بناء على خبر فاسق . فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع . فتندم على ارتكابها ما يغضب الله ، ويجانب الحق والعدل فى اندفاع . وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط قال مجاهد وقتادة:أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق يتصدقهم فتلقوه بالصدقة , فرجع فقال:إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك – زاد قتادة وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام – فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد – رضى الله عنه – إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلا ، فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالدا – رضى الله عنه – أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم , فلما أصبحوا أتاهم خالد – رضى الله عنه – فرأى الذى يعجبه ؛ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة . قال قتادة:فكان رسول الله ﷺ يقول:" التثبت من الله والعجلة من الشيطان " . . ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق ؛ فأما الصالح فيؤخذ بخبره ، لأن هذا هو الأصل فى الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء . والأخذ بخبر الصالح

جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره . أما الشك المطلق فى جميع المصادر وفى جميع الأخبار ، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها فى الجماعة . والإسلام يدع الحياة تسير فى مجراها الطبيعى ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء . وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء فى مصادر الأخبار (واعلموا أن فيكم رسول الله) الله – جل جلاله – ينبئ رسوله بما وقع ، ويوجهه لما يفعل وما يقول فى هذا الذى وقع . . إنه لأمر . وإنه لنبأ عظيم . وإنها لحقيقة هائلة . قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه . ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب (واعلموا أن فيكم رسول الله) اعلموا هذا وقدروه حق قدره ، فهو أمر عظيم . ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدى الله ورسوله . ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحا وقوة ، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله ﷺ لهم بوحى الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر . وأنه لو أطاعهم فيما يعن لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر . فالله أعرف منهم بما هو خير لهم ، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار (لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) وفى هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله ، وأن يدخلوا فى السلم كافة ، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره ، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه . ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذى هداهم إليه ، وحرك قلوبهم لحبه ، وكشف لهم عن جماله وفضله ، وعلق أرواحهم به ؛ وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية ، وكان هذا كله من رحمته وفيضه (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ؛ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) واختيار الله لفريق من عباده ، ليشرح صدورهم للإيمان ، ويحرك قلوبهم إليه ، ويزينه لهم فتهفو إليه أرواحهم ، وتدرك ما فيه من جمال وخير . . هذا الاختيار فضل من الله ونعمة ، دونها كل فضل وكل نعمة . حتى نعمة الوجود والحياة أصلا ، تبدو فى حقيقتها

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات . تأتى تعقيبا على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة ، قبل التثبت والاستيقان . وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أم كان تشريعا لتلافى مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق . ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان فى هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح . والقرآن قد واجه – أو هو يفترض – إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين . ويستبقى لكلتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن إحداهما قد تكون باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتاهما باغية فى جانب من الجوانب . وهو يكلف الذين آمنوا – من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعا – أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين . فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق – ومثله أن تبغيا معا برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله فى المسائل المتنازع عليها – فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله . وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين ، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى إلى الخصام والقتال . فإذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلبا لرضاه (إن الله يحب المقسطين) ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم ، والتى جمعتهم بعد تفرق ، وألفت بينهم بعد خصام ؛ وتذكيرهم بتقوى الله ,والتلويح لهم برحمته التى تنال بتقواه (إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هى الأصل فى الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذى يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه ؛ وأن يستباح فى سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو إجراء صارم وحازم كذلك (يا أيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيرا منهم ؛ ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم:الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) إن المجتمع الفاضل الذى يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التى لا تمس . وهى من كرامة المجموع . ولمز أى فرد هو لمز لذات النفس ، لأن الجماعة كلها وحدة ، كرامتها واحدة . والقرآن فى هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب: يا أيها الذين آمنوا . وينهاهم أن يسخر قوم بقوم ، أى رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن فى ميزان الله . وفى التعبير إيحاء خفى بأن القيم الظاهرة التى يراها الرجال فى أنفسهم ويراها النساء فى أنفسهن ليست هى القيم الحقيقية ، التى يوزن بها الناس . فهناك

قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمها الله ، ويزن بها العباد ولكن القرآن لا يكتفى بهذا الإيحاء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها (ولا تلمزوا أنفسكم) واللمز هو العيب . ولكن للفظة جرسا وظلا ؛ فكأنما هى وخزة حسية لا عيبة معنوية ! ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التى يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيبا . ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزرى به . ومن أدب المؤمن ألا يؤذى أخاه بمثل هذا . وقد غير رسول الله ﷺ أسماء وألقابا كانت فى الجاهلية لأصحابها ، أحس فيها بحسه المرهف ، وقلبه الكريم ، بما يزرى بأصحابها ، أو يصفهم بوصف ذميم . والآية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية فى ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، بل شعور الاندماج فى نفس واحدة ، تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز (بئس الاسم:الفسوق بعد الإيمان) فهو شىء يشبه الارتداد عن الإيمان ! وتهدد باعتبار هذا ظلما ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وبذلك تضع قواعد الأدب النفسى لذلك المجتمع الفاضل الكريم (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم) فأما هذه الآية فتقيم سياجا آخر فى هذا المجتمع الفاضل الكريم ، حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم ، بينما هى تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم ، فى أسلوب مؤثر عجيب . وتبدأ - على نسق السورة - بذلك النداء الحبيب: يا أيها الذين آمنوا . . ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن ، فلا يتركوا نفوسهم نهبا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك . وتعلل هذا الأمر (إن بعض الظن إثم) وما دام النهى منصبا على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلا ، لأنه لا يدرى أى ظنونه تكون إثما ! بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء ، فيقع فى الإثم ؛ ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك ، يكن لإخوانه المودة التى لا يخدشها ظن السوء ; والبراءة التى لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التى لا يعكرها القلق والتوقع . وما أروح الحياة فى مجتمع برىء من الظنون !

ولكن الأمر لا يقف فى الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضىء فى تربية الضمائر والقلوب . بل إن هذا النص يقيم مبدأ فى التعامل ، وسياجا حول حقوق الناس الذين يعيشون فى مجتمعه النظيف ، فلا يؤخذون بظنة ، ولا يحاكمون بريبة ؛ ولا يصبح الظن أساسا لمحاكمتهم . بل لا يصح أن يكون أساسا للتحقيق معهم ، ولا للتحقيق حولهم

ثم يستطرد فى ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون (ولا تجسسوا) والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن ؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات ، والاطلاع على السوءات . والقرآن يقاوم هذا العمل الدنىء من الناحية الأخلاقية ، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوآتهم . وتمشيا مع أهدافه فى نظافة الأخلاق والقلوب . ولكن الأمر أبعد من هذا أثرا . فهو مبدأ من مبادىء الإسلام الرئيسية فى نظامه الاجتماعى ، وفى إجراءاته التشريعية والتنفيذية . إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال . ففى المجتمع الإسلامى الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح فى النظام الإسلامى ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم . وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو يتوقع ، أو حتى يعرف أنهم يزاولون فى الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضبطهم ! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التى ينص عليها بالنسبة لكل جريمة . بعد ذلك يجىء النهى عن الغيبة فى تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعا (ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه) ثم يعرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية . مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . ميتا ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب ! ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه فى الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى ، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة (واتقوا الله إن الله تواب رحيم) ويسرى هذا النص فى حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس ، وإلى أدب عميق فى النفوس والقلوب . ويتشدد فيه رسول الله ﷺ متمشيا مع الأسلوب القرآنى العجيب فى إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض ... وبعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق ، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها ، ليردها إلى أصل

واحد ، وإلى ميزان واحد ، هو الذى تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناسا وألوانا ، المتفرقون شعوبا وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددا . يا أيها الناس . والذى يناديكم هذا النداء هو الذى خلقكم . من ذكر وأنثى . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هى التعارف والوئام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضى النزاع والشقاق ، بل يقتضى التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعانى من حساب فى ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والكريم حقا هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين (إن الله عليم خبير) وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر فى الميزان . وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية فى كل صورها وأشكالها ، ليقيم نظامه الإنسانى العالمى فى ظل راية واحدة:راية الله . . لا راية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت . ولا راية الجنس . فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام . وفى ختام السورة تأتى المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ، فى الرد على الأعراب الذين قالوا (آمنا) وهم لا يدركون حقيقة الإيمان . والذين منوا على رسول الله ﷺ أنهم أسلموا وهم لا يقدرون منة الله على عباده بالإيمان (قالت الأعراب: آمنا . قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم) قيل:إنها نزلت فى أعراب بنى أسد . قالوا:آمنا . أول ما دخلوا فى الإسلام . ومنوا على رسول الله ﷺ قالوا:يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك . فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم فى نفوسهم وهم يقولون هذا القول . وأنهم دخلوا فى الإسلام استسلاما ، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان . فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر فى قلوبهم . ولم تشربها أرواحهم (قل:لم تؤمنوا . ولكن قولوا:أسلمنا . ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئا . فهذا الإسلام الظاهر الذى لم يخالط القلب فيستحيل إيمانا واثقا مطمئنا . هذا الإسلام يكفى لتحسب لهم أعمالهم الصالحة فلا تضيع كما تضيع أعمال الكفار . ولا ينقص من أجرها شيء عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا) ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة ، فيقبل من العبد أول خطوة ، ويرضى منه الطاعة والتسليم إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة (إن الله غفور رحيم) ثم بين لهم حقيقة الإيمان (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون) فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذى لا يرد عليه شك ولا ارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذى لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ,ولا يتلجلج فيه القلب والشعور . والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب . فى واقع الحياة . فى دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره فى باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به فى ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة . ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التى فى حسه ، والصورة الواقعية من حوله . لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه فى كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتى من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التى فى قلبه ، ليراها ممثلة فى واقع الحياة والناس والخصومة (أولئك هم الصادقون) الصادقون فى عقيدتهم . الصادقون حين يقولون:إنهم مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر فى القلب ، ولم تتحقق آثارها فى واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق . والصدق فى العقيدة وفى ادعائها لا يكون . ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها ؛ وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها (قل:أتعلمون الله بدينكم ؟) والإنسان يدعى العلم ، وهو لا يعلم نفسه ، ولا ما يستقر فيها من مشاعر ، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ؛ فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل ، لأنه لا يملك مراقبة نفسه فى أثناء عمله . وحين يراقب نفسه يكف عن عمله الطبيعى ، فلا يبقى هناك ما يراقبه ! وحين يعمل عمله الطبيعى لا يملك أن يشغل فى الوقت ذاته بالمراقبة ! ومن ثم فهو عاجز عن معرفة خاصة ذاته وعن معرفة طريقة عمله ! وهو هو الأداة التى يتطاول بها الإنسان ! (والله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض) علما حقيقيا . لا بظواهرها وآثارها . ولكن بحقائقها وماهياتها . وعلما شاملا محيطا غير محدود ولا موقوت (والله بكل شيء عليم) بهذا الإجمال الشامل المحيط . وبعد بيان حقيقة الإيمان التى لم يدركوها ولم يبلغوها ، يتوجه إلى الرسول ﷺ بالخطاب عن منهم عليه بالإسلام ؛ وهذا المن ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد فى تلك القلوب ، وأن

حلاوة الإيمان لم تكن بعد قد تذوقتها تلك الأرواح (يمنون عليك أن أسلموا . قل:لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان , إن كنتم صادقين) لقد منوا بالإسلام ، وزعموا الإيمان . فجاءهم الرد أن لا يمنوا بالإسلام ، وأن المنة لله عليهم لو صدقوا فى دعوى الإيمان . إن الإيمان هو كبرى المنن التى ينعم بها الله على عبد من عباده فى الأرض . إنه أكبر من منة الوجود الذى يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع . إنها المنة التى تجعل للوجود الإنسانى حقيقة مميزة ؛ وتجعل له فى نظام الكون دورا أصيلا عظيما (إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون) والذى يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس ، ومكنون الضمائر ، وحقائق الشعور ويبصر ما يعمله الناس ، فلا يستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ؛ ولكن من مشاعر تجيش فى قلوبهم ، وأعمال تصدق ما يجيش فى القلوب . .

سورة ق

مكية ، و آياتها ٤٥

كان رسول الله ﷺ يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة ؛ فيجعلها هى موضوع خطبته ومادتها ، في الجماعات الحافلة . . وإن لها لشأنا . . إنها سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيرى ، وصورها وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها ، وتتعقبها في سرها وجهرها ، وفي باطنها وظاهرها . تتعقبها برقابة الله ، التى لا تدعها لحظة واحدة من المولد ، إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهى رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الإنسانى الضعيف إطباقا كاملا شاملا . فهو فى القبضة التى لا تغفل عنه أبدا ، ولا تغفل من أمره دقيقا ولا جليلا ، ولا تفارقه كثيرا ولا قليلا . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب , كما هى مضروبة على حركة الجوارح . ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة , المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة ، في كل وقت وفى كل حال . وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض فى الأسلوب الذى يبديها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة ؛وتهز النفس هزا ، وترجها رجا ، وتثير فيها رعشة الخوف , وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب ! وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ، وصور الحشر . وإلى إرهاص الساعة في النفس وتوقعها فى الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية فى السماء والأرض ، وفى الماء والنبت ، وفى الثمر والطلع (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف ، وحكاية الحقائق والمعانى والصور والظلال ، فى غير أسلوبها القرآنى الذى وردت فيه ؛ وفى غير عبارتها القرآنية التى تشع بذاتها تلك الحقائق والمعانى والصور والظلال ، إشعاعا مباشرا للحس والضمير .

(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ{١} بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ{٢} أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ{٣} قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ{٤} بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ{٥} أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ{٦} وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ{٧} تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ{٨} وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ{٩} وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ{١٠} رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ{١١} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ{١٢} وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ{١٣} وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ{١٤} أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ{١٥} وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ{١٦} إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ{١٧} مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ{١٨} وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ{١٩} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ{٢٠} وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ{٢١} لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ{٢٢} وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ{٢٣} أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ{٢٤} مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ{٢٥} الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ{٢٦} قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ{٢٧} قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ{٢٨} مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ{٢٩} يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ{٣٠} وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ{٣١} هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ{٣٢} مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ{٣٣} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ{٣٤} لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ{٣٥} وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ{٣٦} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ{٣٧} وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ{٣٨} فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ{٣٩} وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ{٤٠} وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ{٤١} يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ{٤٢} إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ{٤٣} يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ{٤٤} نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) {٤٥}

فلنأخذ فى استعراض السورة بذاتها . . والله المستعان . .

المقطع الأول فى السورة يعالج قضية البعث ، وإنكار المشركين له ، وعجبهم من ذكره والقول به . ولكن القرآن لا يواجه إنكارهم لهذه القضية فيعالجه وحده . إنما هو يواجه قلوبهم المنحرفة ليردها أصلا إلى الحق ، ويقوم ما فيها من عوج ؛ ويحاول قبل كل شىء إيقاظ هذه القلوب وهزها لتتفتح على الحقائق الكبيرة فى صلب هذا الوجود . ومن ثم لا يدخل معهم فى جدل ذهنى لإثبات البعث . وإنما يحيى قلوبهم لتتفكر هى وتتدبر ، ويلمس وجدانهم ليتأثر بالحقائق المباشرة من حوله فيستجيب . . وهو درس يحسن أن ينتفع به من يحاولون علاج القلوب ! وتبدأ السورة بالقسم . القسم بالحرف (قاف) وبالقرآن المجيد ، المؤلف من مثل هذا الحرف . بل إنه هو أول حرف فى لفظ "قرآن" ولا يذكر المقسم عليه . فهو قسم فى ابتداء الكلام ، يوحى بذاته باليقظة والاهتمام . فالأمر جلل ، والله يبدأ الحديث بالقسم ، فهو أمر إذن له خطر . ولعل هذا هو المقصود بهذا الابتداء . إذ يضرب بعده بحرف (بل) عن المقسم عليه – بعد أن أحدث القسم أثره فى الحس والقلب – ليبدأ حديثا كأنه جديد عن عجبهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم فى القرآن المجيد من أمر البعث والخروج (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون:هذا شىء عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد) بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وما فى هذا من عجب . بل هو الأمر الطبيعى الذى تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب . الأمر الطبيعى أن يختار الله من الناس واحدا منهم ، يحس بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ، ويتكلم بلغتهم ، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم , ويدرك دوافعهم وجواذبهم ، ويعرف طاقاتهم واحتمالهم ، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلوا فيما هم فيه ؛ ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح ؛ ويبلغهم التكاليف التى يفرضها الاتجاه الجديد ، وهو معهم أول من يحمل هذه التكاليف . ولقد عجبوا من الرسالة ذاتها ، وعجبوا – بصفة خاصة – من أمر البعث الذى حدثهم عنه هذا المنذر أول ما حدثهم . فقضية البعث قاعدة أساسية فى العقيدة الإسلامية . قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلى لمقتضيات هذه العقيدة . ولكن أولئك القوم لم ينظروا للمسألة من هذا الجانب أصلا . إنما نظروا إليها من جانب آخر ساذج شديد السذاجة ، بعيد كل البعد عن إدراك حقيقة الحياة والموت ، وعن إدراك أى طرف من حقيقة قدرة الله . فقالوا (أئذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد)! غير أننا قبل أن نمضى مع لمسات القرآن وآياته الكونية فى معرض الحياة ، نقف أمام لمسة البلى والدثور التى تتمثل فى حكاية قولهم والتعليق عليه (أإذا متنا وكنا ترابا . . . ؟) وإذن فالناس يموتون . وإذن فهم يصيرون ترابا . وكل من يقرأ حكاية قول المشركين يلتفت مباشرة إلى ذات نفسه ، وإلى غيره من الأحياء حوله . يلتفت ليتصور الموت والبلى والدثور . بل ليحس دبيب البلى فى جسده وهو بعد حى فوق التراب ! وما كالموت يهز قلب الحى ، وليس كالبلى يمسه بالرجفة والارتعاش . والتعقيب يعمق هذه اللمسة ويقوى وقعها ؛ وهو يصور الأرض تأكل منهم شيئا فشيئا (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ) لكأنما التعبير يجسم حركة الأرض ويحييها وهى تذيب أجسادهم المغيبة فيها ، وتأكلها رويدا رويدا . ويصور أجسادهم وهى تتآكل باطراد وتبلى . ليقول:إن الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم ، وهو مسجل فى كتاب حفيظ ؛ فهم لا يذهبون ضياعا إذا ماتوا وكانوا ترابا . أما إعادة الحياة إلى هذا التراب ، فقد حدثت من قبل ، وهى تحدث من حولهم فى عمليات الإحياء المتجددة التى لا تنتهى . وهكذا تتوالى اللمسات التى تذيب القلوب وترققها ، وتدعها حساسة متوفزة جيدة الاستقبال . وذلك قبل البدء فى الهجوم على القضية ذاتها ! ثم يكشف عن حقيقة حالهم التى تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية . ذلك أنهم تركوا الحق الثابت ، فمادت الأرض من تحتهم ، ولم يعودوا يستقرون على شىء أبدا (بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم فى أمر مريج) وإنه لتعبير فريد مصور مشخص لحال من يفارقون الحق الثابت ، فلا يقر لهم من بعده قرار . إنه تعبير عجيب ، يجسم خلجات القلوب ، وكأنها حركة تتبعها العيون ! (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ وما لها من فروج) إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى فارقوه . أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب ! إن الثبات والكمال والجمال هى صفة السماء التى تتناسق مع السياق هنا . مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال . ومن ثم تجىء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج . وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج(والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) فالامتداد فى الأرض والرواسى الثابتات والبهجة فى النبات . . تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال ، التى وجه النظر إليها فى السماء . وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الكون (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) تبصرة تكشف الحجب ، وتنير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب , وما وراءه من إبداع

وحكمة وترتيب . . تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب ، يرجع إلى ربه من قريب . وبعد هذه اللفتة يمضى فى عرض صفحات الحق فى كتاب الكون – فى طريقه إلى قضية الإحياء والبعث (ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج) والماء النازل من السماء آية تحيى موات القلوب قبل أن تحيى موات الأرض . ومشهده ذو أثر خاص فى القلب لا شك فيه . وليس الأطفال وحدهم هم الذين يفرحون بالمطر ويطيرون له خفافا . فقلوب الكبار الحساسين تستروح هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء ، القريبى العهد بالفطرة ! وهنا ينتهى بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير (وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج) فهى عملية دائمة التكرار فيما حولهم ، مألوفة لهم ؛ ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب . . كذلك الخروج . . على هذه الوتيرة ، وبهذه السهولة . . الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشرى ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب . . وكذلك يعالج القلوب خالق القلوب . ثم يعقب بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشرى بعد عرض تلك الصفحات من كتاب الكون ، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يمارى هؤلاء المشركون فى قضية البعث ، وكذبوا كما يكذبون بالرسل ، فحق عليهم وعيد الله الذى لا مفر منه ولا محيد (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ,وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد) والرس هو:البئر:المطوية غير المبنية . والأيكة:الشجر الملتف الكثيف . وأصحاب الأيكة هم – فى الغالب – قوم شعيب . أما أصحاب الرس فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة . وكذلك قوم تبع . وتبع لقب لملوك حمير باليمن . وبقية الأقوام المشار إليهم هنا معروفون لقارىء القرآن . وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقوام . ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين . حين كذبوا الرسل . والذى يلفت النظر هو النص على أن كلا منهم كذب الرسل (كل كذب الرسل فحق وعيد) وهى لفتة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة . فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسل أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التى جاء بها الرسل أجمعون . والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور فى أعماق الزمان ، وفى ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التى بها يكذبون . قضية البعث– من جديد . فيسأل (أفعيينا بالخلق الأول ؟) والخلق شاهد حاضر فلا حاجة إلى جواب ! (بل هم فى لبس من خلق جديد) غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود ! فماذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود ، وفى المقطع الثانى من السورة:استطراد مع قضية البعث ، التى عالجها الشوط الأول ; وعلاج للقلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهيبة مخيفة . إنها تلك الرقابة التى تحدثنا عنها فى تقديم السورة . ومشاهدها التى تمثلها وتشخصها . ثم مشهد الموت وسكراته . ثم مشهد الحساب وعرض السجلات . ثم مشهد جهنم فاغرة فاها تتلمظ كلما ألقى فيها وقودها البشرى تقول (هل من مزيد ؟) وإلى جواره مشهد الجنة والنعيم والتكريم . إنها رحلة واحدة تبدأ من الميلاد ، وتمر بالموت ، وتنتهى بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ؛ ترسم للقلب البشرى طريقه الوحيد الذى لا فكاك عنه ولا محيد ; وهو من أول الطريق إلى آخره فى قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التى لا تفتر ولا تغفل . وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان فى قبضة الجبار , المطلع على ذات الصدور ؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذى لا ينسى ولا يغفل ولا ينام ! إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان فى الأرض يتتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه فى حركته وسكونه . وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لا يراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمى منه إذا آوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فمه ! أما قبضة الجبار فهى مسلطة عليه أينما حل وأينما سار . وأما رقابة الله فهى مسلطة على الضمائر والأسرار . . فكيف ؟ كيف بهذا الإنسان فى هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ؟!(ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) إن ابتداء الآية (ولقد خلقنا الإنسان) يشير إلى المقتضى الضمنى للعبارة . فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها . وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشىء مادتها ، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشىء الموجد الخالق ؟ إن الإنسان خارج من يد الله أصلا ؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره (ونعلم ما توسوس به نفسه) وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيدا ليوم الحساب الذى ينكره ويجحده ! (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) الوريد الذى يجرى فيه دمه . وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها . بل ما جرؤ على هاجسة فى الضمير لا تنال القبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان فى حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة . ولكن القرآن يستطرد فى

إحكام الرقابة . فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال , يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى رقيب حاضر ، لا كما يتبادر إلى الأذهان إن اسمى الملكين رقيب ، وعتيد ! ونحن لا ندرى كيف يسجلان . ولا داعى للتخيلات التى لا تقوم على أساس . فموقفنا بإزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها كما هى ، ونؤمن بمدلولها دون البحث فى كيفيتها ، التى لا تفيدنا معرفتها فى شىء . فضلا على أنها غير داخلة فى حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية . ولقد عرفنا نحن – فى حدود علمنا البشرى الظاهر – وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال . وهى تسجل الحركة والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما وأشرطة التليفزيون . وهذا كله فى محيطنا نحن البشر . فلا داعى من باب أولى أن نقيد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة ، البعيدة نهائيا عن ذلك العالم المجهول لنا ، والذى لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به الله . بلا زيادة !

وحسبنا أن نعيش فى ظلال هذه الحقيقة المصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ؛ لتكون فى سجل حسابنا , بين يدى الله الذى لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير . تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الإنسان صفحة الاحتضار (وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد) والموت أشد ما يحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنى له ذلك:والموت طالب لا يمل الطلب ، ولا يبطىء الخطى ، ولا يخلف الميعاد ;وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال ! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان (ذلك ما كنت منه تحيد) وإنه ليرجف لصداها وهو بعد فى عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعانى السكرات ! وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول:" سبحان الله . إن للموت لسكرات" . . يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله . فكيف بمن عداه ؟ ومن سكرة الموت ، إلى وهلة الحشر ، وهول الحساب (ونفخ فى الصور . ذلك يوم الوعيد) وهو مشهد يكفى استحضاره فى النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض فى توجس وحذر وارتقاب (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) جاءت كل نفس . فالنفس هنا هى التى تحاسب ، وهى التى تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها فى الدنيا . وقد يكونان غيرهما . والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شىء بالسوق للمحاكمة . ولكن بين يدى الجبار . وفى هذا الموقف العصيب يقال له (لقد كنت فى غفلة من هذا . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) قوى لا يحجبه حجاب ، وهذا هو الموعد الذى غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذى لم تحسب حسابه ، وهذه هى النهاية التى كنت لا تتوقعها . فالآن فانظر . فبصرك اليوم حديد ! هنا يتقدم قرينه . والأرجح أنه الشهيد الذى يحمل سجل حياته (وقال قرينه هذا ما لدى عتيد) حاضر مهيأ معد . لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد ! ولا يذكر السياق شيئا عن مراجعة هذا السجل تعجيلا بتوقيع الحكم وتنفيذه . إنما يذكر مباشرة النطق العلوى الكريم ، للملكين الحافظين:السائق والشهيد: (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب .الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد) وذكر هذه النعوت يزيد فى حرج الموقف وشدته . فهو دلالة غضب الجبار القهار فى الموقف العصيب الرهيب ; وهى نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة:كفار . عنيد . مناع للخير . معتد . مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر . وتنتهى بتوكيد الأمر الذى لا يحتاج إلى توكيد (فألقياه فى العذاب الشديد) بيانا لمكانه من جهنم التى بدأ الأمر بإلقائه فيها . عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحبا له وقرينا (قال قرينه:ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذى قدم السجلات . ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه . وهو يتبرأ من إطغائه ؛ ويقرر أنه وجده ضالا من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفى القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطانى من القرين الإنسانى على هذا النحو . على أن الفرض الأول غير مستبعد . فقد يكون القرين هو الملك صاحب السجل . ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ – وهو برىء – ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقى – فإنه لم تكن له يد فى أى مما كان منه . وتبرؤ البرىء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف . هنا يجىء القول الفصل ، فينهى كل قول (قال:لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد – ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) فالمقام ليس مقام اختصام . وقد سبق الوعيد محددا جزاء كل عمل . وكل شىء مسجل لا يبدل . ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل . ولا يظلم أحد ، فالمجازى هو الحكم العدل . بهذا ينتهى مشهد الحساب الرهيب بهوله وشدته ؛ ولكن المشهد كله لا ينتهى ، بل يكشف السياق عن جانب منه مخيف (يوم نقول لجهنم:هل امتلأت:وتقول:هل من مزيد ؟) إن المشهد كله مشهد حوار . فتعرض جهنم فيه فى معرض الحوار وبهذا

السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . . هذا هو كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . . هؤلاء هم كثرة تقذف فى جهنم تباعا ، وتتكدس ركاما . ثم تنادى جهنم (هل امتلأت ؟) واكتفيت ! ولكنها تتلمظ وتتحرق ، وتقول فى كظة الأكول النهم (هل من مزيد ؟!) فيا للهول الرعيب ! وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف ، رضى جميل . إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ، حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) والتكريم فى كل كلمة وفى كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هى التى تجىء (غير بعيد)! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة (هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب). . فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى ، ويعلمون أنهم فى ميزان الله أوابون ، حفيظون ، يخشون الرحمن ولم يشهدوه ، منيبون إلى ربهم طائعون . ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خروج (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود) . ثم يؤذن فى الملأ الأعلى ، تنويها بشأن القوم ، وإعلانا بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود (لهم ما يشاؤون فيها ، ولدينا مزيد) فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم . فالمزيد من ربهم غير محدود . .ثم يجىء المقطع الأخير فى السورة ، كأنه الإيقاع الأخير فى اللحن ، يعيد أقوى نغماته فى لمس سريع . فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين . وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المبين . وفيه لمسة البعث والحشر فى مشهد جديد . ومع هذه اللمسات التوجيه الموحى العميق للمشاعر والقلوب (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فنقبوا فى البلاد هل من محيص ؟ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ومع أن هذه اللمسات كلها قد سبقت فى سياق السورة ، إلا أنها حين تعرض فى الختام تعرض جديدة الإيقاع جديدة الوقع . بهذا التركيز وبهذه السرعة . ويكون لها فى الحس مذاق آخر غير مذاقها وهى مبسوطة مفصلة من قبل فى السورة . وهذه هى خصيصة القرآن العجيبة ! (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فنقبوا فى البلاد . هل من محيص) الحقيقة التى يشير إليها هى هى . ولكنها فى صورتها الجديدة غيرها فى صورتها الأولى . ثم يضيف إليها حركة القرون وهى تتقلب فى البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ، وهى مأخوذة فى القبضة التى لا يفلت منها أحد ، ولا مفر منها ولا فكاك:ف (هل من محيص) وعقب عليها بما يزيدها جدة وحيوية (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد) وفى مصارع الغابرين ذكرى . ذكرى لمن كان له قلب . فمن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذى مات قلبه أو لم يرزق قلبا على الإطلاق ! لا بل إنه ليكفى للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقى إلى القصة بإنصات ووعى ، فتفعل القصة فعلها فى النفوس . . وإنه للحق . فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين ، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية فى مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة (ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما مسنا من لغو) فأضاف هذه الحقيقة الجديدة إلى جانب اللمسة الأولى . حقيقة (وما مسنا من لغوب) وهى توحى بيسر الخلق والإنشاء فى هذا الخلق الهائل . فكيف بإحياء الموتى وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير ؟ وعقب عليها كذلك بإيحاء جديد وظل جديد (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذى يعقب الغروب . . كلها ظواهر مرتبطة بالسماوات والأرض . وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود . ويتحدث فى ظلالها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبعث وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة . فإذا جو جديد يحيط بتلك اللمسة المكررة . جو الصبر والحمد والتسبيح والسجود . موصولا كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود ، تثور فى الحس كلما نظر إلى السماوات والأرض ؛ وكلما رأى مطلع الشمس ، أو مقدم الليل ؛ وكلما سجد لله فى شروق أو غروب . ثم . لمسة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة . . اصبر وسبح واسجد . وأنت فى حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل ، المتوقع فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . لا يغفل عنه إلا الغافلون . الأمر الذى تدور عليه السورة كلها ، وهو موضوعها الأصيل (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير) وإنه لمشهد جديد مثير ، لذلك اليوم العسير . عبر عن النفخة بالصيحة . وصور مشهد الخروج . . ومشهد تشقق الأرض عنهم . هذه الخلائق التى غبرت فى تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التى لا تحصى . والتى تعاقب فيها الموتى . كما يقول المعرى

وفى ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التى فيها يجادلون وبها يجحدون (إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير) (ذلك حشر علينا يسير) فى أنسب وقت للتقرير، وفى ظلال هذا المشهد كذلك يتوجه بالتثبيت للرسول ﷺ تجاه جدلهم وتكذيبهم فى هذه الحقيقة الواضحة المشهودة بعين الضمير (نحن أعلم بما يقولون) وهذا حسبك . فللعلم عواقبه عليهم . . وهو تهديد مخيف ملفوف (وما أنت عليهم بجبار) فترغمهم على الإيمان والتصديق . فالأمر فى هذا ليس إليك . إنما هو لنا نحن ، ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلا يثبت له قلب يعى ويخاف ما يواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب . على ذلك النحو العجيب . وحين تعرض مثل هذه السورة ، فإنها لا تحتاج إلى جبار يلوى الأعناق على الإيمان . ففيها من القوة والسلطان ما لا يملكه الجبارون . وفيها من الإيقاعات على القلب البشرى ما هو أشد من سياط الجبارين ! وصدق الله العظيم . .

سورة الذاريات

مكية ، و آياتها ٦٠

هذه السورة ذات جو خاص . فهي تبدأ بذكر قوى أربعة . . من أمر الله . . في لفظ مبهم الدلالة ، يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله – تعالى – على أمر(والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع) والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقسمات . . مدلولاتها ليست متعارفة ، وهي غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار ، كما أنها بذاتها تلقى في الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها في جو هذه السورة . وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء (والسماء ذات الحبك) يقسم بها الله تعالى . على أمر (إنكم لفي قول مختلف) لا استقرار له ولا تناسق فيه , قائم على التخرصات والظنون ، لا على العلم واليقين . هذه السورة: بافتتاحها على هذا النحو ، ثم بسياقها كله ، تستهدف أمرا واضحا في سياقها كله . . ربط القلب البشرى بالسماء ؛ وتعليقه بغيب الله المكنون ؛ وتخليصه من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ، والانطلاق إليه جملة ، والفرار إليه كلية ، استجابة لقوله في السورة (ففروا إلى الله) وتحقيقا لإرادته في عباده (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقد عنى في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسماء في شأنه ، لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون) (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وإما تعريضا كقوله يصور حال عباده المتقين مع المال (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقرى ضيوفه القلائل – أو من حسبهم ضيوفه من الملائكة – بعجل سمين ، يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه ، وبمجرد إلقاء السلام عليه ، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة ! فتخليص القلب من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من إسار الرزق ، وتعليقه بالسماء ، ترف أشواقه حولها ، ويتطلع إلى خالقها في علاه ، بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق ، ويعوقه عن الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي تطرقها . ومن ثم كان هذا الافتتاح ، وكان ذلك الإيقاع الغامض في أولها ، وكان القسم بعده بالسماء , وكان تكرار الإشارة إلى السماء أيضا . وفي هذا كانت صورة المتقين التي يرسمها في مطلع السورة (إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) فهي صورة التطلع إلى الله ، والتجرد له ، والقيام في عبادته بالليل ، والتوجه إليه في الأسحار . مع إرخاص المال ، والتخلص من ضغطه ، وجعل نصيب السائل والمحروم حقا فيه . وفي هذا كان التوجيه إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء في شأن الرزق ، لا بالأرض وما فيها من أسبابه القريبة (وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون) وفي هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة ، وتمهيده للأرض في يسر ، وخلقه ما فيها من أزواج ، والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون .ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) وفي هذا كان الإيقاع الأخير البارز في السورة ، عن إرادة الله سبحانه في خلق الجن والإنس ، ووظيفتهما الرئيسية الأولى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نغمات متعددة . ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع ، وتطلق ذلك الحداء . الحداء بالقلب البشرى إلى السماء ! وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة عاد ، وقصة ثمود ، وقصة قوم نوح . وفي الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللمحة عن المال ؛ كما أن فيها لمحة عن الغيب المكنون في تبشيره بغلام عليم ، ورزقه هو وامرأته به على غير ما توقع ولا انتظار . وفي بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذي أقسم عليه في أول السورة (إنما توعدون لصادق) والذي أشار إليه في ختامها إنذارا للمشركين (فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون) بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كأنما تواصت على التكذيب (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا:ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون !) فالقصص في السورة – على هذا النحو – مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله ،

وتخليصه من جميع العوائق ، ووصله بالسماء . بالإيمان أولا واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم .

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً{١} فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً{٢} فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً{٣} فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً{٤} إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ{٥} وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ{٦} وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ{٧} إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ{٨} يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ{٩} قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ{١٠} الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ{١١} يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ{١٢} يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ{١٣} ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ{١٤} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{١٥} آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ{١٦} كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ{١٧} وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ{١٨} وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{١٩} وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ{٢٠} وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{٢١} وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ{٢٢} فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ{٢٣} هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ{٢٤} إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٢٥} فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ{٢٦} فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ{٢٧} فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ{٢٨} فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ{٢٩} قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ{٣٠} قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{٣١} قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٣٢} لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ{٣٣} مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ{٣٤} فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{٣٥} فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ{٣٦} وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ{٣٧} وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{٣٨} فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{٣٩} فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ{٤٠} وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ{٤١} مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ{٤٢} وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ{٤٣} فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ{٤٤} فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ{٤٥} وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ{٤٦} وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ{٤٧} وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ{٤٨} وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{٤٩} فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٥٠} وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٥١} كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{٥٢} أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ{٥٣} فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ{٥٤} وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ{٥٥} وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{٥٦} مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ{٥٧} إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ{٥٨} فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ{٥٩} فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ){٦٠}

(الذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا . . إن ما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) هذه الإيقاعات القصيرة السريعة ، بتلك العبارات الغامضة الدلالة ، تلقى في الحس - كما تقدم - إيحاء خاصا ، وتلقى ظلا معينا ، يعلق القلب بأمر ذي بال ، وشأن يستحق الانتباه . وقد احتاج غير واحد في العهد الأول أن يستفسر عن مدلول الذاريات ، والحاملات ، والجاريات ، والمقسمات . قال ابن كثير في التفسير:قال شعبة بن الحجاج ، عن سماك بن خالد بن عرعرة ، أنه سمع عليا - رضى الله عنه - وشعبة أيضا عن القاسم بن أبى بزة ، عن أبى الطفيل ، أنه سمع عليا - رضى الله عنه - وثبت أيضا من غير وجه عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه صعد منبر الكوفة فقال:لا تسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك . فقام ابن الكواء ، فقال:يا أمير المؤمنين , ما معنى قوله تعالى (والذاريات ذروا)؟ قال على - رضى الله عنه (الريح) قال (فالحاملات وقرا)؟ قال - رضى الله عنه -:السحاب . قال:(فالجاريات يسرا) ؟ قال - رضى الله عنه -:السفن . قال:(فالمقسمات أمرا)؟ قال - رضى الله عنه -:الملائكة . وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر - رضى الله عنهم - ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد ؛ ولم يحك ابن جرير وابن أبى حاتم غير ذلك [كما قال ابن كثير .] أقسم الله - سبحانه - بالرياح التى تذرو ما تذروه من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الإنسان وما يجهل . وبالسحاب الحاملات وقرا من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء . وبالسفن الجاريات فى يسر على سطح الماء بقدرته وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير . ثم بالملائكة المقسمات أمرا ، تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل فى الشؤون المختصة بها , وتقسم الأمور فى الكون بحسبها . والريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله ، يتخذها أداة لقدرته ، وستارا لمشيئته , ويتحقق عن طريقها قدر الله فى كونه وفى عباده . وهو يقسم بها - سبحانه - للتعظيم من شأنها ، وتوجيه القلوب إليها ، لتدبر ما وراءها من دلالة ؛ ولرؤية يد الله

وهى تنشئها وتصرفها وتحقق بها قدر الله المرسوم . وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة يوجه القلب إلى أسرارها المكنونة ؛ ويعلقه بمبدع هذه الخلائق من وراء ذكرها هذا الذكر الموحى . يقسم الله – سبحانه – بهذه الخلائق الأربع على (إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع) وقد وعد الله الناس:أنه مجازيهم بالإحسان إحسانا ، ومجازيهم بالسوء سوءا . وأنه إذا أمهلهم الحساب في الأرض ، فليس بمهمل حسابهم في الآخرة فالحساب لا بد منه هناك ، فالوعد صادق حتما إما هنا وإما هناك . . ومما وعدهم كذلك الرزق وكفالته لهم مبسوطا أو مقدرا – وفق مشيئته – ووعده حق فى هذا كما هو حق فى كل شأن (والسماء ذات الحبك ، إنكم لفى قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك) يقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب . كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات . . وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب فى السماء حين تكون موشاة كالزرد مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح . وقد يكون هذا وضعا دائما لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة . يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم فى قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار , ولا ثبات له ولا استقرار ، يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقى ، فلا استقرار عليه ولا توافق ولا ثبات . بل الحيرة دائمة والقلق لا يزال . وكذلك الباطل دائما أرض مرجرجة مهتزة ؛ وتيه لا معالم فيه ولا نور ؛ وهو يتأرجح ولا يفيء إلى أصل ثابت , ولا ميزان دقيق . ولا يجتمع عليه أهله إلا لينصرفوا ويتفرقوا بعد حين ؛ ويدب الخلاف بينهم والشقاق . ويتضح اضطرابهم واختلافهم وما هم فيه من الأمر المريج:حين يعرض فى ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيب . ثم يستطرد فيقرر أنهم يعيشون فى أوهام وظنون فى أمر الآخرة ، لا يستندون فيها إلى حق أو يقين . فهم فى قول مختلف فى هذا الحق المبين . ثم يصور لهم ذلك اليوم فى مشهد حى تتملاه العيون (قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون . يسألون:أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم ، هذا الذى كنتم به تستعجلون) والخرص هو الظن والتقدير الجزاف الذى لا يقوم على ميزان دقيق . والله – سبحانه – يدعوا عليهم بالقتل . فيا للهول ! ودعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل !(قتل الخراصون) ويزيد أمرهم وضوحا (الذين هم فى غمرة ساهون) فهم مغمورون بالأضاليل والأوهام لا يفيقون ولا يستيقظون . والتعبير يلقى ظلا خاصا ، يصور القوم مغمورين ساهين لا يشعرون بشيء مما حولهم ولا يتبينون . كأنهم سكارى مذهولون ! ذلك أنهم لا يتبينون الأمر الواضح ، الذى يراه ويوقن به كل واع غير مذهول ؛ فهم (يسألون:أيان يوم الدين) يسألون هكذا ، لا طلبا للعلم والمعرفة ، ولكن استنكارا وتكذيبا , واستبعادا لمجيئه ، يعبر عنه لفظ (أيان) المقصود ! ومن ثم يعالجهم بمشهدهم فى هذا اليوم الذى يستبعدونه ويستنكرونه ؛ وهم يحرقون بالنار كحرق المعدن لتمييز حقيقته (يوم هم على النار يفتنون)! ومعه التبكيت المؤلم فى الموقف العصيب (ذوقوا فتنتكم . هذا الذى كنتم به تستعجلون) فهذه المعالجة هى الجواب اللائق بهذا التساؤل . وهذا العنف فى المشهد هو المقابل للذهول والسهوة التى يعيش فيها الخراصون . وهو مصداق دعوة الله عليهم بالقتل فى أشد صوره وأعنفها:يوم هم على النار يفتنون ! وعلى الضفة الأخرى وفى الصفحة المقابلة يرتسم مشهد آخر ، لفريق آخر ، فريق مستيقن لا يخرص ؛ تقى لا يتبجح ؛ مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولا يقضى العمر فى غمرة وذهول (إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) فهذا الفريق . فريق المتقين . الأيقاظ . الشديدى الحساسية برقابة الله لهم ، ورقابتهم هم لأنفسهم . هؤلاء (فى جنات وعيون) (آخذين ما آتاهم ربهم) من فضله وإنعامه , جزاء ما أسلفوا فى الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) ويصور إحسانهم صورة خاشعة ، رفافة حساسة (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون) فهم الأيقاظ فى جنح الليل والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لا يطعمون الكرى إلا قليلا ، ولا يهجعون فى ليلهم إلا يسيرا . يأنسون بربهم فى جوف الليل فتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام ! وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس ، وحالهم مع المال ، فهو مما يليق بالمحسنين (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) فهم يجعلون نصيب السائل الذى يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذى يسكت ويستحيى فيحرم . يجعلون نصيب هذا وهذا حقا مفروضا فى أموالهم . وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود . وهذه الإشارة تتناسق مع علاج السورة لموضوع الرزق والمال ، لتخليص القلب من أوهاق الشح وأثقال البخل وعوائق الانشغال بالرزق . وتمهد للمقطع التالى فى السورة ، فى الوقت الذى تكمل سمة المتقين وصورة المحسنين . وهى لفتة إلى آيات الله فى الأرض وفى الأنفس ؛ وتوجيه إلى السماء فى شأن الرزق المكتوب والحظ المقدور . تختم بقسم عظيم . قسم الله – سبحانه – بذاته بوصف رب السماء والأرض اللتين ورد ذكرهما فى هذا المقطع . على أن هذا القول الذى جاءهم من عنده حق يقين (وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فلمسة اليقين هى التى تحيى القلب فيرى ويدرك ؛ وتحيى مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة ، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع . وبدون هذه

اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة جوفاء ؛ لا تنطق للقلب بشيء ؛ ولا تتجاوب معه بشيء . وكثيرون يمرون بالمعرض الإلهى المفتوح مغمضى العيون والقلوب . لا يحسون فيه حياة ، ولا يفقهون له لغة ؛ ثم العجيبة الأخرى التى تدب على هذه الأرض (وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟) وهذا المخلوق الإنسانى هو العجيبة الكبرى فى هذه الأرض . ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة فى كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين . إنه عجيبة فى تكوينه الجسماني:فى أسرار هذا الجسد . عجيبة فى تكوينه الروحى:فى أسرار هذه النفس . وهو عجيبة فى ظاهره وعجيبة فى باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه وكل جزئية فى حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق ، لا ينقضى منها العجب ... وبعد فقد كانت اللفتة الأولى إلى معرض الأرض ؛ وكانت اللفتة الثانية إلى معرض النفس . ثم تلتهما فى السورة لفتة إلى معرض الغيب العلوى المطوى ، حيث الرزق المقسوم والحظ المرسوم (وفى السماء رزقكم وما توعدون) وهى لفتة عجيبة . فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة فى الأرض ، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد ، وينتظر من ورائها الرزق والنصيب . فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء . إلى الغيب . إلى الله . ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهى آيات للموقنين . آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ؛ ويتخلص من أثقال الأرض وأوهاق الحرص , والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذى أنشأ هذه الأسباب . وبعد هذه اللمسات الثلاث فى الأرض والنفس والسماء . يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله (فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون) وكونهم ينطقون ، حقيقة بين أيديهم ، لا يجادلون فيها ولا يمارون ، ولا يرتابون فيها ولا يخرصون . . وكذلك هذا الحديث كله . والله أصدق القائلين ... ذلك كان القطاع الأول فى السورة . أما القطاع الثانى فيشمل تلك الإشارات إلى قصص إبراهيم , ولوط ، وموسى ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم نوح . . وهو مرتبط بما قبله ، ومرتبط كذلك بما بعده فى سياق السورة ، إنها آية أو آيات فى تاريخ الرسالات . كتلك الآيات التى أشار إليها فى الأرض وفى الأنفس . وإنه وعد أو وعود تتحقق من تلك الوعود التى أشار إلى تحققها فى القطاع السابق . ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟) تنويها بهذا الحديث ، وتهيئة للأذهان . مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما لأنهم كذلك عند الله ؛ وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد فى القصة . ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحا . فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون:سلاما . ويرد عليهم السلام ، وهو ينكرهم ولا يعرفهم . ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله – أى زوجه – مسارعا ليهيئ لهم الطعام . ويجيء به طعاما وفيرا يكفى عشرات (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) وهم كانوا ثلاثة فيما يقال . . تكفيهم كتف من هذا العجل السمين ! (فقربه إليهم . قال:ألا تأكلون ؟) وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه , ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه (فأوجس منهم خيفة) إما لأن الطارئ الذى لا يأكل طعام مضيفه ينبئ عن نية شر وخيانة . وإما لأنه لمح أن فيهم شيئا غريبا ! عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم أو طمأنوه وبشروه (قالوا:لا تخف . وبشروه بغلام عليم) وهى البشارة بإسحاق من زوجه العقيم (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها . وقالت:عجوز عقيم) وقد سمعت البشرى , فبغتت وفوجئت ، فندت منها صيحة الدهش ، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها . وقالت:عجوز عقيم . تنبئ عن دهشتها لهذه البشرى وهى عجوز . وقد كانت من الأصل عقيما . وقد أخذتها المفاجأة العنيفة التى لم تكن تتوقعها أبدا ، فنسيت أن البشرى تحملها الملائكة ! عندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التى لا يقيدها شيء , والتى تدبر كل أمر بحكمة وعلم (قالوا:كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم) وكل شيء يكون إذا قال الله له:كن . وقد قال الله . فماذا بعد قوله ؟ إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشرى ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له ؛ ويعجب كيف يكون ؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون ! والمشيئة المطلقة ماضية فى طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود ؛ تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود ! عند ذلك راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذى أرسلوا فيه (قال:فما خطبكم أيها المرسلون ؟) (قالوا:إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) هم قوم لوط . كما ورد فى سور أخرى .(لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين) وقوم لوط كانوا مسرفين فى تجاوزهم للفطرة والحق والدين (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) لإنجائهم وحمايتهم (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) هم بيت النبى لوط . كما ورد فى مواضع أخرى . فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويدركونها وينتفعون بها . أما الآخرون فمطموسون لا يرون آيات الله . لا فى الأرض ولا فى أنفسهم ولا فى أحداث التاريخ ! وآية أخرى فى قصة موسى ، يشير إليها إشارة سريعة فى معرض الآيات فى تاريخ المرسلين(وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال:ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، وهو مليم)

والسلطان المبين الذى أرسل الله به موسى إلى فرعون ، هو الحجة القوية ، والبرهان القاطع , وهو الهيبة الجليلة التى خلعها عليه . وهو معهما يسمع ويرى . ولكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ؛ وقال عن موسى النبى الذى كشف له عن آيات الله الخوارق (ساحر أو مجنون) مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدى قلبا لم يتأهب للهدى ؛ ولا تقطع لسانا يصر على الباطل ويفترى . ولا يطيل السياق هنا فى عرض تفصيلات القصة ؛ فيمضى إلى نهايتها التى تتجلى فيها الآية الباقية المذكورة فى التاريخ (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم) أى مستحقا للوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب . وآية أخرى فى عاد (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) وسميت الريح التى أرسلت على عاد عقيما لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والدمار . وتترك كل شىء تأتى عليه كالميت الذى رم وتحول إلى فتات ! والريح قوة من قوى هذا الكون . وجند من جند الله. يرسلها - فى إطار مشيئته وناموسه - فى صورة ما من صورها ، فى الوقت المقدر ، على من يريد , بالهلاك والدمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان فى مثل هذه المواضع للاعتراض السطحى الساذج ، بالقول بأن الريح تجرى وفق نظام كونى ؛ وتهب هنا أو هناك تبعا لعوامل طبيعية . فالذى يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذى يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتدبيره . وهو قادر على أن يسلطها كما يريد فى إطار النظام الذى قدره والعوامل التى جعلها . ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض ! وآية ثالثة فى ثمود (وفى ثمود إذ قيل لهم:تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين) والإشارة فى قوله (إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) قد تعنى إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة . وهو ما ورد فى الآية (فقال:تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) وقد تعنى ما قدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك . وما يقال فى الحجارة التى أرسلت على قوم لوط ، وفى الريح التى أرسلت على عاد ، يقال فى الصاعقة التى أرسلت على ثمود . فكلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه . يسلطها على من يشاء فى إطار تلك النواميس . فتؤدى دورها الذى يكلفها الله . كأى جند من جند الله . وآية رابعة فى قوم نوح (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) وهى إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح . كأنما ليقال:واذكر قوم نوح . وقد وردت (قوم) منصوبة وبدون لفظ [فى] بتقدير كلمة [اذكر] قبلها . وتلتها (والسماء بنيناها . .) معطوفة عليها . وهذه آية كونية ، وتلك آية تاريخية . يربطهما السياق معا ، ويربط بهما هذا القطاع بالقطاع الثالث فى السورة إنها عودة إلى المعرض الكونى الذى افتتحت به السورة ، فى صورة من صوره الكثيرة التى يجلوها القرآن للقلوب . واستطراد فى الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدين متجردين (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) والأيد هى:القوة . والقوة أوضح ما ينبئ عنه بناء السماء الهائل المتماسك المتناسق . بأى مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعنى مدارات النجوم والكواكب .. (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم) أى مستحقا للوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب . وآية أخرى فى عاد (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) وسميت الريح التى أرسلت على عاد عقيما لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والدمار . وتترك كل شىء تأتى عليه كالميت الذى رم وتحول إلى فتات ! والريح قوة من قوى هذا الكون . وجند من جند الله. يرسلها - فى إطار مشيئته وناموسه - فى صورة ما من صورها ، فى الوقت المقدر ، على من يريد , بالهلاك والدمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان فى مثل هذه المواضع للاعتراض السطحى الساذج ، بالقول بأن الريح تجرى وفق نظام كونى ؛ وتهب هنا أو هناك تبعا لعوامل طبيعية . فالذى يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذى يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتدبيره . وهو قادر على أن يسلطها كما يريد فى إطار النظام الذى قدره والعوامل التى جعلها . ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض ! وآية ثالثة فى ثمود (وفى ثمود إذ قيل لهم:تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين) والإشارة فى قوله (إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) قد تعنى إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة . وهو ما ورد فى الآية (فقال:تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) وقد تعنى ما قدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك . وما يقال فى الحجارة التى أرسلت على قوم لوط ، وفى الريح التى أرسلت على عاد ، يقال فى الصاعقة التى أرسلت على ثمود . فكلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه . يسلطها على من يشاء فى إطار تلك النواميس . فتؤدى دورها الذى يكلفها الله . كأى جند من جند الله . وآية رابعة فى قوم نوح (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) وهى إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح . كأنما ليقال:واذكر قوم نوح . وقد وردت (قوم) منصوبة وبدون لفظ [فى] بتقدير كلمة [اذكر] قبلها . وتلتها (

والسماء بنيناها . .) معطوفة عليها . وهذه آية كونية ، وتلك آية تاريخية . يربطهما السياق معا ، ويربط بهما هذا القطاع بالقطاع الثالث فى السورة إنها عودة إلى المعرض الكونى الذى افتتحت به السورة ، فى صورة من صوره الكثيرة التى يجلوها القرآن للقلوب . واستطراد فى الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدين متجردين (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) والأيد هى:القوة . والقوة أوضح ما ينبئ عنه بناء السماء الهائل المتماسك المتناسق . بأى مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعنى مدارات النجوم والكواكب . أم تعنى مجموعة من المجموعات النجمية التى يطلق عليها اسم المجرة وتحوى مئات الملايين من النجوم . أم تعنى طبقة من طبقات هذا الفضاء الذى تتناثر فيه النجوم والكواكب . . أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء . والسعة كذلك ظاهرة فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة والتى تعد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة فى هذا الفضاء الرحيب . ولعل فى الإشارة إلى السعة إيحاء آخر إلى مخازن الأرزاق التى قال من قيل:إنها فى السماء ولو أن السماء هناك مجرد رمز إلى ما عند الله . ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلالا معينة ، يبدو أنها مقصودة فى التعبير ، لخطاب المشاعر البشرية خطابا موحيا . ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض الممهودة المفروشة (والأرض فرشناها فنعم الماهدون) فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهدا للحياة كما أسلفنا . والفرش يوحى باليسر والراحة و العناية . وقد هيئت الأرض لتكون محضنا ميسرا ممهدا ، كل شىء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها (فنعم الماهدون) (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض – وربما فى هذا الكون . إذ أن التعبير لا يخصص الأرض – قاعدة الزوجية فى الخلق . وهى ظاهرة فى الأحياء . ولكن كلمة (شىء) تشمل غير الأحياء أيضا . والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية . وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا . وأن فكرة عموم الزوجية – حتى فى الأحياء – لم تكن معروفة حينذاك . فضلا على عموم الزوجية فى كل شىء . . حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير ! كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول إلى الحقيقة . وهى تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة . وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء:موجب وسالب ! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة فى ضوء هذا النص العجيب . وفى ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدى:فى أجواز السماء ، وفى آماد الأرض ، وفى أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها ؛ موحدين الله الذى خلق هذا الكون وحده بلا شريك (ففروا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين) والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا . وهو يوحى بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق ، التى تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها فى عقال . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجىء الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود ! الفرار إلى الله وحده منزها عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر (إنى لكم منه نذير مبين) وتكرار هذا التنبيه فى آيتين متجاورتين ,زيادة فى التنبيه والتحذير ! وكأنما كانت هذه الإشارة إلى آية السماء وآية الأرض وآية الخليقة استطرادا مع آيات الرسالات والرسل . فلما انتهت جاء التعقيب على قصص الرسل التى سلفت فى السياق (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا:ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهى جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين ؛ وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا:ساحر أو مجنون) . كما يقول هؤلاء المشركون ! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشىء إنما هى طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين ! هنا يجىء الإيقاع الأخير فى السورة . ويتضح معنى الفرار إلى الله ، والتخلص من الأوهاق والأثقال ، لأداء الوظيفة التى خلق الله العباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وإن هذا النص الصغير ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة ، من أضخم الحقائق الكونية التى لا تستقيم حياة البشر فى الأرض بدون إدراكها واستيقانها . سواء كانت حياة فرد أم جماعة . أم حياة الإنسانية كلها فى جميع أدوارها وأعصارها . وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تتمثل فى وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ,الذى تستمد منه قيمتها الأولى . هذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بناموس الوجود . هى العبادة لله . أو هى العبودية لله . والقرآن يغذى هذا الإحساس ويقويه . بإطلاق مشاعر الإنسان

من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس . فالرزق فى ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه – سبحانه – أو يرزقوه . حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه , والقيام بحق المحرومين فيه (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هوالحرص على تحصيل الرزق . بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذى يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة . ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة فى الجهد ، طليقا من التعلق بنتائج الجهد . . وهى مشاعر كريمة لا تنشأ إلا فى ظل هذا التصوير الكريم . وفى ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ؛ واستعجلوا وعد الله , وكذبوا . وتختم السورة بهذا الإنذار الأخير (فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم . فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون)

سورة الطور

مكية ، و آياتها ٤٩

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير فى القلب البشرى . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التى تساوره وتتدسس إليه وتختبئ هنا وهناك فى حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان . . حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهى تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام ! وهى حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة ، والمعنى والمدلول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف ، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام ! وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات فى الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم ! وبعضها مغيب مجهول (والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع) القسم على أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجا ، ويرعب الحس رعبا . فى تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب ؛ وفى مشهد كذلك ترجف له القلوب (إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع , يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا) وفى وسط المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب ، من ويل وهول ، وتقريع وتفزيع (فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون .أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون) هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط فى إطماع القلوب التى رأت ذلك الهول المرعب – إطماعها فى الأمن والنعيم . بعرض صورة المتقين وما أعد لهم من تكريم . وما هيئ لهم من نعيم رخى رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته ، وتتعدد ألوانه . مما يستجيش الحس إلى روح النعيم وبرده ؛ بعد كرب العذاب وهوله (إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا:إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم .إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) والآن وقد أحس القلب البشرى سياط العذاب فى الشوط الأول ؛ وتذوق حلاوة النعيم فى الشوط الثانى . . الآن يجىء الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس ؛ ويلاحق الشبهات والأضاليل ; ويدحض الحجج والمعاذير . ويعرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عنيفة . تتحدث بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل ، مستقيم لا يحتمل اللف والدوران . يلوى الأعناق ليا ويلجئها إلى الإذعان والتسليم . . ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ ليمضى فى تذكيره لهم ، على الرغم من سوء أدبهم معه ؛ وليقرعهم بهذا المنطق النافذ القوى المستقيم (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون:شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل:تربصوا فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ? أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ? أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون) وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التى تنسف الباطل نسفا ، وتحرج المكابر والمعاند ، وتخرس كل لسان يزيغ عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا يصور تعنتهم وعنادهم فى صورة الذى يكابر فى المحسوس (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا:سحاب مركوم) والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح ، ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليعدلوا عن الحق الواضح . هنا يلقى عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعيب ، بملاقاة ذلك المشهد المرهوب , الذى عرض عليهم فى مطلع السورة (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون . يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) كما يهددهم بعذاب

أقرب من ذلك العذاب (وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) ثم تختم السورة بإيقاع رضى رخى . . إنه موجه إلى الرسول الكريم الذى يقولون عنه (شاعر نتربص به ريب المنون) ويقولون:كاهن أو مجنون . موجه إليه من ربه يسليه ويعزيه فى إعزاز وتكريم . فى تعبير لا نظير له فى القرآن كله ؛ ولم يوجه من قبل إلى نبى أو رسول (واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ،وسبح بحمد ربك حين تقوم , ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) إنه الإيقاع الذى يمسح على العنت والمشقة اللذين يلقاهما الرسول الكريم ، من أولئك المتعنتين المعاندين ، الذين اقتضت مواجهتهم تلك الحملة العنيفة من المطاردة والهجوم . .

(وَالطُّورِ{١} وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ{٢} فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ{٣} وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ{٤} وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ{٥} وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ{٦} إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ{٧} مَا لَهُ مِن دَافِعٍ{٨} يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً{٩} وَتَسِيرِ الْجِبَالُ سَيْراً{١٠} فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{١١} الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ{١٢} يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً{١٣} هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ{١٤} أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ{١٥} اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{١٦} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ{١٧} فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ{١٨} كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{١٩} مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ{٢٠} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ{٢١} وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ{٢٢} يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ{٢٣} وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ{٢٤} وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ{٢٥} قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ{٢٦} فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ{٢٧} إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ{٢٨} فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ{٢٩} أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ{٣٠} قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ{٣١} أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ{٣٢} أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ{٣٣} فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ{٣٤} أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ{٣٥} أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ{٣٦} أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ{٣٧} أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{٣٨} أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ{٣٩} أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ{٤٠} أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ{٤١} أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ{٤٢} أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ{٤٣} وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ{٤٤} فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ{٤٥} يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ{٤٦} وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{٤٧} وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ{٤٨} وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ){٤٩}

هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنغمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها . وهي تبدأ كلمة واحدة . ثم تصبح كلمتين . ثم تطول شيئا فشيئا حتى تبلغ فى نهاية المقطع اثنتى عشرة كلمة . مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع . والطور وهو:الجبل فيه شجر . والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف فى القرآن ، المذكور فى قصة موسى – عليه السلام – والذى نزلت فوقه الألواح . فالجو جو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذى سيجىء . والكتاب المسطور فى رق منشور . الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذى كتب له فى الألواح . للمناسبة بينه وبين الطور . وقيل . هو اللوح المحفوظ . تمشيا مع ما بعده:البيت المعمور ، والسقف المرفوع . ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود . والبيت المعمور:قد يكون هو الكعبة . ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة فى السماء لما ورد فى الصحيحين فى حديث الإسراء:" ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم " . . يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ! والسقف المرفوع:السماء . قاله سفيان الثورى وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن خالد بن عرعرة عن على – كرم الله وجهه – قال سفيان:ثم تلا : (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) والبحر المسجور:المملوء . وهو أنسب شيء يذكر مع السماء فى مشهد . فى انفساحه وامتلائه وامتداده . وهو آية فيها رهبة ولها روعة . تؤهلانه للذكر مع هذه المشاهد المقسم بها على الأمر العظيم . وقد يكون معنى المسجور:المتقد . كما قال فى سورة أخرى (وإذا البحار سجرت) أى توقدت نيرانا . كما أنه قد يشير إلى خلق آخر كالبيت المرفوع يعلمه الله . يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم . بعد أن يتهيأ الحس بهذه الإيقاعات لاستقبال ذلك الأمر العظيم (إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع) فهو واقع حتما ، لا يملك دفعه أحد أبدا . وإيقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقى فى الحس أنه أمر داهم قاصم ،

ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشرى بلا عائق فإنه يهزه ويضعضعه ويفعل به الأفاعيل . ويعقب هذا الإيقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب (يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا) ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج فى البحر من هنا إلى هناك بلا قوام . ومشهد الجبال الصلبة الراسية تسير خفيفة رقيقة لا ثبات لها ولا استقرار . أمر مذهل مزلزل . يدل ضمنا على الهول الذى تمور فيه السماء وتسير منه الجبال . فكيف بالمخلوق الإنسانى الصغير الضعيف فى ذلك الهول المذهل المخيف ؟! وفى زحمة هذا الهول الذى لا يثبت عليه شىء ؛ وفى ظل هذا الرعب المزلزل لكل شىء ، يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب . يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار(فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم فى خوض يلعبون) والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء . فهو أمر لا محالة واقع ، ما له من دافع . وهو كائن حتما ، يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا . فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل ، وينصب كله على المكذبين (الذين هم فى خوض يلعبون) وهذا الوصف ينطبق ابتداء على أولئك المشركين ومعتقداتهم المتهافتة ، وتصوراتهم المهلهلة ; وحياتهم القائمة على تلك المعتقدات وهذه التصورات ، التى وصفها القرآن وحكاها فى مواضع كثيرة . وهى لعب لا جد فيه . لعب يخوضون فيه كما يخوض اللاعب فى الماء ,غير قاصد إلى شاطئ أو هدف ، سوى الخوض واللعب ! وويل لأولئك الخائضين اللاعبين (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) وهو مشهد عنيف . فالدع هو:الدفع فى الظهور . وهى حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعبين ، الذين لا يجدون ، ولا ينتبهون إلى ما يجرى حولهم من الأمور . فيساقون سوقا ويدفعون فى ظهورهم دفعا . حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) وبينما هم فى هذا الكرب ، بين الدع والنار التى تواجههم على غير إرادة منهم . يجيئهم الترذيل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سبق منهم من التكذيب (أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟) فقد كانوا يقولون عن القرآن:إنه سحر . فهل هذه النار التى يرونها كذلك سحر ؟! أم إنه الحق الهائل الرعيب ؟ أم إنهم لا يبصرون هذه النار كما كانوا لا يبصرون الحق فى القرآن الكريم ؟! وحين ينتهى هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس (اصلوها . فاصبروا أو لا تصبروا . سواء عليكم . إنما تجزون ما كنتم تعملون) وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة . من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ما له من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع . . والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع فلا تغيير فيه ولا تبديل ! وبذلك ينتهى هذا المشهد الرعيب ؛ كما ينتهى الشوط الأول بإيقاعه العنيف . أما الشوط الثانى فهو مثير للحس ، ولكن بما فيه من رخاء ورغد ، وهتاف بالمتاع لا يقاوم , وبخاصة بعد مشهد العذاب البئيس ، والمشهد أقرب إلى مشاهد النعيم الحسى ، الذى يخاطب المشاعر فى أول العهد ، والذى يجتذب النفوس بلذائذ الحس فى صورتها المصفاة . وهو مقابل لذلك العذاب الغليظ التى تواجه به القلوب الجاسية والقلوب اللاهية كذلك (إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذى عرضت مشاهده فى هذه السورة فضل ونعمة . فكيف ومعه) جنات ونعيم)؟ وهم يلتذون ما آتاهم ربهم ويتفكهون ؟ ومع النعيم ولذته التهنئة والتكريم (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) وهذا بذاته متاع أكرم . وهم ينادون هذا النداء العلوى ، ويعلن استحقاقهم لما هم فيها (متكئين على سرر مصفوفة) منسقة يجدون فيها لذة التجمع بإخوانهم فى هذا النعيم (وزوجناهم بحور عين) وهذه تمثل أمتع ما يجول فى خواطر البشر من متاع جميل . ويمضى التكريم خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم فى هذا النعيم ، زيادة فى الرعاية والعناية . ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ، ما دامت هذه الذرية مؤمنة . وذلك دون أن ينقص شىء من أعمال الآباء ودرجاتهم . ودون إخلال بفردية التبعة وحساب كل بعمله الذى كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم . وما ألتناهم من عملهم من شىء . كل امرئ بما كسب رهين) ويستطرد المشهد يعرض ألوان المناعم واللذائذ فى ذلك النعيم . فإذا فاكهة ولحم مما يشتهون . وإذا هم يتعاطون فيها كأسا ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاه والألسنة ، وتشيع الإثم والمعصية فى الحس والجوارح . إنما هى مصفاة مبرأة (لا لغو فيها ولا تأثيم) وهم يتجاذبونها بينهم ويتعاطونها مجتمعين ، زيادة فى الإيناس واللذة والنعيم . فى حين يقوم على خدمتهم ويطوف بالكأس عليهم غلمان صباح أبرياء ,فيهم نظافة ، وفيهم صيانة ، وفيهم نداوة (كأنهم لؤلؤ مكنون) مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف فى الجوارح والقلوب . واستكمالا لجو المشهد المأنوس يعرض سمرهم فيما بينهم ، وتذاكرهم ماضيهم ، وأسباب ما هم فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنس ونعيم . فيكشف للقلوب عن سر هذا المتاع ، ويشير إلى الطريق المؤدى إلى هذا النعيم (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا:إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم) السر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم . عاشوا فى خشية من لقاء ربهم . عاشوا مشفقين من حسابه . عاشوا كذلك وهم فى أهلهم ،

حيث الأمان الخادع . ولكنهم لم ينخدعوا . وحيث المشغلة الملهية . ولكنهم لم ينشغلوا . عندئذ من الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، الذى يتخلل الأجساد كالسم الحار اللاذع ! وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلا ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم . وهم يعرفون هذا . ويعرفون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة إلا بمنة من الله وفضل . فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله . وهذا هو المؤهل لفضل الله . وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله (إنا كنا من قبل ندعوه) وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبيده: (إنه هو البر الرحيم) وكذلك ينكشف سر الوصول فى تناجى هؤلاء الناجين المكرمين فى دار النعيم . والأن وقد تلقى الحس سياط العذاب العنيف فى الشوط الأول ؛ وتلقى هتاف النعيم الرغيد فى الشوط الثانى ؛ وتوفزت بهذا وذلك حساسيته لتلقى الحقائق . . فإن السياق يعاجله بحملة سريعة الإيقاعات . يطارده فيها بالحقائق الصادعة ، ويتعقب وساوسه فى مسارب نفسه فى صورة استفهامات استنكارية ، وتحديات قوية ، لا يثبت لها الكيان البشرى حين تصل إليه من أى طريق (فذكر) والخطاب للرسول ﷺ ليظل فى تذكيره لا يثنيه سوء أدبهم معه ، وسوء اتهامهم له . وقد كانوا يقولون عنه مرة:إنه كاهن . ويقولون عنه مرة:إنه مجنون . ويجمع بين الوصفين عندهم ما كان شائعا بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين . وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون . فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين:كاهن أو مجنون ! وإنها لقولة فظيعة شنيعة . فالله – سبحانه – يسلى رسوله عنها ، ويصغر من شأنها فى نفسه . وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التى لا تكون معها كهانة ولا جنون: (فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) ثم يستنكر قولهم:إنه شاعر (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟) . وقد قالوها . وقال بعضهم لبعض:اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أنتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيريحنا منه ! وتواصوا أن يتربصوا به الموت المريح . ومن ثم يلقن الرسول ﷺ أن يرد عليهم فى تهديد ملفوف (قل:تربصوا . فإنى معكم من المتربصين) وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهى به التربص إلى النصر والظهور .

ولقد كان شيوخ قريش يلقبون بذوى الحلوم . أو ذوى الأحلام . إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم فى تصريف الأمور . فهو يتهكم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام . وموقفهم منه ينافى الحكمة والعقل ، فيسأل فى تهكم:أهذه الأوصاف التى يصفون بها محمدا ﷺ وتلك المواقف التى يقفونها من رسالته كانت من وحى أحلامهم ؟ أم أنهم طغاة ظالمون لا يقفون عند ما تمليه الأحلام والعقول (أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون) وفى السؤال الأول تهكم لاذع . وفى السؤال الثانى اتهام مزر . وواحد منهما لا بد لاحق بهم فى موقفهم المريب ! ولقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله ﷺ فاتهموه بافتراء ما يقول . فهو هنا يسأل فى استنكار:إن كانوا يقولون:تقوله:كأن هذه الكلمة لا يمكن أن تقال . فهو يسأل عنها فى استنكار (أم يقولون تقوله) ويبادر ببيان علة هذا القول الغريب (بل لا يؤمنون) فعدم استشعار قلوبهم للإيمان ، هو الذى ينطقهم بمثل هذا القول ؛ بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن . ولو أدركوها لعلموا أنه ليس من صنع بشر ؛ وأنه لا يحمله إلا صادق أمين .وما دامت قلوبهم لا تستشعر حقيقة هذا التنزيل ؛ فهو يتحداهم إذن ببرهان الواقع الذى لا يقبل المراء (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) وقد تكرر هذا التحدى فى القرآن الكريم ؛ وتلقاه المنكرون عاجزين ، ووقفوا تجاهه صاغرين . وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين . والاستفهام التالى عن حقيقة وجودهم ، هم أنفسهم ، وهى حقيقة قائمة لا مفر لهم من مواجهتها ,ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها ، من أن لهم خالقا أوجدهم هو الله سبحانه . وهو موجود بذاته . وهم مخلوقون (أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟) ووجودهم هكذا من غير شىء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ؛ ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التى يقولها القرآن . وهى أنهم جميعا من خلق الله الواحد الذى لا يشاركه أحد فى الخلق والإنشاء ؛ فلا يجوز أن يشاركه أحد فى الربوبية والعبادة . . وهو منطق واضح بسيط . كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم . فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم (أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون) وهم – ولا أى عقل يحتكم إلى منطق الفطرة – لا يقولون:إن السماوات والأرض خلقت نفسها , أو خلقت من غير خالق . وهم كذلك لا يدعون أنهم خلقوها . . وهى قائمة حيالهم سؤالا حيا يتطلب جوابا على وجوده ! وقد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض قالوا الله . . ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح فى إدراكهم إلى درجة اليقين الذى ينشئ آثاره فى القلب ، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق (بل لا يوقنون) ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسماوات والأرض . فيسألهم:هل هم يملكون خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط ، والضر والنفع (أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟) وإذا لم يكونوا كذلك ، ولم يدعوا هذه الدعوى . فمن ذا

يملك الخزائن ، ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور ؟ القرآن يقول:إنه الله القابض الباسط ، المدبر المتصرف . وهذا هو التفسير الوحيد لما يجرى فى الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير . بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المسيطرين على تصريف الأمور ! ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للإستماع إلى مصدر التنزيل (أم لهم سلم يستمعون فيه ؟) إن محمدا ﷺ يقول لهم:إنه رسول يوحى إليه ، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى . وهم يكذبونه فيما يقول . فهل لهم سلم يستمعون فيه ، فيعلموا أن محمدا لا يوحى إليه ، وأن الحق غير ما يقول ؟ (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) أى ببرهان قوى يحمل فى ذاته سلطانا على النفوس يلجئها إلى التصديق . وفى هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذى يطالعهم فى آياته وحججه ، وهم يكابرون فيها ويعاندون ! ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتهافتة عن الله سبحانه . تلك التى ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة , الذين يتصورونهم إناثا ؛ موجها الخطاب مباشرة إليهم ، زيادة فى التخجيل والترذيل (أم له البنات ولكم البنون ؟) وهم كانوا يعتبرون البنات فى درجة أقل من درجة البنين ، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين يبشرون بالأنثى . وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ! فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ، ليخجلهم من هذا الادعاء . وهو فى ذاته متهافت لا يستقيم ! وهم كانوا يستثقلون دعوة النبي لهم إلى الهدى ؛ وهو يقدمه لهم خالصا بريئا ، لا يطلب عليه أجرا ، ولا يفرض عليهم إتاوة . وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البرىء أن يستقبل صاحبه بالحسنى ، وأن يرد بالحسنى إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويعرضه عليهم . وهو هنا يستنكر مسلكهم الذى لا داعى له يقول (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟) أى مثقلون من الغرم الذى تكلفهم إياه فى صورة الأجر على ما تقول ! فإذا كان الواقع أن لا أجر ولا غرامة . فكم يبدوا عملهم مسترذلا قبيحا ، يخجلون منه حين يواجهون به ؟ ويعود يواجههم بحقيقة وجودهم ووضعهم فى هذا الوجود . فهم عبيد لهم حدود . مكشوف لهم من هذا الوجود بقدر . محجوب عنهم ما وراءه ، مما يختص به صاحب هذا الوجود . فهنالك غيب من اختصاص الله يقف دونه العبيد ، لا علم لهم به ، لأنهم عبيد (أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة . وأنهم لا يكتبون فى سجل الغيب شيئا ، إنما يكتب الله فيه ما يريد ، مما يقدره للعبيد . والذى يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر ، هو الذى يملك أن يدبر فيه وأن يكيد . فمالهم وهم عن الغيب محجوبون ، وفى سجله لا يكتبون يكيدون لك ويدبرون ، ويحسبون أنهم قادرون على شىء من أمر المستقبل:فيقولون:شاعر نتربص به ريب المنون ؟! (أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون)! وهم الذين يحيق بهم ما يقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيده ومكره . والله خير الماكرين (أم لهم إله غير الله ؟) يقيهم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله (سبحان الله عما يشركون) وتنزه – سبحانه – عن تصورهم الباطل السقيم ! وبهذا التنزيه لله سبحانه عن الشرك والشركاء تختم هذه الحملة المتلاحقة الخطى ، القوية الإيقاع . وقد انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ، ووقف القوم أمام الحقيقة العارية مجردين من كل عذر ومن كل دليل . (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا:سحاب مركوم) أى أنه إذا أرسل عليهم العذاب فى صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا وهم يرونها تسقط (سحاب مركوم) فيه الماء والحياة ! عنادا منهم أن يسلموا بالحق , ولو كان السيف على رقابهم كما يقولون ! ولعله يشير بهذا إلى قصة عاد . وقولهم حين رأوا سحابة الموت والدمار (عارض ممطرنا) حيث كان الرد: (بل هو ما استعجلتم به:ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها) وعند هذا الحد من تصوير عنادهم ومكابرتهم فى الحق ، ولو كان فوق رؤوسهم الهلاك ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم لليوم الذى ورد ذكره ووصفه فى أول السورة . وللعذاب الذى ينتظرهم من قبله . وأن يصبر لحكم ربه الذى يعزه ويرعاه ويكلأه . وأن يسبح بحمد ربه فى الصباح حين يقوم ، ومن الليل ، وعند إدبار النجوم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون . يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون . وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) وهو شوط جديد فى الحملة يبدأ بالتهديد ، بذلك اليوم الرعيب ، يوم ينفخ فى الصور فيصعقون . –قبيل البعث والنشور – يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون ، فهم فى ذلك اليوم لا يغنى عنهم كيد ولا تدبير . على أن لهم قبل ذلك اليوم عذابا – يتركه مجهولا ولكن أكثرهم لا يعلمون . ويفرغ بهذا التهديد الأخير من أمر المكذبين الظالمين ، الذين طاردهم هذه المطاردة الطويلة العنيفة ، لينتهى بهم إلى موقف المهدد الذى ينتظره العذاب من بعيد ومن قريب . . يفرغ منه ليلتفت إلى النبى الكريم الذى تطاول عليه المتطاولون ، وتقول عليه المتقولون ، يلتفت إليه ﷺ يوجهه إلى الصبر على هذا العناء ، وهذا التكذيب , وهذا التطاول ؛ والصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل . تاركا الأمر لحكم الله يفعل به ما يشاء (واصبر لحكم ربك) ومع التوجيه إلى الصبر إيذان بالإعزاز الربانى ، والعناية الإلهية ، والأنس الحبيب الذى يمسح على مشقات الطريق مسحا ، ويجعل الصبر عليه أمرا محببا ، وهو

الوسيلة إلى هذا الإعزاز الكريم (فإنک بأعيننا) ويا له من تعبير ! ويا له من تصوير ! ويا له من تقدير ! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التى يصورها هذا التعبير الفريد فى القرآن كله . حتى بين التعبيرات المشابهة (فإنک بأعيننا) وهو تعبير فيه إعزاز خاص ، وأنس خاص . وهو يلقى ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل . . ولا يملک التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله ، وأن نعيش في هذه الظلال . ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به (وسبح بحمد ربک حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) فعلى مدار اليوم . عند اليقظة من النوم . وفى ثنايا الليل . وعند إدبار النجوم في الفجر . هنالک مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب . والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب . فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ؟ ؟ ؟

سورة النجم

مكية ، و آياتها ٦٢

هذه السورة فى عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية ، منغمة ، يسرى التنغيم فى بنائها اللفظى كما يسرى فى إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة . ويلحظ هذا التنغيم فى السورة بصفة عامة ؛ ويبدو القصد فيه واضحا فى بعض المواضع ؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية ، لتضمن سلامة التنغيم ودقة إيقاعه - إلى جانب المعنى المقصود الذى تؤديه فى السياق كما هى عادة التعبير القرآنى - مثل ذلك قوله (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى) فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال:ومناة الثالثة فقط يتعطل إيقاع القافية ولكل كلمة قيمتها فى معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة . ومثلها كلمة (إذن) فى وزن الآيتين بعدها: ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى ! وكلمة(إذن)ضرورية للوزن . وإن كانت - مع هذا - تؤدى غرضا فنيا فى العبارة . . . وهكذا . ذلك الإيقاع ذو لون موسيقى خاص . لون يلحظ فيه التموج والانسياب . وبخاصة فى المقطع الأول والمقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفرفة فى المقطع الأول . ومع المعانى واللمسات العلوية فى المقطع الأخير . وما بينهما مما هو قريب منهما فى الجو والموضوع . والصور والظلال فى المقطع الأول ، تشع من المجال العلوى الذى تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية التى يصفها هذا المقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم . . والصور والظلال والحركات والمشاهد والجو الروحى المصاحب ، تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيرى وتمتزج به ، وتتناسق معه ، وتتراءى فيه ، فى توافق منغم عجيب . ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله ، ويترك آثاره فى مقاطعها التالية ، حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له كل ذرة فى الكيان البشرى وترف معه وتستجيب .

وموضوع السورة الذى تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق:العقيدة بموضوعاتها الرئيسية:الوحى والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحى بهذه العقيدة ووثاقته ، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمى الموهون ! والمقطع الأول فى السورة يستهدف بيان حقيقة الوحى وطبيعته ، ويصف مشهدين من مشاهده ، ويثبت صحته وواقعيته فى ظل هذين المشهدين ؛ ويؤكد تلقى الرسول ﷺ عن جبريل - عليه السلام - تلقى رؤية وتمكن ودقة ، واطلاعه على آيات ربه الكبرى . ويتحدث المقطع الثانى عن آلهتهم المدعاة: اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن الملائكة . وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتمادهم فى هذا كله على الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا . بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين . والمقطع الثالث يلقن الرسول ﷺ الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئا . ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم ، منذ أنشأهم من الأرض ، ومنذ كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم . فهو أعلم بهم من أنفسهم ، وعلى أساس هذا العلم المستيقن - لا الظن والوهم - يكون حسابهم وجزاؤهم ، ويصير أمرهم فى نهاية المطاف . والمقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة - كما هى منذ أقدم الرسالات - من فردية التبعة ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرف فى أمرهم كله تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع الغابرين المكذبين . تختم بالإيقاع الأخير (هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ، ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا) حيث يلتقى المطلع والختام فى الإيحاء والصور والظلال والإيقاع العام .

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{١} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{٢} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{٣} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{٤} عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى{٥} ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى{٦} وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى{٧} ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى{٨} فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى{٩} فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى{١٠} مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى{١١} أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى{١٢} وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى{١٣} عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى{١٤} عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى{١٥} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى{١٦} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى{١٧} لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى{١٨} أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{١٩} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{٢٠} أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{٢١} تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى{٢٢} إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ

جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى{٢٣} أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى{٢٤} فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى{٢٥} وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى{٢٦} إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى{٢٧} وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً{٢٨} فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{٢٩} ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى{٣٠} وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى{٣١} الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى{٣٢}

في هذا المطلع نعيش لحظات في ذلك الأفق الوضيء الطليق المرفرف الذي عاش فيه قلب محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ونرف بأجنحة النور المنطلقة إلى ذلك الملأ الأعلى ; ونستمع إلى الإيقاع الرخي المنساب ، في جرس العبارة وفي ظلالها وإيحائها على السواء . نعيش لحظات مع قلب محمد ﷺ مكشوفة عنه الحجب , مزاحة عنه الأستار . يتلقى من الملأ الأعلى . يسمع ويرى ، ويحفظ ما وعى . وهي لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ؛ ولكن الله يمن على عباده ، فيصف لهم هذه اللحظات وصفا موحيا مؤثرا . ينقل أصداءها وظلالها وإيحاءها إلى قلوبهم . يصف لهم رحلة هذا القلب المصفى ، في رحاب الملأ الأعلى . يصفها لهم خطوة خطوة ، ومشهدا مشهدا ، وحالة حالة ,حتى لكأنهم كانوا شاهديها . ويبدأ الوصف الموحى بقسم من الله سبحانه (والنجم إذا هوى) وحركة تلألؤ النجم ثم هويه ودنوه . أشبه بمشهد جبريل المقسم عليه (وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى) وهكذا يبدأ التناسق والتوافق في المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الاولى . (والنجم إذا هوى) وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود في هذا القسم . وأقرب ما يرد على الذهن أنها إشارة إلى الشعرى ، التي كان بعضهم يعبدها . والتي ورد ذكرها في السورة فيما بعد في قوله (وأنه هو رب الشعرى) وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير . ومما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعرى بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن في أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء . فالأقرب أن تكون هذه الإشارة هنا إليها . ويكون اختيار مشهد هوى النجم مقصودا للتناسق الذي أشرنا إليه . ولمعنى آخر هو الإيحاء بأن النجم مهما يكن عظيما هائلا فإنه يهوى ويتغير مقامه . فلا يليق أن يكون معبودا . فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام . ذلك هو القسم . فأما المقسم عليه ، فهو أمر النبي ﷺ مع الوحي الذي يحدثهم عنه (ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى) فصاحبكم راشد غير ضال . مهتد غير غاو . مخلص غير مغرض . مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولا مفتر ولا مبتدع . ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة . إن هو إلا وحي يوحى . وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقا أمينا . هذا الوحي معروف حامله . مستيقن طريقه . مشهودة رحلته . رآه الرسول ﷺ رأى العين والقلب ، فلم يكن واهما ولا مخدوعا (علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟) والشديد القوى ذو المرة [أي القوة] ، هو جبريل - عليه السلام - وهو الذي علم صاحبكم ما بلغه إليكم . وهذا هو الطريق ، وهذه هي الرحلة ، مشهودة بدقائقها:استوى وهو بالأفق الأعلى . حيث رآه محمد ﷺ وكان ذلك في مبدأ الوحي . حين رآه على صورته التي خلقه الله عليها ، يسد الأفق بخلقه الهائل . ثم دنا منه فتدلى نازلا مقتربا إليه . فكان أقرب ما يكون منه . على بعد ما بين القوسين أو أدنى - وهو تعبير عن منتهى القرب - فأوحى إلى عبد الله ما أوحى . بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل . فهي رؤية عن قرب بعد الترائي عن بعد . وهو وحي وتعليم ومشاهدة وتيقن . وهي حال لا يتأتى معها كذب في الرؤية ، ولا تحتمل مماراة أو مجادلة (ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟) ورؤية الفؤاد أصدق وأثبت ، لأنها تنفي خداع النظر . فلقد رأى فتثبت فاستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحي ، رسول ربه إليه , ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم . وانتهى المراء والجدال ، فما عاد لهما مكان بعد تثبت القلب ويقين الفؤاد . وليست هذه هي المرة الوحيدة التي رآه فيها على صورته . فقد تكررت مرة أخرى (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وكان ذلك في ليلة الإسراء والمعراج - على الراجح من الروايات - فقد دنا منه - وهو على هيئته التي خلقه الله بها مرة أخرى (عند سدرة المنتهى) والسدرة كما يعرف من اللفظ شجرة . فأما أنها سدرة المنتهى . فقد يعني هذا أنها التي ينتهي إليها المطاف . فجنة المأوى عندها . أو التي انتهت إليها رحلة المعراج . أو التي انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ﷺ حيث وقف هو وصعد محمد ﷺ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى . وكله غيب من غيب الله ، أطلع عليه عبده المصطفى ، ولم يرد

إلينا عنه إلا هذا . وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته . فلا يدركها الإنسان إلا بمشيئة من خالقه وخالق الملائكة ، العليم بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة . .

ويذكر ما لابس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى . زيادة فى التوكيد واليقين (إذ يغشى السدرة ما يغشى). . مما لا يفصله ولا يحدده . فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد . وكان ذلك كله حقا يقينا (ما زاغ البصر وما طغى) فلم يكن زغللة عين ، ولا تجاوز رؤية . إنما هى المشاهدة الواضحة المحققة ، التى لا تحتمل شكا ولا ظنا . وقد عاين فيها من آيات ربه الكبرى ، واتصل قلبه بالحقيقة مباشرة مكشوفة . ذلك هو الأمر المستيقن ، الذى يدعوهم إليه محمد ﷺ فأما هم فعلام يستدنون فى عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون فى عبادتهم للات والعزى ومناة ؟ وفى ادعائهم الغامض أنهن ملائكة ، وأن الملائكة بنات الله ؟ وأن لهن شفاعة ترتجى عند الله ؟ إلى أى بينة ؟ وإلى أية حجة ؟ وإلى أى سلطان يرتكنون فى هذه الأوهام ؟ هذا ما يعالجه المقطع الثانى فى السورة وكانت (اللات) صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عندهم الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام . ويظن ان اسمها [اللات] مؤنث لفظ الجلالة "الله" . سبحانه وتعالى . وكانت] العزى] شجرة عليها بناء وأستار بنخلة – وهى بين مكة والطائف – وكانت قريش تعظمها . كما قال أبو سفيان يوم أحد . لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول اللهﷺ :" قولوا:الله مولانا ولا مولى لكم " . ويظن أن اسمها [العزى] مؤنث (العزيز) وكانت] مناة] بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة . وكانت خزاعة والاوس والخزرج فى جاهليتهم يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة . وكان بالجزيرة كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة . ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها . والمظنون أن هذه المعبودات كانت رموزا لملائكة يعتبرهن العرب إناثا ويقولون:إنهن بنات الله . ومن هنا جاءت عبادتها ، والذى يقع غالبا أن ينسى الأصل ، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد . ولا تبقى إلا قلة متنورة هى التى تذكر أصل الأسطورة ! فلما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجبا منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟) والتعجيب والتشهير واضح فى افتتاح السؤال (أفرأيتم ؟) وفى الحديث عن مناة . . الثالثة الأخرى لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور (ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى) مما يوحى بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة ، ونسبتها إلى الله سبحانه . مما يرجح ما ذكرناه عنها . وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم . ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثا – وهم لا يعلمون عنهم شيئا يلزمهم بهذا التصوير . وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله ! والله – سبحانه – يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ؛ ويسخر منها ومنهم:(ألكم الذكر وله الأنثى ؟). . إنها إذن قسمة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله ! (تلك إذن قسمة ضيزى !) والمسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع . ولا حجة فيها ولا دليل (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)! هذه الأسماء . اللات . العزى . مناة . . وغيرها . وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة . وتسمية الملائكة إناثا . وتسمية الإناث بنات الله . . . كلها أسماء لا مدلول لها , ولا حقيقة وراءها . ولم يجعل الله لكم حجة فيها . وكل ما لم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له . لأنه لا حقيقة له . وللحقيقة ثقل . وللحقيقة قوة . وللحقيقة سلطان فأما الأباطيل فهى خفيفة لا وزن لها . ضعيفة لا قوة لها . مهينة لا سلطان فيها . وفى منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم ، ويترك خطابهم ، ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) فلا حجة ولا علم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل . والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى ؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض . . وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) فانقطع العذر وبطل التعلل ! ومن ثم يسأل فى استنكار (أم للإنسان ما تمنى ؟) فكل ما يتمنى يتحول إلى حقيقة وكل ما يهوى ينقلب إلى واقع ! والأمر ليس كذلك . فإن الحق حق والواقع واقع . وهوى النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان فى الحقائق . إنما يضل الإنسان بهواه ، ويهلك بمناه . وهو أضعف من أن يغير أو يبدل فى طبائع الأشياء . وإنما الأمر كله لله يتصرف فيه كما يشاء فى الدنيا وفى الآخرة سواء (فلله الآخرة والأولى) ولا ننسى أن نلحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى . لمراعاة قافية السورة وإيقاعها . إلى جانب النكتة المعنوية المقصودة بتقديم الآخرة على الأولى . كما هى طبيعة الأسلوب القرآنى فى الجمع بين أداء المعنى وتنغيم الإيقاع . دون إخلال بهذا على حساب ذاك ! شأنه شأن كل ما هو من صنع الله . فالجمال فى الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخيها ! وإذا خلص الأمر كله لله فى الآخرة والأولى . فإن أوهام المشركين عن شفاعة الآلهة المدعاة – من الملائكة – لهم عند الله . لا أصل لها . فالملائكة الحقة فى السماء لا تملك الشفاعة إلا حين يأذن الله فى شىء منها (وكم من ملك فى

السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وفى نهاية الفقرة يناقش للمرة الأخيرة أوهام المشركين – الذين لا يؤمنون بالآخرة – عن الملائكة ؛ ويكشف عن أساسها الواهى ، الذى لا ينبغى أن تقوم عليه عقيدة أصلا (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) وهذا التعقيب الأخير يوحى بعلاقة اللات والعزى ومناة بأسطورة أنوثة الملائكة ونسبتهم إلى الله سبحانه ! وهى أسطورة واهية ، لا يتبعون فيها إلا الظن . فليس لهم من وسيلة لأن يعلموا شيئا مستيقنا عن طبيعة الملائكة . فأما نسبتهم إلى الله . فهى الباطل الذى لا دليل عليه إلا الوهم الباطل ! وكل هذا لا يغنى من الحق ، ولا يقوم مقامه فى شىء . الحق الذى يتركونه ويستغنون عنه بالأوهام والظنون ! وحين يبلغ إلى هذا الحد من بيان وهن عقيدة الشرك وتهافتها عند الذين لا يؤمنون بالآخرة , ويشركون بالله ، وينسبون له البنات ويسمون الملائكة تسمية الأنثى ! يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش – إلا اللمم – إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى) هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا . موجه ابتداء إلى الرسول ﷺ ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث فى السورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة . الذين لا يؤمنون بالله ;ولا يبتغون شيئا وراء الحياة الدنيا . فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة , قاصرون عن إدراكها ، واقفون وراء الأسوار . أسوار الحياة الدنيا . (ذلك مبلغهم من العلم) وهو مبلغ تافه مهما بدا عظيما . قاصر مهما بدا شاملا . مضلل مهما بدا هاديا . وما يمكن أن يعلم شيئا ذا قيمة من يقف بقلبه وحسه وعقله عند حدود هذه الأرض (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وقد علم أن هؤلاء ضالون . فلم يرد لنبيه ولا للمهتدين من أمته أن يشغلوا أنفسهم بشأن الضالين . ولا أن يصاحبوهم . ولا أن يحفلوهم . ولا أن يخدعوا فى ظاهر علمهم المضلل القاصر ، الذى يقف عند حدود الحياة الدنيا . ويحول بين الإدراك البشرى والحقيقة الخالصة ، التى تقود من يدركها إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالأخرة ، وتتخطى به حدود هذه الأرض القريبة ، وهذه الحياة الدنيا المحدودة . ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعاون ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) ثم هذا التقرير لملكية الله – وحده – لما فى السماوات وما فى الأرض ، يمنح قضية الآخرة قوة وتأثيرا . فالذى جعل الآخرة وقدرها هو الذى يملك ما فى السماوات وما فى الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المالك لأسبابه . ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل: ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى (ولله ما فى السماوات وما فى الأرض . ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ثم يحدد الذين أحسنوا هؤلاء ، والذين يجزيهم بالحسنى . . فهم (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا اللمم) وكبائر الإثم هى كبار المعاصى . والفواحش كل ما عظم من الذنب وفحش . واللمم تختلف الأقوال فيه . فابن كثير يقول:وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغار الذنوب ومحقرات الأعمال . وختم الآية بأن هذا الجزاء بالسوءى وبالحسنى مستند إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس فى أطوارهم كلها (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) ومن كانت هذه طبيعة علمه يكون من اللغو – بل من سوء الأدب – أن يعرفه إنسان بنفسه ,وأن يعلمه – سبحانه – بحقيقته ! وأن يثنى على نفسه أمامه يقول له:أنا كذا وأنا كذا (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) فما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم ، ولا أن تزنوا له أعمالكم ؛ فعنده العلم الكامل . وعنده الميزان الدقيق . وجزاؤه العدل . وقوله الفصل . وإليه يرجع الأمر كله .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى {٣٣} وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى {٣٤} أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى {٣٥} أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى {٣٦} وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى {٣٧} أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى {٣٨} وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى {٣٩} وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى {٤٠} ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى {٤١} وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى {٤٢} وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى {٤٣} وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا {٤٤} وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى {٤٥} من نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى {٤٦} وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى {٤٧} وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى {٤٨} وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى {٤٩} وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى {٥٠} وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى {٥١} وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى {٥٢} وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى {٥٣} فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى {٥٤} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى {٥٥} هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ

الْأُولَى{٥٦} أَزِفَتِ الْآزِفَةُ{٥٧} لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ{٥٨} أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ{٥٩} وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ{٦٠} وَأَنتُمْ سَامِدُونَ{٦١} فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا){٦٢}

بعد ذلك يجيء المقطع الأخير فى السورة . فى إيقاع كامل التنغيم ، أشبه بإيقاع المقطع الأول . يقرر الحقائق الأساسية للعقيدة كما هى ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى . ويعرف البشر بخالقهم ، بتعليمهم بمشيئته الفاعلة المبدعة المؤثرة فى حياتهم ويعرض آثارها واحدا واحدا بصورة تلمس الوجدان البشرى وتذكره وتهزه هزا عميقا . . حتى إذا كان الختام وكان الإيقاع الأخير تلقته المشاعر مرتجفة مرتعشة متأثرة مستجيبة وذلك (الذى تولى ، وأعطى قليلا وأكدى) الذى يعجب الله من أمره الغريب ، تذكر بعض الروايات أنه فرد معين مقصود ، أنفق قليلا فى سبيل الله ، ثم انقطع عن البذل خوفا من الفقر . وقد يكون المقصود شخصا بذاته . وقد يكون نموذجا من الناس سواء . فالذى يتولى عن هذا النهج ، ويبذل من ماله أو من نفسه لهذه العقيدة ثم يكدى - أى يضعف عن المواصلة ويكف - أمره عجيب ، يستحق التعجيب ويتخذ القرآن من حاله مناسبة لعرض حقائق العقيدة وتوضيحها(أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) والغيب لله . لا يراه أحد سواه . فلا يأمن الإنسان ما خبئ فيه ؛ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يعيش حذرا موفيا طوال حياته ؛ وألا يبذل ثم ينقطع ، ولا ضمان له فى الغيب المجهول إلا حذره وعمله ووفاؤه ، ورجاؤه بهذا كله فى مغفرة الله وقبوله (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى) وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده ، يصدق بعضه بعضا على توالى الرسالات والرسل ، وتباعد المكان والزمان . فهو فى صحف موسى . وهو فى ملة إبراهيم قبل موسى . إبراهيم الذى وفى . وفى بكل شيء . فماذا فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ؟ فيها (ألا تزر وازرة وزر أخرى) فلا تحمل نفس حمل أخرى ؛ لا تخفيفا عن نفس ولا تثقيلا على أخرى . فلا تملك نفس أن تتخفف من حملها ووزرها . ولا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئا ! (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فما يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله . لا يزاد عليه شيء من عمل غيره . ولا ينقص منه شيء لينال غيره . وهذه الحياة الدنيا هى الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى . فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل . إلا ما نص عليه حديث رسول الله ﷺ فى قوله:" إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث:من ولد صالح يدعو له . أو صدقة جارية من بعده . أو علم ينتفع به " وهذه الثلاثة فى حقيقتها من عمله (وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى) فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ سعيه وافيا كاملا لا نقس فيه ولا ظلم . وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقا راشدا مسؤولا مؤتمنا على نفسه ؛ كريما تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لا يميل بها الهوى ، ولا يقعد بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور (وأن إلى ربك المنتهى) فلا طريق إلا الطريق الذى ينتهى إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره:فى نعيم أو جحيم . وبعدما يصل السياق بالقلب البشرى إلى نهاية المطاف يكر راجعا به إلى الحياة ، يريه فيها آثار مشيئة الله . فى كل مرحلة ، وفى كل حال (وأنه هو أضحك وأبكى) وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبعث صور وظلال موحية مثيرة . أضحك وأبكى . فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء . وهما سر من أسرار التكوين البشرى لا يدرى أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان فى هذا الجهاز المركب المعقد ، الذى لا يقل تركيبه وتعقيده النفسى عن تركيبه وتعقيده العضوى . والذى تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان فى إحداث الضحك وإحداث البكاء . وأضحك وأبكى . . فأنشأ للإنسان دواعى الضحك ودواعى البكاء . وجعله - وفق أسرار معقدة فيه - يضحك لهذا ويبكى لهذا . وقد يضحك غدا مما أبكاه اليوم . ويبكى اليوم مما أضحكه بالأمس . فى غير جنون ولا ذهول إنما هى الحالات النفسية المتقلبة . والموازين والدواعى والدوافع والاعتبارات التى لا تثبت فى شعوره على حال ! وأضحك وأبكى . . فجعل فى اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين . كل حسب المؤثرات الواقعة عليه . وقد يضحك فريق مما يبكى منه فريق . لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك . . وهو هو فى ذاته . ولكنه بملابساته بعيد من بعيد ! وأضحك وأبكى . من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره فإذا هو باك . يتمنى أن لم يكن وأن لم يكن ضحك وكم من ضاحك فى الدنيا باك فى الآخرة حيث لا ينفع البكاء ! هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال . . وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير ,وتتراءى للحس والشعور . وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب ; وكلما تجددت عوامل الضحك والبكاء فى النفوس - وهذا هو الإعجاز فى صورة من صوره الكثيرة فى هذا القرآن (وأنه هو أمات وأحيا) وكذلك تنبثق من هذا النص صور لا عداد لها فى الحس . أمات وأحيا . . أنشأ الموت والحياة ، كما قال فى سورة أخرى. . وتنبثق

ملايين الصور من الموت والحياة . في عوالم الأحياء كلها في اللحظة الواحدة . في هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) وهى الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة في كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهى أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال ! نطفة تمنى . . تراق . . إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط ! فإذا هي بعد فترة مقدورة في تدبير الله . . إذا هي ماذا ؟ إذا هي إنسان ! وإذا هذا الإنسان ذكر وأنثى ! كيف ؟ كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن – لولا وقوعها – تخطر على الخيال ؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المعقد الشديد التعقيد ؟ ومن النشأة الأولى . وهي واقعة مكرورة لا ينكرها منكر ، يتجه مباشرة إلى النشأة الأخرى . (وأن عليه النشأة الأخرى) والنشأة الأخرى غيب . ولكن عليه من النشأة الأولى دليل . دليل على إمكان الوقوع . فالذى خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، قادر – ولا شك – على إعادة الخلق من عظام ورفات . فليست العظام والرفات بأهون من الماء المراق ! ودليل على حكمة الوقوع . فهذا التدبير الخفي الذى يقود الخلية الحية الصغيرة في طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكرا أو أنثى . هذا التدبير لا بد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التى لا يتم فيها شيء كامل ؛ ولا يجد المحسن جزاء أحسانه كاملا ، ولا المسيء جزاء إساءته كاملا كذلك . لأن فى حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شيء تمامه . فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة . ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى . وفى النشأة الأولى . وفى النشأة الأخرى . يغنى الله من يشاء من عباده ويقنيه (وأنه هو أغنى وأقنى) أغنى من عباده من شاء في الدنيا بأنواع الغنى وهي شتى . غنى المال . وغنى الصحة . وغى الذرية . وغنى النفس . وغنى الفكر . وغنى الصلة بالله والزاد الذى ليس مثله زاد . وأغنى من عباده من شاء فى الآخرة من غنى الآخرة ! وأقنى من شاء من عباده . من كل ما يقتنى فى الدنيا كذلك وفى الآخرة !(وأنه هو رب الشعرى) والشعرى نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس . وهى أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا . وقد كان هناك من يعبد هذا النجم . وكان هناك من يرصده كنجم ذى شأن . فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه فى السورة التى تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؛ وتتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى ؛ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفي عقيدة الشرك الواهية المتهافتة . وبهذا تنتهى تلك الجولة المديدة في الأنفس والآفاق ، لتبدأ بعدها جولة فى مصارع الغابرين ,بعدما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب المشركون . وهي جولة مع قدرة الله ومشيئته وآثارها فى الأمم قبلهم واحدة واحدة (وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) إنها جولة سريعة . تتألف من وقفة قصيرة على مصرع كل أمة ، ولمسة عنيفة تخز الشعور وخزا . وعاد وثمود وقوم نوح يعرفهم قارئ القرآن في مواضع شتى ! والمؤتفكة هى أمة لوط . من الإفك والبهتان والضلال . . وقد أهواها في الهاوية وخسف بها(فغشاها ما غشى). بهذا التجهيل والتضخيم والتهويل ،الذى تتراءى من خلاله صور الدمار والخسف والتنكيل ,الذى يشمل كل شيء ويغشاه فلا يبين (فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء لله وأفضالا . ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعى ؟ أليست هذه كلها آلاء . فبأى آلاء ربك تتمارى ! الخطاب لكل أحد . ولكل قلب ، ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى فى البلوى ! وعلى مصارع الغابرين المكذبين بالنذر – بعد استعراض مظاهر المشيئة وآثارها في الأنفس والآفاق – يلقى بالإيقاع الأخير قويا عميقا عنيفا . كأنه صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى (هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة) هذا الرسول الذى تتمارون في رسالته وفى نذارته . هذا نذير من النذر الأولى التى أعقبها ما أعقبها ! وقد أزفت الآزفة . واقتربت كاسحة جارفة . وهى الطامة والقارعة التى جاء هذا النذير يحذركم إياها أو هو هول العذاب الذى لا يعلم إلا الله نوعه وموعده . ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه (ليس لها من دون الله كاشفة) وبينما الخطر الداهم قريب . والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة . إذا أنتم سادرون لاهون لا تقدرون الموقف ولا تفيقون (أفمن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ وأنتم سامدون . . .) وهذا الحديث جد عظيم يلقى على كاهل الناس واجبات ضخمة وفي الوقت ذاته يقودهم إلى المنهج الكامل . فمم يعجبون ؟ ومم يضحكون ؟ وهذا الجد الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة ,وما ينتظر الناس من حساب على حياتهم فى الأرض . . كله يجعل البكاء أجدر بالموقف الجد ، وما وراءه من الهول والكرب . . وهنا يرسلها صيحة مدوية ، ويصرخ فى آذانهم وقلوبهم ، ويهتف بهم إلى ما ينبغى أن يتداركوا به أنفسهم ، وهم على حافة الهاوية تعقيب على السجود والسيرة والتعليل (فاسجدوا لله واعبدوا) وإنها لصيحة مزلزلة مذهلة فى هذا السياق ، وفى هذه الظلال ، وبعد هذا التمهيد الطويل , الذى ترتعش له القلوب ومن ثم سجدوا . سجدوا وهم مشركون . وهم يمارون فى الوحى والقرآن . وهم يجادلون فى الله والرسول ! سجدوا تحت هذه المطارق

الهائلة التى وقعت على قلوبهم والرسول ﷺ يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجد فيسجد الجميع . مسلمين ومشركين . لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان . . ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم فى ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون ! بهذا تواترت الروايات . ثم افترقت فى تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو فى الحقيقة بالغريب . فهو تأثير القرآن العجيب ووقعه الهائل فى القلوب ! هذا الحادث الذى تواترت به الروايات . حادث سجود المشركين مع المسلمين . كان يحتاج عندى إلى تعليل . قبل أن تقع لى تجربة شعورية خاصة عللته فى نفسى ، وأوضحت لى سببه الأصيل . وكنت قد قرأت تلك الروايات المفتراة عما سمى بحديث الغرانيق ، الذى أورده ابن سعد فى طبقاته ، وابن جرير الطبرى فى تاريخه . وبعض المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) وهى الروايات التى قال فيها ابن كثير - جزاه الله خيرا - [ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح] .

سورة القمر
مكية و آياتها ٥٥

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر , بقدر ما هى طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة . وهى مقسمة إلى حلقات متتابعة ، كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين ، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشرى فيضغطه ويهزه ويقول له (فكيف كان عذابى ونذر ؟) . ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) ومحتويات السورة الموضوعية واردة فى سور مكية شتى . فهى مشهد من مشاهد القيامة فى المطلع ، ومشهد من هذه المشاهد فى الختام . وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد وثمود . وقوم لوط . وفرعون وملئه . وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية فى صور شتى . ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض فى هذه السورة عرضا خاصا ، يحيلها جديدة كل الجدة . فهى تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة ؛ يفيض منها الهول ، ويتناثر حولها الرعب ، ويظللها الدمار والفزع والانبهار ! وأخص ما يميزها فى سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة . يشهدها المكذبون ، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها . فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعبا . . وهكذا حتى تنتهى الحلقات السبعة فى هذا الجو المفزع الخانق . فيطل المشهد الأخير فى السورة . وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد المتقين (إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليک مقتدر) فى وسط ذلک الهول الراجف ، والفزع المزلزل ، والعذاب المهين للمكذبين) (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) فأين وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟ مطلع باهر مثير ، على حادث كونى كبير ، وإرهاص بحادث أكبر . لا يقاس إليه ذلک الحدث الكونى الكبير (اقتربت الساعة وانشق القمر) فيا له من إرهاص ! ويا له من خبر . ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر . والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة . تتفق كلها فى إثبات وقوع الحادث ، وتختلف في رواية هيئته تفصيلا وإجمالا ، وهو حادث واجه به القرآن المشركين فى حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أن يكون قد وقع فعلا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذى كانوا يمارونه فى الآيات ، لو وجدوا منفذا للتكذيب ، وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائما إلى الآيات الكونية الأخرى ؛ ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى . وفى مطلع هذه السورة تجىء تلک الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعا يهز القلب البشرى هزا . وهو يتوقع الساعة التى اقتربت ، ويتأمل الآية التى وقعت ، ويتصور أحداث الساعة فى ظل هذا الحدث الكونى الذى رآه المخاطبون بهذا الإيقاع المثير . ومع اقتراب الموعد المرهوب ، ووقوع الحادث الكونى المثير ، وقيام الآيات التى يرونها فى صور شتى . . فإن تلک القلوب كانت تلج فى العناد ، وتصر على الضلال ، ولا تتأثر بالوعيد كما لا تتأثر بإيقاع الآيات الكثيرة الكافية للعظة والكف عن التكذيب (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا:سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر . ولقد أعرضوا وقالوا:سحرنا ، وهم يرون آية الله فى انشقاق القمر . وكان هذا رأيهم مع آية القرآن . فقالوا:سحر يؤثر . فهذا قولهم كلما رأوا آية . ولما كانت الآيات متوالية متواصلة ، فقد قالوا:إنه سحر مستمر لا ينقطع ، معرضين عن تدبر طبيعة الآيات (وكل أمر مستقر) فكل شيء فى موضعه فى هذا الوجود الكبير . وكل أمر فى مكانه الثابت الذى لا يتزعزع ولا يضطرب . فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار ، لا على الهوى المتقلب ، والمزاج المتغير ؛ أو المصادفة العابرة والارتجال العارض (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) أنباء الآيات الكونية التى صرفها الله لهم فى هذا القرآن ؛ وأنباء المكذبين قبلهم ومصارعهم ، وأنباء الآخرة التى صورها القرآن لهم . . وكان فى هذا كله زاجر ورادع لمن يزدجر ويرتدع . وكان فيه من حكمة الله ما يبلغ القلوب ويوجهها إلى تدبيره الحكيم ، وعند هذا الحد من تصوير إعراضهم وإصرارهم ، وعدم انتفاعهم بالأنباء ، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء . يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذى لا يحفلون النذير باقترابه ، وهم يرون انشقاق القمر بين يدى مجيئه (تول عنهم يوم يدعو الداعى إلى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث

كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون:هذا يوم عسر) وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ؛ ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة ، ومع الإنباء بانشقاق القمر ، ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كذلك ! هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر [ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض] وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه . . وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون (هذا يوم عسر) وهي قولة المكروب المجهود ، الذي يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرعيب! . وبعد هذا الإيقاع العنيف في مطلع السورة ؛ والمشهد المكروب الذي يشمل المكذبين في يوم القيامة . . يأخذ في عرض مشاهد التنكيل والتعذيب الذي أصاب بالفعل أجيال المكذبين قبلهم ، وعرض مصارع الأمم التي سلكت من قبل مسلكهم ، بادئا بقوم نوح (كذبت قبلهم قوم نوح) بالرسالة وبالآيات (فكذبوا عبدنا) نوحا (وقالوا:مجنون) كما قالت:قريش ظالمة عن محمد ﷺ وهددوه بالرجم ، وآذوه بالسخرية , وطالبوه أن يكف عنهم ونهروه بعنف (وازدجر). بدلا من أن ينزجروا هم ويرعووا ! عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله وكلفه مهمة التبليغ . عاد لينهي إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما انتهى إليه جهده وعمله ؛ وما انتهت إليه طاقته ووسعه . ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول (فدعا ربه:أني مغلوب . فانتصر) انتهت طاقتي . انتهى جهدي . انتهت قوتي . وغلبت على أمري (أني مغلوب فانتصر) انتصر أنت يا ربي . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك . انتصر لمنهجك . انتصر أنت فالأمر أمرك , والدعوة دعوتك . وقد انتهى دوري ! وما تكاد هذه الكلمات تقال ؛ وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة . . فتدور دورتها المدوية المجلجلة (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) وهي حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة . تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة (ففتحنا) فيحس القارئ يد الجبار تفتح (أبواب السماء) بهذا اللفظ وبهذا الجمع (بماء منهمر) غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها (وفجرنا الأرض عيونا) وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيونا . والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض(على أمر قد قدر) التقيا على أمر مقدر ، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طائعان للأمر ، محققان للقدر . حتى إذا صار طوفانا يطم ويعم ، ويغمر وجه الأرض ، ويطوي الدنس الذي يغشى هذا، فتحرك لها الكون كله . امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم (وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر) وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها . فهي ذات ألواح ودسر . توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها . وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه (جزاء لمن كان كفر)وجحد وازدجر . وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل ؛ والمحق الحاسم الشامل ، يتوجه إلى القلوب التي شهدت المشهد كأنها تراه . يتوجه إليها بلمسة التعقيب ، لعلها تتأثر وتستجيب (ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟) هذه الواقعة بملابساتها المعروفة . تركناها آية للأجيال (فهل من مدكر ؟)يتذكر ويعتبر ؟ ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذير (فكيف كان عذابي ونذر ؟) ولقد كان كما صوره القرآن . كان عذابا مدمرا جبارا . وكان نذيرا صادقا بهذا العذاب . وهذا هو القرآن حاضرا ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر . فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة واستجاشة الطبع ، لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد . وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنسا (ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟) وهذا هو التعقيب الذي يتكرر ، بعد كل مشهد يصور (كذبت عاد ، فكيف كان عذابي ونذر ؟) وهذه هي الحلقة الثانية ، أو المشهد الثاني من مشاهد التعذيب العنيف ؛ والمصرع الذي يقف عليه بعد وقفته على مصرع قوم نوح . أول المهلكين . يبدؤه بالإخبار عن تكذيب عاد . وقبل أن يكمل الآية يسأل سؤال التعجيب والتهويل (فكيف كان عذابي ونذر ؟) كيف كان بعد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) والريح الصرصر هي :الباردة العنيفة . وجرس اللفظ يصور نوع الريح . والنحس هو :الشؤم . وأي نحس يصيب قوما أشد مما أصاب عاد . والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطمهم . فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها ؟!(فكيف كان عذابي ونذر ؟) يكررها بعد عرض المشهد . والمشهد هو الجواب ! ثم يختم الحلقة بالتعقيب المكرر في السورة وفق نسقها الخاص (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) ثم يمضي إلى المشهد التالي في السياق وفي التاريخ (كذبت ثمود بالنذر . فقالوا:أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا

أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟) وثمود كانت القبيلة التي خلفت عادا فى القوة والتمكين في جزيرة العرب . . كانت عاد فى الجنوب وكانت ثمود في الشمال . وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور المعلوم فى أنحاء الجزيرة (فقالوا:أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لفى ضلال وسعر . أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر) وهى الشبهة المكرورة التي تحيك فى صدور المكذبين جيلا بعد جيل (أألقى الذكر عليه من بيننا) كما أنها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، إنما تنظر إلى شخص الداعية (أبشرا منا واحدا نتبعه ؟) وماذا فى أن يختار الله واحدا من عباده . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . . فيلقى عليه الذكر – أى الوحى وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر – ماذا فى هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيؤه واستعداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر ؟ إنها شبهة واهية لا تقوم إلا فى النفوس المنحرفة . ومن ثم يتهمون رسولهم الذى اختاره الله ليقودهم فى طريق الحق والقصد . يتهمونه بالكذب والطمع (بل هو كذاب أشر) كذاب لم يلق عليه الذكر . أشر: شديد الطمع فى اختصاص نفسه بالمكانة ! وهو الاتهام الذى يواجه به كل داعية . اتهامه بأنه يتخذ الدعوة ستارا لتحقيق مآرب ومصالح . وهى دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب . وبينما يجرى السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت فى التاريخ . . يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر . والأحداث جارية . فيتحدث عما سيكون . ويهدد بهذا الذى سيكون (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر)! وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص . وهى طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية فى القصة ، وتحيلها من حكاية تحكى ، إلى واقعة تعرض على الأنظار ، يترقب النظارة أحداثها الآن ، ويرتقبونها فى مقبل الزمان !وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة . ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة . فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر ! (إنا مرسلو الناقة فتنة لهم . فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . كل شرب محتضر) ويقف القارئ يترقب ما سيقع ، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم ، وامتحانا مميزا لحقيقتهم . ويقف الرسول – رسولهم عليه السلام – مرتقبا ما سيقع ، مؤتمرا بأمر ربه فى الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان . ومعه التعليمات . . أن الماء فى القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة – ولا بد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة – فيوم لها ويوم لهم – تحضر يومها ويحضرون يومهم . وتنال شربها وينالون شربهم . ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية . فيقص ما كان بعد ذلك منهم (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين فى المدينة ، الذين قال عنهم فى سورة النمل (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وهو الذى قال عنه فى سورة الشمس (إذ انبعث أشقاها) وقيل:إنه تعاطى الخمر فسكر ليصير جريئا على الفعلة التي هو مقدم عليها . وهى عقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم ؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) و تمت الفتنة ووقع البلاء (فكيف كان عذابى ونذر ؟) وهو سؤال التعجيب والتهويل . قبل ذكر ما حل من العذاب بعد النذر (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) ولا يفصل القرآن هذه الصيحة . وإن كانت فى موضع آخر فى سورة "فصلت" توصف بأنها صاعقة (فإن أعرضوا فقل:أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) وقد تكون كلمة صاعقة وصفا للصيحة . فهى صيحة صاعقة . وقد تكون تعبيرا عن حقيقتها . فتكون الصيحة والصاعقة شيئا واحدا . وقد تكون الصيحة هى صوت الصاعقة . أو تكون الصاعقة أثرا من آثار الصيحة التى لا ندرى من صاحبها! وأمام هذا المشهد العنيف المخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا . وهو ميسر للتذكر والتدبر (ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟) ويسدل الستار على الهشيم المهين . وفى العين منه مشهد . وفى القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر ، ثم يرفع الستار عن حلقة جديدة تالية – بعد ذلك – فى التاريخ ، فى محيط الجزيرة العربية كذلك (كذبت قوم لوط بالنذر) وقصة قوم لوط وردت مفصلة فى مواضع أخرى . والمقصود بعرضها هنا ليس هو تفصيلاتها ، إنما هي العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد . من ثم تبدأ بذكر ما وقع منهم من تكذيب بالنذر (كذبت قوم لوط بالنذر) وعلى إثر هذه الإشارة يصف ما نزل بهم من النكال (إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر) والحاصب هو:الريح تحمل الحجارة . وفى مواضع أخرى ورد أنه أرسل إليهم حجارة من طين ، ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو المشهد . ولم ينج إلا آل لوط – إلا امرأته – نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم (كذلك نجزى من شكر) فننجيه وننعم عليه فى وسط المهالك والمخاوف . والآن وقد عرض القصة من طرفيها:طرف التكذيب وطرف الأخذ الشديد . فإنه يعود لشىء من التفصيل فيما وقع بين الطرفين . وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة حين يراد إبراز إيحاءات معينة من إيرادها فى هذا النسق . هذه التفصيلات هي (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) وظالما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذى كانوا يأتونه ، فتماروا بالنذر ، وشكوا فيها

وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبيهم فيه . وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه – من الملائكة – وقد حسبوهم غلمانا صباحا فهاج سعارهم الشاذ الملوث القذر ! عندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك الملائكة لأداء ما كلفوه وجاءوا من أجله (فطمسنا أعينهم) فلم يعودوا يرون شيئا ولا أحدا ؛ ولم يعودوا يقدرون على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه ! وبينما السياق يجرى مجرى الحكاية ، إذا به حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين(فذوقوا عذابى ونذر) فهذا هو العذاب الذى حذرتم منه ، وهذه هى النذر التى تماريتم فيها ! وكان طمس العيون فى المساء . . فى انتظار الصباح الذى قدره الله لأخذهم جميعا (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) وهو ذلك العذاب الذى عجل بذكره فى السياق . وهو الحاصب الذى طهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد . ومرة أخرى تتغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع . وينادى المعذبون وهم يعانون العذاب (فذوقوا عذابى ونذر)!!! ثم يجىء التعقيب المألوف ، عقب المشهد العنيف (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وتختم هذه الحلقات بحلقة خارج الجزيرة ، ومصرع من المصارع المشهورة المذكورة . فى إشارة سريعة خاطفة (ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) وهكذا تختصر قصة فرعون وملئه فى طرفيها:مجئ النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التى جاءهم بها رسولهم . وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقى ظلال الشدة فى الأخذ ؛ وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغى والظلم . فقد ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم . وأخذه الله أخذ عزيز حقا مقتدر صدقا . أخذهم أخذا شديدا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت . وعلى هذه الحلقة الأخيرة على مصرع فرعون الجبار . يسدل الستار . . والآن . وقد أسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد العذاب والنكال . والمكذبون يشهدون ؛ ويتلقى حسهم إيقاع هذه المشاهد:الآن والمصارع المتتالية حاضرة فى خيالهم ، ضاغطة على حسهم . . الآن يتوجه إليهم بالخطاب ؛ يحذرهم مصرعا كهذه المصارع . وينذرهم ما هو أدهى وأفظع ... إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وإسقاط كل شبهة وكل شك فى صدق هذا الإنذار وسد كل ثغرة وكل طمع فى الهرب والفكاك ؛ أو المغالطة فى الحساب والفرار من الجزاء ! تلك كانت مصارع المكذبين . فما يمنعكم أنتم من مثل ذلك المصير (أكفاركم خير من أولئكم) وما ميزة كفاركم على أولئكم (أم لكم براءة فى الزبر) تشهد بها الصحائف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائر الكفر والتكذيب ؟ لا هذه ولا تلك . فلستم خيرا من أولئكم ، وليست لكم براءة فى الصحائف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذى لقيه الكفار من قبلكم فى الصورة التى يقدرها الله لكم . ثم يلتفت عن خطابهم إلى خطاب عام ، يعجب فيه من أمرهم (أم يقولون:نحن جميع منتصر) وذلك حين يرون جمعهم فتعجبهم قوتهم ، ويغترون بتجمعهم ، فيقولون:إنا منتصرون لا هازم لنا ولا غالب ؟ هنا يعلنها عليهم مدوية قاضية حاسمة (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فلا يعصمهم تجمعهم ، ولا تنصرهم قوتهم . والذى يعلنها عليهم هو القهار الجبار . . ولقد كان ذلك . كما لا بد أن يكون ! قال البخارى بإسناده إلى ابن عباس –:إن النبى ﷺ قال وهو فى قبة له يوم بدر:" أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبدا " . فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده , وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يثب فى الدرع ، وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر . . .) وكانت هذه هزيمة الدنيا . ولكنها ليست هى الأخيرة . وليست هى الأشد والأدهى ؛ فهو يضرب عن ذكرها ليذكر الأخرى (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه فى هذه الأرض وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوما فيما مر . من الطوفان ، إلى الصرصر . إلى الصاعقة . إلى الحاصب . إلى أخذ فرعون وآله أخذ عزيز مقتدر ! ثم يفصل كيف هى أدهى وأمر . يفصل هذا فى مشهد عنيف من مشاهد القيامة (إن المجرمين فى ضلال وسعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) فى ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفى سعر تكوى الجلود والأبدان . فى مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل: أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذا لفى ضلال وسعر . ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السعر ! وهم يسحبون فى النار على وجوههم فى عنف وتحقير ، فى مقابل الإعتزاز بالقوة والاستكبار . وهم يزادون عذابا بالإيلام النفسى ، الذى كأنما يشهد اللحظة حاضرا معروضا على الأسماع والأنظار: (ذوقوا مس سقر) وفى ظل هذا المشهد المروع المزلزل يتجه بالبيان إلى الناس كافة ، وإلى القوم خاصة . ليقر فى قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره . إن ذلك الأخذ فى الدنيا ، وهذا العذاب فى الآخرة . وما كان قبلهما من رسالات ونذر , ومن قرآن وزبر . وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود . إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة . لا شىء جزاف . لا شىء عبث . لا شىء مصادفة . لا شىء ارتجال (إنا كل شىء خلقناه بقدر) كل شىء . . كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شىء . . خلقناه بقدر . . ومع التقدير والتدبير ، القدرة التى تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات (وما أمرنا

إلا واحدة كلمح بالبصر) فهي إشارة واحدة . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر:الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر . إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشرى ناشيء من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له فى حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة ! وبواحدة كان هلاك المكذبين على مدار القرون . وفي هذه يذكرهم بمصير أمثالهم من المكذبين (ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ؟ وكل شيء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطرئ) فهذه مصارع المكذبين ، معروضة فى الحلقات التى تضمنتها السورة من قبل (فهل من مدكر ؟). . يتذكر ويعتبر ؟ ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فوراءهم حساب لا يفلت منه شيء (وكل شيء فعلوه فى الزبر) مسطر فى الصحائف ليوم الحساب (وكل صغير وكبير مستطر) لا ينسى منه شيء وهو مسطور فى كتاب ! وعند هذا الحد من العرض والتعقيب ، يلتفت السياق إلى صفحة أخرى غير صفحة المكذبين . ويعرض صورة أخرى فى ظل وادع أمين . صورة المتقين (إن المتقين فى جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليک مقتدر) وهى صورة للنعيم بطرفيه (فى جنات ونهر) (فى مقعد صدق عند مليک مقتدر) نعيم الحس والجوارح فى تعبير جامع شامل (فى جنات ونهر) يلقى ظلال النعماء واليسر حتى فى لفظه الناعم المنساب . . وليس لمجرد إيقاع القافية تجيء كلمة (نهر) بفتح الهاء . بل كذلک لإلقاء ظل اليسر والنعومة فى جرس اللفظ وإيقاع التعبير ! ونعيم القلب والروح . نعيم القرب والتكريم (فى مقعد صدق عند مليک مقتدر) فهو مقعد ثابت مطمئن ، قريب كريم ، مأنوس بالقرب ، مطمئن بالتمكين . ذلک أنهم المتقون . الخائفون . المترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين:خوفها منه فى الدنيا ، وخوفها يوم القيامة . فمن اتقاه فى العاجلة أمنه فى الآجلة . ومع الأمان فى أفزع موطن ، يغمره بالأنس والتكريم . وعند هذا الإيقاع الهادئ ، فى هذا الظل الآمن ، تنتهى السورة التى حفلت حلقاتها بالفزع والكرب والأخذ والتدمير . فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادئ طعم وروح أعمق وأروح . .وهذه هى التربية الكاملة . تربية العليم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب . وهذا هو التقدير الدقيق لخالق كل شيء بقدر ، وهو اللطيف الخبير . .

سورة الرحمن

مكية ، و آياتها ٧٨

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير ، وأعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة ، في جميل صنعه ، وإبداع خلقه ؛ وفي فيض نعمائه ; وفي تدبيره للوجود وما فيه ؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم . وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين:الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء ، في ساحة الوجود , على مشهد من كل موجود ، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحديا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها ، ويجعل الكون كله معرضا لها , وساحة الآخرة كذلك . ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله ، وفي إيقاع فواصلها . . تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى ، وامتداد التصويت إلى بعيد ؛ كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والإنتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار . . الرحمن . كلمة واحدة . مبتدأ مفردا . . الرحمن كلمة واحدة في معناها الرحمة ، وفي رنتها الإعلان ، والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمن . ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان . تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان . ثم يذكر خلق الإنسان ، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى . البيان . ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله . . الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء المرفوعة . والميزان الموضوع . والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس . والمشرقان والمغربان . والبحران بينهما برزخ لا يبغيان ، وما يخرج منهما وما يجرى فيهما . فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبار . عرض مشهد فنائها جميعا . مشهد الفناء المطلق للخلائق , في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي . الذي إليه تتوجه الخلائق جميعا , ليتصرف في أمرها بما يشاء . وفي ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يجيء التهديد المروع والتحدي الكوني للجن والإنس (سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان) ومن ثم يعرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يعرض في صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد العذاب للمجرمين ، والثواب للمتقين في تطويل وتفصيل . ثم يجيء الختام المناسب لمعرض الآلاء (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) إن السورة كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير . إعلان ينطلق من الملأ الأعلى , فتتجاوب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود .

الرَّحْمَنُ{١} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{٢} خَلَقَ الْإِنسَانَ{٣} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{٤} الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ{٥} وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ{٦} وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ{٧} أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ{٨} وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ{٩} وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ{١٠} فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ{١١} وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ{١٢} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{١٣} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ{١٤} وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ{١٥} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{١٦} رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ{١٧} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{١٨} مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ{١٩} بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ{٢٠} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٢١} يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ{٢٢} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٢٣} وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ{٢٤} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٢٥} كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ{٢٦} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ{٢٧} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٢٨} يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ{٢٩} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٣٠} سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ{٣١} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٣٢} يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ{٣٣} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٣٤} يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ{٣٥} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٣٦} فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ{٣٧} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٣٨} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ{٣٩} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٤٠} يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ{٤١} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٤٢} هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ{٤٣} يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ{٤٤} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٤٥} وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ{٤٦} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٤٧} ذَوَاتَا أَفْنَانٍ{٤٨} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٤٩} فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ{٥٠} فَبِأَيِّ

آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٥١} فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ{٥٢} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٥٣} مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ{٥٤} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٥٥} فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ{٥٦} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٥٧} كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ{٥٨} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٥٩} هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ{٦٠} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٦١} وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ{٦٢} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٦٣} مُدْهَامَّتَانِ{٦٤} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٦٥} فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ{٦٦} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٦٧} فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ{٦٨} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٦٩} فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ{٧٠} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٧١} حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ{٧٢} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٧٣} لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ{٧٤} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٧٥} مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ{٧٦} فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{٧٧} تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ){٧٨}

(الرحمن) . . . هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه ، وإيقاعه وموسيقاه (الرحمن) . . . بهذا الرنين الذى تتجاوب أصداؤه الطليقة المديدة المدوية فى أرجاء هذا الكون ، وفى جنبات هذا الوجود (الرحمن) . . . بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، يجلجل فى طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ; ويتلفت على رنته كل كائن ، وهو يملأ فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب (الرحمن) . . . ويسكت . وتنتهى الآية . ويصمت الوجود كله وينصت ، فى ارتقاب الخبر العظيم . بعد المطلع العظيم . ثم يجىء الخبر المترقب ، الذى يخفق له ضمير الوجود . . . (علم القرآن) هذه النعمة الكبرى التى تتجلى فيها رحمة الرحمن بالإنسان . . القرآن . . الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود . ومنهج السماء للأرض . الذى يصل أهلها بناموس الوجود ; ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذى يقوم عليه الوجود . فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس . القرآن الذى يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجميل ، كأنما يطالعهم أول مرة , فيجدد إحساسهم بوجودهم الذاتى ، كما يجدد إحساسهم بالكون من حولهم . ويزيد فيمنح كل شىء من حولهم حياة نابضة تتجاوب وتتعاطف مع البشر ؛ فإذا هم بين أصدقاء ، ورفاق أحباء , حيثما ساروا أو أقاموا ، طوال رحلتهم على هذا الكوكب ! ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان . فبه يتحقق فى هذا الكائن معنى الإنسان (خلق الإنسان علمه البيان) إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين ، ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين . . فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هذه الخارقة ، فيردنا القرآن إليها ، ويوقظنا لتدبرها , فى مواضع شتى . فما الإنسان ؟ ما أصله ؟ كيف يبدأ ؟ وكيف يعلم البيان ؟ إنه هذه الخلية الواحدة التى تبدأ حياتها فى الرحم . خلية ساذجة صغيرة ، ضئيلة ، مهينة . ترى بالمجهر ، ولا تكاد تبين . وهى لا تبين !!! ولكن هذه الخلية ما تلبث أن تكون الجنين . الجنين المكون من ملايين الخلايا المنوعة . . عظمية . وغضروفية . وعضلية . وعصبية . وجلدية . . ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس ووظائفها المدهشة:السمع . البصر . الذوق . الشم . اللمس . ثم . . ثم الخارقة الكبرى والسر الأعظم:الإدراك والبيان ، والشعور والإلهام . . كله من تلك الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة ، التى لا تكاد تبين ، والتى لا تبين ! وذلك كله لفظ واحد . . ووراءه العبارة . والموضوع . والفكرة . والمشاعر السابقة واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ فى هذا الكيان الإنسانى العجيب الغريب ، بصنعة الرحمن ، وفضل الرحمن (الشمس والقمر بحسبان) إن الشمس ليست هى أكبر ما فى السماء من أجرام . فهنالك فى هذا الفضاء الذى لا يعرف البشر له حدودا ، ملايين الملايين من النجوم ، منها الكثير أكبر من الشمس وأشد حرارة وضوءا . فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس . والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية الاف ضعف . وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة . وهكذا . ولكن الشمس هى أهم نجم بالنسبة لنا – نحن سكان الكوكب الأرضى الصغير ، الذى يعيش هو وسكانه جميعا على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها . وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض . ولكنه ذو أثر قوى فى حياتها . وهو العامل الأهم فى حركة الجزر والمد فى البحار . وحجم الشمس ، ودرجة حرارتها ، وبعدها عنا ، وسيرها فى فلكها . وكذلك حجم القمر وبعده ودورته . . كلها محسوبة حسابا كاملا الدقة بالقياس إلى آثارهما فى حياة الأرض . وبالقياس إلى وضعهما فى الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى (والنجم والشجر يسجدان) وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير فى بناء الكون الكبير . فأما هذه فهى إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهى إشارة موحية إلى حقيقة هادية . إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذى فى السماء . كما فسره بعضهم بأنه النبات الذى لا يستوى على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة فى النص واحد . ينتهى إلى حقيقة

اتجاه هذا الكون وارتباطه . والكون خليقة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها فى حقيقتها واحدة (والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) والإشارة إلى السماء – كباقى الإشارات القرآنية إلى مجالى هذا الكون – تقصد إلى تنبيه القلب الغافل ، وإنقاذه من بلادة الألفة ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسقه وجماله ,وإلى قدرة اليد التى أبدعته وجلالها (ألا تطغوا فى الميزان) فتغالوا وتفرطوا . (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ومن ثم يستقر الوزن بالقسط ، بلا طغيان ولا خسران . ومن ثم يرتبط الحق فى الأرض وفى حياة البشر ، ببناء الكون ونظامه . يرتبط بالسماء فى مدلولها المعنوى حيث يتنزل منها وحى الله ونهجه . ومدلولها المنظور حيث تمثل ضخامة الكون وثباته بأمر الله وقدرته . . ويلتقى هذان المدلولان فى الحس بإيقاعهما وظلالهما الموحية (والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان) ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض ، وألفتنا لأوضاعها وظواهرها ، ولوضعنا نحن كذلك عليها . نحن لهذا كله لا نكاد نحس يد القدرة التى "وضعت" هذه الأرض للأنام . وجعلت استقرارنا عليها ممكنا وميسورا إلى الحد الذى لا نكاد نشعر به . ولا ننتبه إلى ضخامة معنى الاستقرار ، وعظمة نعمة الله علينا فيه إلا بين الحين والحين حين يثور بركان ، أو يمور زلزال ، فيؤرجح هذه الأرض المطمئنة من تحتنا ، فتضطرب وتمور . عندئذ نتذكر معنى الاستقرار الذى نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله . عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان ، فى مواجهة الكون وأهل الكون (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) وهو سؤال للتسجيل والإشهاد . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن فى مثل هذا المقام . ثم ينتقل من الامتنان عليهما بآلاء الله فى الكون ، إلى الامتنان عليهما بآلائه فى ذوات أنفسهما ، وفى خاصة وجودهما وإنشائهما (خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . . فبأى آلاء ربكما تكذبان) ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة . والمسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة لا تقاس أبعادها بأى مقياس مما يألفه البشر . فجميع المقاييس التى فى أيدى البشر أو التى تدركها عقولهم ، هى مقاييس للفارق بين موجود وموجود . أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقاييسه مقاييس المخلوقات ! وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحتويه الأرض . فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ,والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز , والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم . وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب . وإن اختلفت نسبها فى إنسان عن الآخر , وفى الإنسان عن التراب . إلا أن أصنافها واحدة ، فأما خلق الجان من مارج من نار . فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية . والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن . خبر الله الصادق . الذى خلق وهو أعلم بمن خلق . . والمارج هو : المشتعل المتحرك كألسنة النار مع الرياح ! وللجان قدرة على الحياة فى هذه الأرض مع الإنس . ولكنا لا ندرى كيف يعيش الجان وقبيله . فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن (رب المشرقين ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) والمشرقان والمغربان قد يكون المقصود بهما شروق الشمس وشروق القمر . وغروبهما كذلك , بمناسبة ذكر الشمس والقمر فيما تقدم من آلاء الله . وقد يكون المقصود مشرقى الشمس المختلفى الموضع فى الصيف والشتاء ومغربيها كذلك . ومن هذه السبحة البعيدة الآفاق يعود إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جعله الله بقدر . قدر فى نوعه ، وقدر فى تصريفه ، وقدر فى الانتفاع به (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات , ويشمل الثانى الأنهار . ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ، ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله . وتقسيم الماء على هذا النحو فى الكرة الأرضية لم يجئ مصادفة ولا جزافا . فهو مقدر تقديرا عجيبا . الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ؛ ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة . ثم يذكر من آلاء الله فى البحرين بعض ما هو قريب منهم فى حياتهم (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) واللؤلؤ فى أصله – حيوان . "ولعل اللؤلؤ أعجب ما فى البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق , وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية فى تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج , تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم اربع شفاه . فإذا دخلت ذرة رمل , أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم

الذرة التى وصلت يختلف حجم اللؤلؤة . " ! والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش فى البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مائة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب . وفتحة فمه التى فى أعلى جسمه ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها فى غذائه . فإذا لمست فريسة هذه الزوائد ,وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل فى الحال , والتصقت بها ، فتنكمش الزوائد وتنحنى نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مرىء الإنسان" ثم ينتقل إلى الفلك التى تجرى فى البحار ، كأنها لضخامتها الجبال (وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام) ويجعل هذه الجوارى المنشآت (له) سبحانه وتعالى . فهى تجرى بقدرته . ولا يحفظها فى خضم البحر وثبج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته . فهى له سبحانه (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والآن ينتهى هذا الاستعراض فى صفحة الكون المنظور ، وتطوى صفحة الخلق الفانى ، وتتوارى أشباح الخلائق جميعا ، ويفرغ المجال من كل حى ، ويتجلى وجه الكريم الباقى ، متفردا بالبقاء ، متفردا بالجلال ؛ وتستقر فى الحس حقيقة البقاء ، وهو يشهد ظلال الفناء (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأى آلاء ربكما تكذبان)

وفى ظل هذا النص القرآنى تخفت الأنفاس ، وتخشع الأصوات ، وتسكن الجوارح. وظل الفناء يشمل كل حى ، ويطوى كل حركة ، ويغمر آفاق السماوات والأرض. وجلال الوجه الكريم الباقى يظلل النفوس والجوارح ، والزمان والمكان ، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار . ويعقب على هذه اللمسة العميقة الأثر بنفس التعقيب . فيعد استقرار هذه الحقيقة . حقيقة الفناء لكل من عليها ، وبقاء الوجه الجليل الكريم وحده . يعد استقرار هذه الحقيقة نعمة يواجه بها الجن والإنس فى معرض الآلاء (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفانى ، تنبثق حقيقة أخرى . . فكل أبناء الفناء إنما يتجهون فى كل ما يقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحى القيوم (يسأله من فى السماوات والأرض ، كل يوم هو فى شأن . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟). فهو مناط السؤال ؛ وغيره لا يسأل لأنه فان لا يتعلق به سؤال . . يسألونه وهو وحده الذى يستجيب ، وقاصده وحده هو الذى لا يخيب . وما يتجه أحد إلى سواه إلا حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب . وماذا يملك الفانى للفانى وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟ وهو - سبحانه - كل يوم هو فى شأن . وهذا الوجود الذى لا تعرف له حدود ، كله منوط بقدره , متعلق بمشيئته ، وهو قائم بتدبيره . هذا التدبير الذى يتناول الوجود كله جملة ; ويتناول كل فرد فيه على حدة ؛ ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة . ويعطى كل شىء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدى وظيفته . وبتقرير حقيقة البقاء وراء الفناء ، وما ينبثق منها من حقيقة الاتجاه الكلى إلى الواحد الباقى ، وتعلق مشيئته - سبحانه - بشئون الخلائق وتقديرها وتدبيرها ، فضلا منه ومنة على العباد . . بتقرير هذه الحقيقة الكلية وما ينبثق عنها من حقائق ينتهى الاستعراض الكونى ، ومواجهة الجن والإنس به ؛ ويبدأ مقطع جديد . فيه تهديد وفيه وعيد . تهديد مرعب مفزع ,ووعيد مزلزل مضعضع . تمهيدا لهول القيامة الذى يطالع الثقلين فى سياق السورة بعد ذاك (سنفرغ لكم أيها الثقلان) يا للهول المرعب المزلزل ، الذى لا يثبت له إنس ولا جان . ولا تقف له الجبال الرواسى ولا النجوم والأفلاك ! الله . جل جلاله . الله القوى القادر ، القهار الجبار , الكبير المتعال . الله - سبحانه - يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين:الجن والإنس ، فى وعيد وانتقام ! إنه أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتمال ! وفى ظل هذا الهول الرعيب يسأل الثقلين المسكينين (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟)! ثم يمضى فى الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحداهما أن ينفذا من أقطار السماوات والأرض (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوت والأرض فانفذوا) وكيف ؟ وأين ؟ (لا تنفذون إلا بسلطان) ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان . ومرة أخرى يواجههما بالسؤال (فبأى آلاء ربكما تكذبان)؟ وهل بقى فى كيانهما شىء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟! ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعيب يلاحقهما ، والمصير المردى يتمثل لهما (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟)! إنها صورة من الهول فوق مألوف البشر - وفوق مألوف كل خلق - وفوق تصور البشر وتصور كل خلق . وهى صورة فريدة ، وردت لها نظائر قليلة فى القرآن ، تشبهها ولا تماثلها ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الانقلاب الكونى يوم القيامة . وما يعقبه من مشاهد الحساب . ومشاهد العذاب والثواب . ويبدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كونى يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكونى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) وردة حمراء ، سائلة كالدهان . . ومجموع الآيات التى وردت فى صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل فى هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذى يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) وذلك فى موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود . الذى ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه

العباد ، ومنها ما لا يسألون فيه عن شيء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقى به التبعة على شركائها , ومنها ما لا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود . وهنا موقف لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سوادا ، ومعالم النجوة بياضا ، ويظهر هذا وذاك فى سيما الوجوه . ففى هذا الموقف هل من تكذيب ونكران (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟)! (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار . . فهل حينذلك من تكذيب أو نكران ؟ وبينما المشهد معروض ، والأخذ بالنواصى والأقدام والقذف فى النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون) هذه هى حاضرة معروضة – كما ترون (يطوف بينها وبين حميم آن) متناه فى الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار ! وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا السائل الآنى . انظروا إنهم يطوفون الآن !(فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟)! هذه ضفة العذاب الأليم . والآن إلى ضفة النعيم والتكريم (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وللمرة الأولى – فيما مر بنا من سور القرآن – تذكر الجنتان . والأظهر أنهما ضمن الجنة الكبيرة المعروفة ! ولكن اختصاصهما هنا بالذكر قد يكون لمرتبتهما ، فلنشهد الجنتين الأوليين ، ولنعش فيهما لحظات ! إنهما (ذواتا أفنان) والأفنان هى الأغصان الصغيرة الندية . فهما ريانتان نضرتان (فيهما عينان تجريان) فماؤهما غزير ، وسهل يسير (فيهما من كل فاكهة زوجان) ففاكهتهما منوعة كثيرة وفيرة . وأهل الجنتين ما حالهم ؟ إننا ننظرهم (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) والإستبرق هو المخمل الحرير السميك . فكيف بظهائر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها ؟ (وجنى الجنتين دان) قريب التناول ، لا يتعب فى قطاف . ولكن هذا لا يستقصى ما فيهما من رفاهة ومتاع . فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) . فهن عفيفات الشعور والنظر . لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جن . وهن – بعد هذا – ناضرات لامعات (كأنهن الياقوت والمرجان) ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبده كأنه يراه ، شاعرا أن ربه يراه ، فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله ﷺ فنالوا جزاء الإحسان من عطاء الرحمن (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟) وفى معرض الإنعام والإحسان ، كان التعقيب يجىء فى موضعه بعد كل فقرة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) والآن إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الأخريين (ومن دونهما جنتان) وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين . فهما (مدهامتان) أى مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب (فيهما عينان نضاختان) تنضان بالماء . وهذا دون الجريان ! (فيهما فاكهة ونخل ورمان) وهناك (من كل فاكهة زوجان) (فيهن خيرات حسان) بسكون ياء خيرات أو بتشديدها على الوصف . وتأويل الخيرات بالسكون أو الخيرات بالتشديد فى الآية التالية (حور مقصورات فى الخيام) وتلقى الخيام ظل البداوة . فهو نعيم بدوى أو يمثل مطالب أهل البداوة . والحور مقصورات . أما حور الجنتين السابقتين فهن قاصرات الطرف (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك فى الصون والعفاف . أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما (متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان) والرفرف الأبسطة وكأنها من صنع [عبقر] لتقريب وصفها إلى العرب ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادى الجن:عبقر ! ولكن المتكآت هناك بطائنها من إستبرق . وهناك جنى الجنتين دان فهما مرتبتان مختلفتان ! وهناك كذلك كان التعقيب بعد كل صفة للجنتين ونعيمهما (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وفى ختام السورة التى استعرضت آلاء الله فى الكون ، وآلاءه فى الخلق ، وآلاءه فى الآخرة . يجىء الإيقاع الأخير ، تسبيحا باسم الجليل الكريم ، الذى يفنى كل حى ، ويبقى وجهه الكريم (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) أنسب ختام لسورة الرحمن . .

سورة الواقعة

مكية ، و آياتها ٩٦

الواقعة . . اسم للسورة وبيان لموضوعها معا . فالقضية الأولى التى تعالجها هذه السورة المكية هى قضية النشأة الآخرة ، ردا على قولة الشاكين فيها ، المشركين بالله , المكذبين بالقرآن (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟) ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التى تنهى كل قول ، وتقطع كل شك , وتشعر بالجزم فى هذا الأمر الواقعة (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة) وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض , فى ظل الهول الذى يبدل الأرض غير الأرض ، كما يبدل القيم غير القيم سواء: خافضة رافعة . . إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا , فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة . . الخ. ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة:السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفا مفصلا أوفى تفصيل ، يوقع فى الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأى العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذى هم فيه (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون:أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون) وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هى الماضى الذى يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم فى الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب ! وبهذا ينتهى الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخيا توكيد قضية البعث التى هى موضوع السورة الأول ؛ بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ، فى حدود المشاهدات التى لا تخلو منها تجربة إنسان , أيا كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته . يعرض نشأتهم الأولى من منى يمنى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم فى مجال التدليل على النشأة الأخرى ، التى لا تخرج فى طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى , التى يعرفونها جميعا . ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة فى صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم تؤت ثمارها . ويعرض صورة الماء العذب الذى تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدرة الله ينزله من السحائب . ولو شاء جعله ملحا أجاجا ، لا ينبت حياة ، ولا يصلح لحياة . وصورة النار التى يوقدون ، وأصلها الذى تنشأ منه . . الشجر . . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذرا . ويذكرهم بنار الآخرة التى يشكون فيها . وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يلمس بها قلوبهم ، ولا يكلفهم فيها إلا اليقظة ليد الله وهى تنشئها وتعمل فيها . كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذى يحدثهم عن "الواقعة" فيشكون فى وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين ثم يواجههم فى النهاية بمشهد الاحتضار . فى لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم , ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفى الأيدى عاجزين ، لا يملكون له شيئا ، ولا يدرون ما يجرى حوله ، ولا ما يجرى فى كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئا عما يرى ولا أن يشير ! ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق:(إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم). . فيلتئم المطلع والختام أكمل التئام . .

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{١} لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ{٢} خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ{٣} إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً{٤} وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً{٥} فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثّاً{٦} وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً{٧} فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{٨} وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{٩} وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ{١٠} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ{١١} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{١٢} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{١٣} وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{١٤} عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ{١٥} مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ{١٦} يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ{١٧} بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ{١٨} لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ{١٩} وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ{٢٠} وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ{٢١} وَحُورٌ عِينٌ{٢٢} كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ{٢٣} جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٢٤} لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً{٢٥} إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً{٢٦} وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ{٢٧} فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ{٢٨} وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ{٢٩} وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ{٣٠} وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ{٣١} وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ{٣٢} لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ{٣٣} وَفُرُشٍ

مَّرْفُوعَةٍ{٣٤} إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً{٣٥} فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً{٣٦} عُرُباً أَتْرَاباً{٣٧} لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ{٣٨} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{٣٩} وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{٤٠} وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ{٤١} فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ{٤٢} وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ{٤٣} لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ{٤٤} إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ{٤٥} وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ{٤٦} وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ{٤٧} أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ{٤٨} قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ{٤٩} لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ{٥٠} ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ{٥١} لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ{٥٢} فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ{٥٣} فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ{٥٤} فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ{٥٥} هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ{٥٦} نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ{٥٧} أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{٥٨} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{٥٩} نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ{٦٠} عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ{٦١} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ{٦٢} أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ{٦٣} أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ{٦٤} لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ{٦٥} إِنَّا لَمُغْرَمُونَ{٦٦} بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ{٦٧} أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ{٦٨} أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ{٦٩} لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ{٧٠} أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ{٧١} أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ{٧٢} نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ{٧٣} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{٧٤} فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ{٧٥} وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ{٧٦} إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{٧٧} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{٧٨} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{٧٩} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{٨٠} أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ{٨١} وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ{٨٢} فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ{٨٣} وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ{٨٤} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ{٨٥} فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{٨٦} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٨٧} فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ{٨٨} فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ{٨٩} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{٩٠} فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{٩١} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ{٩٢} فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ{٩٣} وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ{٩٤} إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ{٩٥} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ){٩٦}

(إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة) هذا المطلع واضح فيه التهويل فى عرض هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة . فمرتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها ،(خافضة رافعة). . وإنها لتخفض أقدارا كانت رفيعة فى الأرض ، وترفع أقدارا كانت خفيضة فى دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ؛ ثم تستقيم فى ميزان الله ، ولا يقول:ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة ، وهى خافضة رافعة . ولكن يبدأ حديثا جديدا (إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا) ومرة أخرى لا يقول:ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم . . فكأنما هذا الهول كله مقدمة ، لا يذكر نتائجها ، لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة ! هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروعة المفزعة التى يرسمها هذا المطلع بذاته . فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته - بما فيه من مد ثم سكون - تلقى فى الحس كأنما هى ثقل ضخم ينقض من عل ثم يستقر ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال . ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه ، كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجرجة يحدثها حين يقع . ويلبى السياق هذا التوقع ، ثم يتبدىء الهول فى كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هى ترج رجا - وهى حقيقة تذكر فى التعبير الذى يتسق فى الحس مع وقع الواقعة - ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول - تحت وقع الواقعة - إلى فتات يتطاير كالهباء (وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا) فما أهول هذا الهول الذي يرج الأرض رجا ، ويبس الجبال بسا ، ويتركها هباء منبثا . وما أجهل الذين يتعرضون له وهم مكذبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره فى الأرض والجبال ! (وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشأمة . ما أصحاب المشأمة ؟ والسابقون السابقون . . .) ونجد الناس هنا أصنافا ثلاثة - لا صنفين اثنين كما هو السائد فى مشاهد الاستعراض القرآنية - ويبدأ بالحديث عن أصحاب الميمنة - أو أصحاب اليمين - ولكنه لا يفصل عنهم الحديث إنما يصفهم باستفهام عنهم للتهويل والتضخيم (فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة) وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث ، فريق السابقين ، يذكرهم فيصفهم بوصفهم (والسابقون السابقون) كأنما ليقول إنهم هم هم . وكفى . فهو مقام لا يزيده الوصف شيئا ! ومن ثم يأخذ فى بيان قدرهم عند ربهم ، وتفصيل ما أعده من النعيم لهم ، وتعديد أنواعه التي يمكن أن يدركها حس المخاطبين ، وتتناوله معارفهم وتجاربهم إنه يبدأ فى بيان هذا النعيم ، بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم (أولئك المقربون فى جنات النعيم) وجنات النعيم كلها لا تساوى ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب . ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها إنهم (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين). . فهم عدد محدود . وفريق منتقى . كثرتهم فى الأولين

وقلتهم فى الآخرين . واختلفت الروايات فى من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول:إن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وإن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه . . والقول الثانى:إن الأولين والآخرين هم من أمة محمد ﷺ فالأولون من صدرها ، والآخرون من متأخريها . وهذا القول الثانى رجحه ابن كثير . وروى فى ترجيحه للحسن وابن سيرين ، وبعد بيان من هم يأخذ فى تفصيل مناعم الجنة التى أعدت لهم . وهى بطبيعة الحال المناعم التى فى طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ؛ ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهيأون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ! (على سرر موضونة) مشبكة بالمعادن الثمينة (متكئين عليها متقابلين) فى راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل ، وفى طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاده وفى إقبال بعضهم على بعض يتسامرون (يطوف عليهم ولدان مخلدون) لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تؤثر فى شبابهم وصباحتهم السن كأشباههم فى الأرض . يطوفون عليهم (بأكواب وأباريق وكأس من معين) من خمر صافية سائغة (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) فلا هم يفرقون عنها ولا هى تنفد من بين أيديهم . فكل شىء هنا للدوام والأمان (وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون) فهنا لا شىء ممنوع ، ولا شىء على غير ما يشتهى السعداء الخالدون (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون ، الذى لم يتعرض للمس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تخدشه عين ! وفى هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة فى هؤلاء الحور الواسعات العيون . وذلك كله (جزاء بما كانوا يعملون) فهو مكافأة على عمل كان فى دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذى كان ينقص كل المناعم فى دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون فى هدوء وسكون ، وفى ترفع وتنزيه عن كل لغو فى الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذة (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا:سلاما سلاما) حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة فى ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويسلم بعضهم على بعض . ويبلغهم السلام من الرحمن . فالجو كله سلام سلام . فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذى يليه:فريق أصحاب اليمين (وأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين ؟) وأصحاب اليمين هم أصحاب الميمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملة فى أول السورة . ثم أخر تفصيل نعيمهم ، إلى موعده هنا بعد السابقين المقربين . وهو يعيد السؤال عنهم بتلك الصيغة التى تفيد التفخيم والتهويل: (ما أصحاب اليمين ؟) ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادى محسوس ، يبدو فى أوصافه شىء من خشونة البداوة ، ويلبى هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم ! إنهم (فى سدر مخضود) والسدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوكه ومنزوع (وطلح منضود) والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوك . ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة (وظل ممدود ، وماء مسكوب) وتلك جميعا من مراتع البدوى ومناعمه ، كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه ! (وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة) تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين (وفرش مرفوعة) وهى هنا لا موضونة ولا ناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة . وللرفع فى الحس معنيان . مادى ومعنوى يستدعى أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع فى المكان والطهارة من الدنس . فالمرفوع عن الأرض أبعد عن نجسها . والمرفوع فى المعنى أبعد عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج (إنا أنشأناهن إنشاء) إما ابتداء وهن الحور . وإما استئنافا وهن الزوجات المبعوثات شواب (فجعلناهن أبكارا) لم يمسسن (عربا) متحببات إلى أزواجهن (أترابا) متوافيات السن والشباب (لأصحاب اليمين) مخصصات لهم . فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) فهم أكثر عددا من السابقين المقربين . وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) هم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة إليهم فى مطلع السورة (فى سموم وحميم . وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم) فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوى الأجسام . والماء متناه فى الحرارة لا يبرد ولا يروى . وهناك ظل ! ولكنه (ظل من يحموم) ظل الدخان اللافح الخانق . . إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل (لا بارد ولا كريم) فهو ظل ساخن لا روح فيه ولا برد ؛ وهو كذلك كز لا يمنح وراده راحة ولا إنعاشا . . ! هذا الشظف كله جزاء وفاق (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) وما ألم الشظف للمترفين !(وكانوا يصرون على الحنث العظيم) والحنث هو الذنب . وهو هنا الشرك بالله . وفيه إلماع إلى الحنث بالعهد الذى أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحدوه . (وكانوا يقولون:أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون) كانوا . . . هكذا يعبر القرآن ، كأنما الدنيا التى فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هى ماض . والحاضر هو هذا المشهد وهذا العذاب ! ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا الحاضر هو العقبى والمآب . وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا فى أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذاك (قل:إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) هو هذا اليوم الحاضر المعروض المشهود ! ثم يعود إلى ما ينتظر

المكذبين . فيتم صورة العذاب الذى يلقاه المترفون (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم) ولا يدرى أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به فى سورة أخرى من أن طلعها كرؤوس الشياطين . ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقى فى الحس ما تلقيه ! على أن لفظ (الزقوم) نفسه يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مدببا يشوك الأكف – بله الحلوق – وذلك فى مقابل السدر المخضود والطلح المنضود – ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين ! فإنهم لآكلون منها (فمالئون منها البطون) فالجوع طاغ والمحنة غالبة . وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلوق ورى البطون ! وإنهم لشاربون (فشاربون عليه من الحميم) الساخن الذى لا يبرد غله ولا يروى ظمأ (فشاربون شرب الهيم) وهى الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوى من الماء !(هذا نزلهم يوم الدين) والنزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذى لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم فى اليوم الذى كانوا يشكون فيه ، ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود . بهذا ينتهى استعراض المصائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة . الخافضة الرافعة . وينتهى كذلك الشوط الأول من السورة .

فأما الشوط الثانى فى السورة فيستهدف بناء العقيدة بكليتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تتجلى طريقة القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية ، وفى تناول الدلائل الإيمانية ، وفى التلطف إلى النفوس فى بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق فى صورها القريبة الميسورة . .

من المشاهدات التى رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان فى كل بيئة . . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هى بذاتها أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية – بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم – فهى فى بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان . وهى فى حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان: مواقع النجوم تعنى هندسة الكون . نشأة الحياة الإنسانية . . وهى سر الأسرار . نشأة الحياة النباتية . . وهى كالحياة الحيوانية معجزة المعجزات . والماء . . أصل الحياة . والنار . . المعجزة التى صنعت الحضارة الإنسانية (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمر منظور ومألوف وواقع فى حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشرى أو يجادل فيه (أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمنى رحم امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها فى هذا الماء المهين . تعمل وحدها فى خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفى كل لحظة تالية تتم المعجزة ، وتقع الخارقة التى لا يصنعها إلا الله . والتى لا يدرى البشر كنهها وطبيعتها ؛ كما لا يعرفون كيف تقع . بله أن يشاركوا فيها ! هذه هى البداية . أما النهاية فلا تقل عنها إعجازا ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة (نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين) هذا الموت الذى ينتهى إليه كل حى . ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأى سلطان له لا يقاوم؟ إنه قدر الله . . ومن ثم لا يفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد . وهو حلقة فى سلسلة النشأة التى لا بد أن تتكامل (على أن نبدل أمثالكم) لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم . والله الذى قدر الموت هو الذى قدر الحياة . قدر الموت على أن ينشئ أمثال من يموتون ، حتى يأتى الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا . . فإذا انتهت عند الأجل الذى سماه كانت النشأة الأخرى (وننشئكم فيما لا تعلمون) فى ذلك العالم المغيب المجهول ، الذى لا يدرى عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة تمامها ، وتصل القافلة إلى مقرها . هذه هى النشأة الآخرة (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون !). فهى قريب من قريب . وليس فيها من غريب) بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الاخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذى تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بديهياتها هى ، ومن مشاهدات البشر فى حياتهم القريبة . بلا تعقيد . ولا تجريد . ولا فلسفة تكد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان . .ومرة أخرى فى بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم ، مكرر فى مشاهداتهم ، ليريهم يد الله فيه ؛ ويطلعهم على المعجزة التى تقع بين أيديهم ، وعلى مرأى من عيونهم , وهم عنها غافلون: (أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلتم تفكهون:إنا لمغرمون . بل نحن محرومون) هذا الزرع الذى ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتى ثماره . ما دورهم فيه ؟ إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التى صنعها الله . ثم ينتهى دورهم وتأخذ يد القدرة فى عملها المعجز الخارق العجيب . تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدؤه وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق ! أى عقل كان يمكن أن يتطاول به الخيال إلى تصور هذه العجيبة . لولا أنه يراها تقع بين يديه صباح مساء ؟ ولولا أن هذه القصة

تتكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس ؟ وأى إنسان يمكنه أن يدعى أنه صنع شيئا فى هذه العجيبة سوى الحرث وإلقاء البذور التى صنعها الله ؟ (أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا . فلولا تشكرون)! وهذا الماء أصل الحياة ، وعنصرها الذى لا تنشأ إلا به كما قدر الله . ما دور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه . أما الذى أنشأه من عناصره ، وأما الذى أنزله من سحائبه ، فهو الله سبحانه . وهو الذى قدر أن يكون عذبا فكان (لو نشاء جعلناه أجاجا) مالحا لا يستساغ ، ولا ينشئ حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذى أجرى مشيئته بما كان (أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثا عظيما فى حياته . ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته . ولكنها أصبحت أمرا مألوفا لا يثير الاهتمام . . والإنسان يورى النار:أى يوقدها . ولكن من الذى أنشأ وقودها ؟ من الذى أنشأ الشجر الذى توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هذا الزرع . . على أن هناك لفتة أخرى فى ذكر(شجرتها). فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم . على الطريقة البدائية التى لا تزال مستعملة فى البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم المعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلمع السياق إلى نار الآخرة (نحن جعلناها تذكرة) تذكر بالنار الأخرى . . كما جعلناها (متاعا للمقوين) أى للمسافرين . وكان لهذه الإشارة وقعها العميق فى نفوس المخاطبين ، لما تمثله فى واقع حياتهم من مدلول حى حاضر فى تجاربهم وواقعهم . وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار ، الناطقة بدلائل الإيمان . الميسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التى تنتهى إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهى حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فيهيب بالرسول ﷺ أن يحيى هذه الحقيقة ويؤدى حقها ؛ ويلمس القلوب بها فى حينها (فسبح باسم ربك العظيم) ثم يلتفت التفاتة أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ؛ فيربط بينه وبين هذا الكون فى قسم عظيم من رب العالمين (فلا أقسم بمواقع النجوم – وإنه لقسم لو تعلمون عظيم – إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل ، الذى يدركونه بعيونهم المجردة . ومن ثم قال لهم (وإنه لقسم – لو تعلمون – عظيم) فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به ، نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم وهذا القليل الذى وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظير ، يقول لنا:إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التى لا تحصى فى الفضاء الهائل الذى لا نعرف له حدودا . مجموعة واحدة – هى المجرة التى تنتسب إليها أسرتنا الشمسية – تبلغ ألف مليون نجم ! ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ؛ ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى ، يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جدا . إن لم يكن مستحيلا وكل نجم فى موقعه المتباعد عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق فى آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها فى هذا الفضاء الهائل (فلا أقسم بمواقع النجوم) فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وهذا التلويح بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير فى تقرير الحقيقة التى لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين ! . . . إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته (فى كتاب مكنون) مصون . وتفسير ذلك فى قوله تعالى بعدها (لا يمسه إلا المطهرون) فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به . فهذا نفى لهذا الزعم . فالشيطان لا يمس هذا الكتاب المكنون فى علم الله وحفظه . إنما تنزل به الملائكة المطهرون . . وهذا الوجه هو أظهر الوجوه فى معنى (لا يمسه إلا المطهرون) ف (لا) هنا نافية لوقوع الفعل . وليست ناهية . وفى الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس . والمؤمن والكافر ، فلا يتحقق النفى على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابسة . ملابسة قولهم: تنزلت به الشياطين . ونفى هذا الزعم إذ لا يمسه فى كتابه السماوى المكنون إلا المطهرون . ومما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا (تنزيل من رب العالمين) لا تنزيل من الشياطين ! وقد روى حديثان يقرران معنى آخر وهو أن لا يمس القرآن إلا طاهر . . ولكن ابن كثير قال عنهما:"وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهرى وغيره . ومثل هذا لا ينبغى الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو ابن حزم وعبدالله بن عمر وعثمان بن أبى العاص . وفى

إسناد كل منهما نظر والله أعلم" . ثم يأتي الإيقاع الأخير فى السورة . . لحظة الموت . . اللمسة التي ترجف لها الأوصال . واللحظة التى تنهى كل جدال . واللحظة التى يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق . حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ؟ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) أفأنتم شاكون فى هذا الحديث الذى يقال لكم عن النشأة الآخرة ؛ مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة ، وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون). . فإذا التكذيب هو رزقكم الذى تحصلون عليه فى حياتكم وتدخرونه لآخرتكم ? وما أسوأه من رزق ! فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون فى مفرق الطريق المجهول ؟ ثم يصور الموقف التصوير القرآنى الموحى ، الذى يرسم ظلال الموقف كلها فى لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه ، وبكل ما وراءه ، وبكل ما يوحيه (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) لنكاد نسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق ، كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس فى ملامح الحاضرين . هنا . فى هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض وما فيها . وهى تستقبل عالما لا عهد لها به ، ولا تملك من أمره شيئا إلا ما أدخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر . هنا وهى ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عمن حولها وما حولها . الجسد هو الذى يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجرى ولا يملكون من الأمر شيئا . هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهى مجال البشر . هنا يعرفون – ولا يجادلون – أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون . هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة . هنا تتفرد القدرة الإلهية ، والعلم الإلهى . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون)! وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره – سبحانه وتعالى – وهو حاضر فى كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التى يغفل عنها البشر . فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع . وفى ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجىء التحدى الذى يقطع كل قول وينهى كل جدال (فلولا إن كنتم غير مدينين: ترجعونها إن كنتم صادقين !) فلو كان الأمر كما تقولون:إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين . فدونكم إذن فلترجعوها – وقد بلغت الحلقوم – لتردوها عما هى ذاهبة إليه من حساب وجزاء . وأنتم حولها تنظرون . وهى ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون ! هنا تسقط كل تعلة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهى كل جدال . ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشرى ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل ! ثم يمضى السياق فى بيان مصير هذه الروح الذى يتراءى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم , وتستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية . وتمضى إلى الدينونة التى يكذب بها المكذبون (فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم) وقد مرت بنا فى أول السورة صور من نعيم المقربين . فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذى ينتظرها:روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة . وتلقى ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين والأنس الكريم (وأما إن كان من أصحاب اليمين) فيلتفت بالخطاب إليه . . يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين . وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالأنس فى الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين (وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم) وما أسوأه نزلا ومثوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذابا ذلك الجحيم ، يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين ! والآن وقد بلغ الموقف ذروته تجىء الخاتمة فى إيقاع عميق رزين (إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) فتلتقى رجاحة اليقين وثقله فى ميزان الحق ، بالواقعة التى بدأت بها السورة . وتختم بما يوحيه هذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم . .

سورة الحديد

مدنية ، و آياتها ٢٩

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كى تحقق فى ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التى تخلص بها النفوس لدعوة الله ؛ فلا تضن عليها بشىء ، ولا تحتجز دونها شيئا . . لا الأرواح ولا الأموال ؛ ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور . . وهى الحقيقة التى تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض موازينها هى موازين الله ، والقيم التى تعتز بها وتسابق إليها هى القيم التى تثقل فى هذه الموازين . كما أنها هى الحقيقة التى تشعر القلوب بحقيقة الله ، فتخشع لذكره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه . وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل فى سبيل الله . بذل النفس وبذل المال (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذى أنزله الله ليجيء البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون) وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة فى ميزان الحق ؛ وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار الكفة الراجحة ، والسباق إلى القيمة الباقية (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وظاهر من سياق السورة – إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة – أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة فى الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة فى المجتمع المدنى فى فترة تمتد من العام الرابع الهجرى إلى ما بعد فتح مكة . فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية ، فى تحقيق حقيقة الإيمان فى نفوسهم ، وفى البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم ، فى خلوص نادر ، وتجرد كامل من أوهاق الأرض وجوانب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله . . . إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة ، كانت هناك – فى الجماعة الإسلامية – فئة أخرى ليست فى هذا المستوى الإيمانى الخالص الرفيع – وبخاصة بعد الفتح عندما ظهر الإسلام ، ودخل فيه الناس أفواجا ، وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة ، ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله . هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل فى سبيل الله ؛ وتشق عليهم تكاليف العقيدة فى النفس والمال ؛ وتزدهيهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ؛ فلا يستطيعون الخلاص من دعائها وإغرائها . وهؤلاء – بصفة خاصة – هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية التى أسلفنا نماذج منها ، لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب ، وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى ، التى تصغر معها كل قيم الأرض ، وتذوب فى حرارتها كل عوائقها ! كذلك كانت هنالك طائفة أخرى – غير هؤلاء وأولئك – هى طائفة المنافقين ، مختلطة غير متميزة . وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام ، واضطر المنافقون إلى التخفى والإنزواء ; مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويعزلون عن المؤمنين (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا:انظرونا نقتبس من نوركم . قيل:ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم:ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم . وبئس المصير) وهذا إلى جانب من بقى فى الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسورة تشير إلى شىء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة فى ذلك الأوان ؛ كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا (كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) وهى إشارة إلى اليهود خاصة فى الغالب . . وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة فى قوله (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان

الله . فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون) وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ؛ تواجه القلب البشرى بمجموعة من صفات الله سبحانه . فيها تعريف به مع الإيحاء الأسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة ، وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شيء إليها فى نهاية المطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور ، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح (سبح لله ما فى السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السماواتوالأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ,وهو عليم بذات الصدور) وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده ليهز القلوب هزا . ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش ، كما يوقع فيها الرغبة الحية فى الخلوص لله والالتجاء إليه ، والتجرد من العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيرا من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكده فى مواضع شتى . كتلك الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنات (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) وتلك الصورة التى تقرر ضآلة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة وما يتم فيها من الأمور الكبار . كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود: ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد . . كى تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر ، وهى فى طريقها إلى الله . فلا تطير جزعا ، ولا تبطر فرحا ، وهى تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سببا ولا ظرفا ولا حادثا . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله فى النهاية إلى الله .

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١} لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٢} هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٣} هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٤} لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ{٥} يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٦} آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ{٧} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ{٨} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ{٩} وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١٠} مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١١} يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ{١٣} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ{١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٥}

وقد سار سياق السورة فى علاج موضوعها فى شوطين اثنين أثبتنا أولهما فى صدر هذا التقديم . وجاءت فقرات كثيرة من الشوط الثانى فى خلاله . وهما مترابطان مطردان . فنكتفى بهذا القدر ، لنسير مع سياق السورة بالتفصيل .

هذا المطلع الموحى المختار . وما حشد فيه من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء ، المهيمنة على كل شيء ، العليمة بكل شيء . وما تعرضه من إبداع اليد القادرة وهى تجول فى محيط السماوات والأرض ، وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب ، وتشرف من عل على الوجود وما فيه ومن فيه (سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم)

هكذا ينطلق النص القرآنى الكريم فى مفتتح السورة ؛ فتتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء . ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول . ونحن لا نعلم شيئا عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه (سبح لله ما فى السماوات والأرض) ولا تأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما فى السماوات والأرض له روح ، يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح وإن هذا لهو أقرب تصور يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب فى لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة فى الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها (وهو العزيز الحكيم) فتسبيح ما فى السماوات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة . فهو المهيمن على كل شىء بقوته ، وهو جاعل كل شىء وفق حكمته (له ملك السماوات والأرض ، يحيى ويميت) إن كل شىء فى السماوات والأرض سبح لله . مالك السماوات والأرض . الذى لا شريك له فى ملكه . فهو تسبيح المملوك لمالكه المتفرد ، الذى يحيى ويميت ، فيخلق الحياة ويخلق الموت . ويقدر الحياة لكل حى ويقدر له الموت ؛ فلا يكون إلا قدره الذى قضاه (وهو على كل شىء قدير) إجمالا بغير حد ولا قيد . فالمشيئة المطلقة تمضى بغير حد ولا قيد . وتتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء . وكل قيد يتصوره العقل البشرى بمنطقه هو لهذه المشيئة من أى نوع وأى لون هو تصور باطل ، ناشىء من طبيعة العقل البشرى المحدود ! (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) الأول فليس قبله شىء . والآخر فليس بعده شىء . والظاهر فليس فوقه شىء . والباطن فليس دونه شىء . الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان ، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان . وهما مطلقتان (وهو بكل شىء عليم) علم الحقيقة الكاملة . فحقيقة كل شىء مستمدة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها . فهى مستغرقة إذن بعلم الله اللدنى بها . العلم الذى لا يشاركه أحد فى نوعه وصفته وطريقته . مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء ! فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى فى قلب ، فما احتفاله بشىء فى هذا الكون غير الله سبحانه ؟ وكل شىء لا حقيقة له ولا وجود - حتى ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى ؟ وكل شىء وهم ذاهب ، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله ، المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء ؟ ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى ، وهاموا بها وفيها ، وسلكوا إليها مسالك شتى ، بعضهم قال إنه يرى الله فى كل شىء فى الوجود . وبعضهم قال:إنه رأى الله من وراء كل شىء فى الوجود . وبعضهم قال:إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره فى الوجود . . وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة فى هذا المجال . إلا أن ما يؤخذ عليهم - على وجه الإجمال - هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور . والإسلام فى توازنه المطلق يريد من القلب البشرى أن يدرك هذه الحقيقة ويعيش بها ولها ، بينما هو يقوم بالخلافة فى الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله فى الأرض ، باعتبار هذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصورا متزنا ، متناسقا مع فطرة الإنسان وفطرة الكون كما خلقهما الله . وبعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى (هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش) السماوات والأرض تواجه هذا القلب وتروعه بضخامتها وجلالها ، وتناسقها وجمالها ، كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، واطراد ظواهرها . ثم إنها خلائق من خلق الله كالقلب البشرى . فله بها صلة الأسرة وأنس القرابة . وهى توقع على أوتاره إيقاعات لدنية حين يتوجه إليها , ويسمع لها ، ويعاطفها ! وهى تقول له:إن الذى خلقها هو خلقه . وهى تسبح لخالقها فليسبح لخالقه ! كما تقول له:إنها تستمد حقيقة وجودها من وجود خالقها وأنه هو كذلك . فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها ! والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله . فأيامنا هذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس . وحدت بعد خلق الأرض والشمس فليست هى الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض . فنترك علمها لله يطلعنا عليه إن أراد . وكذلك العرش . فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته . أما الاستواء على العرش فنملك أن نقول:إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق . استنادا إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله - سبحانه - لا تتغير عليه الأحوال . فلا يكون فى حالة عدم استواء على العرش ، ثم تتبعها حالة استواء . والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى (ثم استوى) والأولى أن نقول:إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا . والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذى أشرنا إليه آنفا لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا . إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته ، وإلى التصور الذى يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) وفى كل لحظة يلج فى الأرض ما لا عداد له ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ؛ ويخرج منها ما لاعداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله . وفى كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأقدار والأسرار ؛ ويعرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصيه إلا الله . . والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التى لا تنقطع ، وإلى هذه الأحداث الضخام التى لا تحصى ؛ ويدع القلب البشرى فى تلفت دائم إلى

ما يلج فى الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وفى تصور يقظ لعلم الله الشامل وهو يتبع هذه الحركات والأحداث ، فى مساربها ومعارجها وبينما القلب فى تلفته ذاك فى الأرض والسماء ، إذا القرآن يرده إلى ذاته ، ويلمسه فى صميمه . وإذا هو يجد الله معه ، ناظرا إليه ، مطلعا عليه ، بصيرا بعمله ، قريبا جد قريب (وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير) وهى كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله – سبحانه – مع كل أحد ، ومع كل شىء ، فى كل وقت ، وفى كل مكان . مطلع على ما يعمل ، بصير بالعباد . وهى حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب ، ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى .ومرة أخرى يعود إلى ملكية السماوات والأرض فى مجال آخر غير الذى وردت فيه أول مرة (له ملك السماوات والأرض . وإلى الله ترجع الأمور) ففى المرة الأولى جاء ذكرها فى معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة . وهنا يجىء ذكرها فى معرض رجعة الأمور كلها إلى الله . وهى متصلة بملكية الله للسماوات والأرض ومكملة لحقيقتها . وينتهى هذا المطلع بحركة لطيفة من حركات القدرة فى مجال الكون ، وفى أطواء الضمير(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . وهو عليم بذات الصدور) ودخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، حركة دائبة ، وهى فى الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذه من النهار ، وطول النهار وأخذه من الليل ؛ أو كان المعنى مجرد تداخل الليل فى النهار عند الغروب ، وتداخل النهار فى الليل عند الشروق . . ومثل هذه الحركة فى خفائها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور . وذات الصدور هى الأسرار المصاحبة لها ، التى لا تفارقها ولا تبرحها !

هذا المطلع بإيقاعاته تلك ، يدع القلوب فى حساسية مرهفة للتلقى . ومن ثم يجىء الهتاف لها بالإيمان والبذل فى أنسب أوان . وقد تفتحت مداخلها ، وتوفزت مشاعرها ، واستعدت للاستماع . وهنا يجىء ذلك الهتاف فى المقطع التالى فى السياق . ولكنه لا يجىء مجردا . إنما يجىء ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته إن الله – سبحانه – يخاطب القلوب التى خلقها ، فهو يعلم أحوالها ، ويعرف مداخلها , ويطلع على خوافيها . . وهو يعلم أن نقاء العقيدة ، وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقرارا تنبثق منه آثاره ونتائجه فى واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيرا ؛ ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات ؛ ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها ، وتزن كل شىء بميزانها الكبير الدقيق . ويعالجها المرة بعد المرة ، والخطوة بعد الخطوة ؛ إن الإيقاعات الأولى فى مطلع السورة من القوة والتوالى والعمق والتأثير ، بحيث تزلزل القلوب الجامدة ، وتلين القلوب القاسية ، وتدعها مرهفة الحساسية . ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى ، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل فى الفقرة التالية (آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهى إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها فى قلوبهم بمعناها . وهى لفتة دقيقة . وهم يدعون إلى الإنفاق , ومع الدعوة لمسة موحية . فهم لا ينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه . وهو الذى (له ملك السماوات والأرض) فهو الذى استخلف بنى آدم جملة فى شىء من ملكه . وهو الذى (يحيى ويميت) فهو الذى استخلف جيلا منهم بعد جيل . ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء ، ومن سماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . يخجلهم من كرم الله ويطمعهم فى فضله ، فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل فى مواجهة هذا الكرم والفضل ؟ غير أن القرآن لا يكلهم إلى هذه اللمسات الأولى . إنما يلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها (وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين . هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله بكم لرؤوف رحيم) فما الذى يعوقهم عن الإيمان – حق الإيمان – وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذى يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفى هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه . إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله فى ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم . . نعمة فوق التصور حين نتملاها نحن الآن من بعيد . . فهذه الفترة – فترة الوحى وحياة الرسول ﷺ فترة عجيبة حقا . . إن الله – جل جلاله – يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده ﷺ وفى رحمة علوية ندية يقول لهم:خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريقى فاسلكوه ! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلى ! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابى مفتوح . تعالوا ولا تشردوا بعيدا ، ولا تقنطوا من رحمتى التى وسعت كل شىء . . وأنت يا فلان – بذاتك وشخصك – قلت كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم . وفعلت كذا وهى خطيئة . . فتعال هنا قدامى وتطهر وتب وعد إلى حماى . . وأنت يا فلان – بذاتك وشخصك –

أمرك الذى يعضلك هذا حله . وسؤالك الذى يشغلك هذا جوابه . وعملك الذى عملت هذا وزنه ! إنه الله . هو الذى يقول . يقول لهؤلاء المخاليق . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم . حقيقة وواقعا . أنه يستمع إلى شكواهم فى جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يرعاهم فى كل خطوة ويعنى بها . إنه لأمر متفاوت . وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشىء هائل ، هائل ، عجيب عجيب . وهو يعجب:ما لهم لا يؤمنون ؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان فى نفوسهم إن كانوا مؤمنين ! ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته فى توكيد وتكرير(وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟) فميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه ، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه فى الميراث ! فما لهم لا ينفقون فى سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذى يبقى من دواعى الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق فى هذا الخطاب ؟ (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) إن الذى ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ، والأنصار قلة وليس فى الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذى ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة ، والأنصار كثرة ، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال . ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجردا كاملا لا شبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لا يجد على الخير عونا إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين . وبعد أن قرر القيم الحقيقية فى ميزان الله لهؤلاء ولهؤلاء عاد فقرر أن للجميع الحسنى (وكلا وعد الله الحسنى) فقد أحسنوا جميعا ، على تفاوت ما بينهم فى الدرجات . ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع ، إلى ما يعلمه الله من تقدير أحوالهم ، وما وراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة ما يعملون (والله بما تعملون خبير) وهى لمسة موقظة للقلوب ، فى عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة ، وهى التى تناط بها القيم ، وترجح بها الموازين . . ثم مرحلة أخرى فى استجاشة القلوب للإيمان والبذل ، ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات، إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ؟) ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانا ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثرى الملىء منهم – وهم كلهم فقراء – لأن السداد مضمون . ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى الملىء ! فكيف إذا كانوا يقرضون الغنى الحميد ؟! ولا يكلهم – سبحانه – إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يعدهم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه . يعدهم عليه الضعف فى المقدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله (فيضاعفه له ، وله أجر كريم) ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم، فى مشهد من مشاهد اليوم الذى يكون فيه ذلك الأجر الكريم (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد – بين المشاهد القرآنية – وهو من المشاهد التى يحييها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسما قويا . فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهدا عجيبا . هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نورا يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها . . إنه النور الذى أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذى أشرق فى أرواحها فغلب على طينتها . أم لعله النور الذى خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ، وظهر بحقيقته فى هذه المجموعة التى حققت فى ذواتها حقيقتها ! ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير (بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم) ولكن المشهد لا ينتهى عند هذا المنظر الطريف اللطيف . . إن هناك المنافقين والمنافقات ، فى حيرة وضلال ، وفى مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا:انظرونا نقتبس من نوركم) فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها فى الظلام ؟ إن صوتا مجهلا يناديهم (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) ويبدو أنه صوت للتهكم ، والتذكير بما كان منهم فى الدنيا من نفاق ودس فى الظلام:ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل فى الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور ! وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات . فهذا يوم الفصل إن كانوا فى الدنيا مختلطين فى الجماعة (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فهاهم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين (ألم نكن معكم ؟) فما بالنا نفترق عنكم ؟ ألم نكن معكم فى الدنيا نعيش فى صعيد واحد ؟ وقد بعثنا معكم هنا فى صعيد واحد ؟ (قالوا:بلى !) كان الأمر كذلك (ولكنكم فتنتم أنفسكم) فصرفتموها عن الهدى (وتربصتم) فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة (وارتبتم) فلم

يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة (وغرتكم الأماني) الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها ! (حتى جاء أمر الله) وانتهى الأمر (وغركم بالله الغرور) وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم" . ثم يستطرد المؤمنين في التذكير والتقرير ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكومون فيه " فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) أم لعلها كلمة الملأ الأعلى ، أو نطق الله الكريم . . وبعد فأي قلب لا يهفو لذلك النور في ذلك اليوم ؟ وأي قلب لا يستجيب لهتاف الإنفاق والبذل تحت إيقاع تلك الموحيات العميقة التأثير ؟

والشوط الثاني في السورة استطراد في الدعاء ، ومزيد من موحيات الاستجابة ، على هذا المنهج ، وفي هذا الطريق

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ{١٦} اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{١٧} إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ{١٨} وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{١٩} اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ{٢٠} سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{٢١} مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{٢٢} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{٢٣} الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{٢٤}

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسي:تحقيق حقيقة الإيمان في النفس ، حتى ينبثق عنها البذل الخالص في سبيل الله . وفيه من موحيات الإيمان ، ومن الإيقاعات المؤثرة ، قريب مما اشتمل عليه الشوط الأول ، بعد ذلك المطلع العميق المثير . وهو يبدأ برنة عتاب من الله – سبحانه – للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التي يريدها الله لهم ؛ وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق في الأعمال ، وتحذير من هذا المآل ، الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم . مع إطماعهم في عون الله الذي يحيي القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها . فإذا انتهت هذه اللمسة تبعتها لمسة أخرى – مجالها العالم الآخر – وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضا حسنا ، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه في الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم . . على نحو مما جاء في الشوط الأول . ولمسة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها في ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة . . حيث تبدو قيم الأرض لعبا خفيفة الوزن ؛ وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجد الذي يستحق الاهتمام . ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة . . في جنة عرضها كعرض السماء والأرض . أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ولمسة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى ما هم فيه من واقع الحياة وأحداثها ، فتعلق قلوبهم بقدر الله فيها . في السراء والضراء سواء . ومن ثم يهون عليهم البذل ، ولا يزدهيهم من أعراض الأرض شيء ؛ وترتبط أحاسيسهم كلها بالسماء . وبعد ذلك يعرض عليهم طرفا من تاريخ دعوة الله في الأرض ، تبدو فيه وحدة المنهج ، واستقامة الطريق . وأن الذي يحيد عنه في كل عهد هم الفاسقون . ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كما لوح لهم في أول الشوط . لينتهي من هذا الهتاف الأخير لهم بتقوى الله والإيمان برسوله ، ليؤتيهم كفلين من رحمته ، ويجعل لهم نورا يمشون به ويغفر لهم . ففضل الله ليس وقفا على أهل الكتاب كما يزعمون . إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء (والله ذو الفضل العظيم) وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، في خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ، منوعة ومتشابهة . فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع في القلب ، وطرقه وهو ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع ! (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟) إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم ؛ واستبطاء للإستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ؛ فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر . عتاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكره ، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من

عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهى إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون) وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج . ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلد . فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور ، وأن يخشع لذكر الله . فالله يحيى الأرض بعد موتها ، فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبت والزهر ، وتمنح الأكل والثمار . . وكذلك القلوب حين يشاء الله (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها) وفى هذا القرآن ما يحيى القلوب كما تحيا الأرض ؛ وما يمدها بالغذاء والرى والدفء (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) ويتبع هذه اللمسة المحيية ، وذلك العتاب المخجل ، وذاك التذكير والتحذير ، بحافز جديد للبذل والفداء (إن المصدقين والمصدقات ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ؛ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) إن المتصدقين والمتصدقات لا يتفضلون على آخذى الصدقات ، ولا يتعاملون فى هذا مع الناس . إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه . فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطى بأنه يقرض الغنى الحميد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفا ؛ وأن له بعد ذلك كله أجرا كريما ؟ (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) وتلك خاصية هذا الدين وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر ، وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم . وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات . إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام ! فهذه لمسة الإيمان . فأما لمسة الفداء فقوله بعد ذلك (والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) والحديث عن مقام الشهداء ورد مرات فى القرآن ، وتواترت به الأحاديث النبوية . فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ؛ ولا يتحقق فى الأرض بغير جهاد . جهاد لتأمين العقيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشريعته من الفساد . ومن ثم كان للشهداء فى سبيل الله – وهم وحدهم الذين يسمون الشهداء – مقامهم ، وكان لهم قربهم من ربهم . القرب الذى يعبر عنه بأنهم (عند ربهم) وبينما الصديقون فى ذلك المقام والشهداء فى هذا المقام يقول النص القرآنى عن الكافرين المكذبين (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) فمن ذا الذى يترك الكرامة والنعيم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ؟! واللمسة الثالثة فى هذا الشوط تجىء تعقيبا على دعوة الإيمان والبذل ، ودعوة الفداء والتضحية . تعقيبا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمها (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال) والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هى وتوزن بموازينها تبدو فى العين وفى الحس أمرا عظيما هائلا . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها . وهى هنا فى هذا التصوير تبدوا لعبة أطفال بالقياس إلى ما فى الآخرة من جد تنتهى إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة ! لعب . ولهو . وزينة . وتفاخر . وتكاثر . . . هذه هى الحقيقة وراء كل ما يبدوا فيها من جد حافل واهتمام شاغل . . ثم يمضى يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) والكفار هنا هم الزراع . فالكافر فى اللغة هو الزارع ، يكفر أى يحجب الحبة ويغطيها فى التراب . ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا ! (ثم يهيج فتراه مصفرا) للحصاد . فهو موقوت الأجل ، ينتهى عاجلا ، ويبلغ أجله قريبا (ثم يكون حطاما) وينتهى شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة . . ينتهى بمشهد الحطام ! فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ، ويستعد له (وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) فهى لا تنتهى فى لمحة كما تنتهى الحياة الدنيا . وهى لا تنتهى إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله . . إنها حساب وجزاء . . ودوام . . يستحق الاهتمام ! (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهى وينسى فينتهى بأهله إلى غرور خادع . ومن ثم يدعوهم إلى السباق فى ميدان السباق الحقيقى ، للغاية التى تستحق السباق . الغاية التى تنتهى إليها مصائرهم ، والتى تلازمهم بعد ذلك فى عالم البقاء (سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم) فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق ،وتركوا عالم اللهو اللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض: (جنة عرضها كعرض السماء والأرض) وربما كان بعضهم فى الزمن الخالى – قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون – يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز ، فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التى ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة ، والحديث عن تراءى الغرف من بعيد ، يقع قطعا موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة ، ولا يحتاج إلى حمله على

المجاز إطلاقا ! فإن ما بين الأرض والشمس مثلا لا يبلغ أن يكون شيئا فى أبعاد الكون يقاس ! وذلك الملك العريض فى الجنة يبلغه كل من أراد ، ويسابق إليه كل من يشاء . وعربونه:الإيمان بالله ورسله (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) (والله ذو الفضل العظيم) وفضل الله غير محجوز ولا محجور . فهو مباح متاح للراغبين والسابقين . وفى هذا فليتسابق المتسابقون ، لا فى رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان ! ثم تجىء اللمسة الرابعة فى إيقاع عميق ، عن قدر الله ، الذى لا يكون سواه (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير) إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل فى تصميمه ومحسوب حسابه فى كيانه . . لا مكان فيه للمصادفة . ولا شىء فيه جزاف . وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان فى علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق فى وقته المقدور . . وفى علم الله لا شىء ماض ، ولا شىء حاضر ، ولا شىء قادم . فتلك الفواصل الزمنية إنما هى معالم لنا – نحن أبناء الفناء – نرى بها حدود الأشياء . فنحن لا ندرك الأشياء بغير حدود تميزها . حدود من الزمان وحدود من المكان . وقيمة هذه الحقيقة التى لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى . قيمتها فى النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها . فلا تجزع الجزع الذى تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء . ولا تفرح الفرح الذى تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء (لكى لا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) فاتساع أفق النظر ، والتعامل مع الوجود الكبير ، وتصور الأزل والأبد ، ورؤية الأحداث فى مواضعها المقدرة فى علم الله ، الثابتة فى تصميم هذا الكون . . كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتا ورزانة فى مواجهة الأحداث العابرة . حين تتكشف للوجود الإنسانى وهى مارة به فى حركة الوجود الكونى (والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل ، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله ، لا يختال ولا يفخر بما يعطاه . ولا يبخل ولا يأمر بالبخل فى عطاء . فأما الذى لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ؛ ثم يبخل كذلك ببذل شىء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه ! (ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد)

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{٢٥} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ){٢٦} ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{٢٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٢٨} لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ){٢٩}

وفى النهاية يجىء المقطع الأخير فى السورة ، يعرض باختصار خط سير الرسالة ، وتاريخ هذه العقيدة ، من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقررا حقيقتها وغايتها فى دنيا الناس ؛ ملما بحال أهل الكتاب وأتباع عيسى – عليه السلام – بصفة خاصة . فالرسالة واحدة فى جوهرها ، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق . وبعضهم أنزل عليه كتاب . والنص يقول (وأنزلنا معهم الكتاب) بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة فى جوهرها (والميزان) مع الكتاب . فكل الرسالات جاءت لتقر فى الأرض وفى حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية ، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ؛ وتقيم عليه حياتها فى مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع . ميزانا لا يحابى أحدا لأنه يزن بالحق الإلهى للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع . هذا الميزان الذى أنزله الله فى الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التى تحيق بها فى معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة (ليقوم الناس بالقسط) فبغير هذا الميزان الإلهى الثابت فى منهج الله وشريعته ، لا يهتدى الناس إلى العدل ، وإن اهتدوا إليه لم يثبت فى أيديهم ميزانه ، وهى تضطرب فى مهب الجهالات والأهواء ! (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أنزل الله الحديد (فيه بأس شديد) وهو قوة فى الحرب والسلم (ومنافع للناس) وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد (وليعلم الله من ينصره

ورسله بالغيب) وهى إشارة إلى الجهاد بالسلاح ؛ تجىء في موضعها فى السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال . ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب ، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله ، فهو نصر لمنهجه ودعوته ، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر (إن الله قوى عزيز) ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة فى جوهرها وكتابها وميزانها عاد يقرر وحدتها فى رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) فهى شجرة واحدة باسقة ، متشابكة الفروع ، فيها النبوة والكتاب . ممتدة من فجر البشرية منذ نوح ، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذى صار أصلا باسقا ممتدا إلى آخر الرسالات . فأما الذرية التى جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل ! وقرب نهاية الخط يجىء عيسى بن مريم:(ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم) أى على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم . فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم . ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى بن مريم (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) وهم الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح – عليه السلام – وروحها السمحة وتطهرها الروحى ، وشفافيتها الوضيئة والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة فى المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ، ممن أحسنوا اتباعه . وقد أشارت إليها آيات أخرى فى القرآن الكريم ، كما حفظ منها التاريخ صورا يرويها الرواة عن النجاشى وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين فى الإسلام ، بحكم ما استقر فى قلوبهم من الحق ، مذ كانوا أتباع عيسى بن مريم (ورهبانية ابتدعوها – ما كتبناها عليهم – إلا ابتغاء رضوان الله) والراجح فى تفسير الآية أن هذه الرهبانية التى عرفها تاريخ المسيحية كانت اختيارا من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وابتعادا عن أوضار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء . ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ، وقناعة وعفة ، وذكر وعبادة . . مما يحقق فى أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التى قصدوا إليها بهذه الرهبانية التى ابتدعوها . ولكنها انتهت إلى أن تصبح فى الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهرا عاريا من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل (فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون) والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والمسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية ، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذى يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور . وبعد هذا العرض السريع يجىء الهتاف الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة فى سلسلة المؤمنين برسالة الله فى تاريخها الطويل ؛ وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) لتنالوا كفلين من رحمة الله . ويكون لكم ذلك النور تمشون به . وتدرككم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير ، ونداؤهم على هذا النحو(يا أيها الذين آمنوا) فيه لمسة خاصة لقلوبهم ، واستحياء لمعنى الإيمان ، وتذكير برعايته حق رعايته ؛ واستجاشة للصلة التى تربطهم بربهم الذى يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب . وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله . فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص . معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار . اتقوا الله وآمنوا برسوله (يؤتكم كفلين من رحمته) أى يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب . فرحمة الله لا تتجزأ ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها . ولكن فى هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض (ويجعل لكم نورا تمشون به) وهى هبة لدنية يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه ,وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ؛ فلا تتخبط ، ولا تلتوى بها الطريق (نورا تمشون به) (ويغفر لكم . والله غفور رحيم) فالإنسان إنسان مهما وهب من النور . إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله (والله غفور رحيم) (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) فقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شيء من فضله ، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل (والله ذو الفضل العظيم) وهى دعوة فيها تحضيض واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة . تختم بها السورة ختاما يتناسق مع سياقها كله ، ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كى تحقق إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان فى الأموال والأرواح . فى تجرد وإخلاص . وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة فى خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير . وهى فى بدئها وسياقها وختامها ؛ وفى إيقاعاتها وصورها وظلالها ...

سورة المجادلة

مدنية ، و آياتها ٢٢

نحن في هذه السورة – وفى هذا الجزء كله تقريبا – مع أحداث السيرة فى المجتمع المدنى . مع الجماعة المسلمة الناشئة ؛ حيث تربى وتقوم ، وتعد للنهوض بدورها العالمى , بل بدورها الكونى ، الذى قدره الله لها فى دورة هذا الكون ومقدراته . وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة ، فى نفوس هذه الجماعة ، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور ، ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشئ للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك . وهو دور ضخم إذن يقتضى إعدادا كاملا . ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم ، ناسا من الناس . منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم ، واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة , وخلصت نفوسهم لها ، ووصلوا . وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير ; واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود ، فأصبحوا بهذا طرفا من قدر الله فى الكون ; لا يجدون فى أنفسهم عوجا عنه ، ولا يجدون فى خطاهم تخلفا عن خطاه ، ولا يجدون فى قلوبهم شيئا إلا الله . . كانوا كما جاء عنهم فى هذه السورة (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون) ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد – وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب – حتى قبل الفتح – ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافى ، ولم يتنفس فى الجو الإسلامى فترة طويلة . كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل فى القلوب ، وتربص بالفرص ، وذبذبة بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين . سواء معسكرات المشركين أو اليهود ! ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكونى الكبير المقدر لها فى الأرض جهودا ضخمة ، وصبرا طويلا ، وعلاجا بطيئا ، فى صغار الأمور وفى كبارها . . كانت حركة بناء هائلة هذه التى قام بها الإسلام ، وقام بها رسول الإسلام ﷺ بناء النفوس التى تنهض ببناء المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية , وتقوم على منهج الله ، تفهمه وتحققه ، وتنقله إلى أطراف الأرض فى صورة حية متحركة ، لا فى صحائف وكلمات . ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة فى تاريخ البشرية . فترة اتصال السماء بالأرض فى صورة مباشرة محسوسة ، ومشاركتها فى الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله , والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) فنشهد السماء تتدخل فى شأن يومى لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة ، لتقرر حكم الله فى قضيتها ، وقد سمع – سبحانه – للمرأة وهى تحاور رسول الله فيها ، ولم تكد تسمعها عائشة وهى قريبة منها ! وهى صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته . يليها فى سياق السورة توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله – وهم أعداء الجماعة المسلمة التى تعيش فى كنف الله – مكتوب عليهم الكبت والقهر فى الأرض ، والعذاب المهين فى الآخرة ، مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم ، ونسوه هم وهم فاعلوه! (والله على كل شىء شهيد) ثم توكيد وتذكير بحضور الله – سبحانه – وشهوده لكل نجوى فى خلوة ، يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم) وهى صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره ، كما تملؤه برقابته واطلاعه . ثم يستطرد فى تربية هذه النفوس المؤمنة ؛ فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة فى مجلس رسول الله ﷺ ومجالس العلم والذكر . كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول ﷺ والجد فى هذا الأمر والتوقير . أما بقية السورة بعد هذا فتنصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ؛ ويتآمرون معهم ، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين . وتصورهم فى الآخرة كذلك حلافين كذابين ؛ يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله ، كما كانوا يتقون بهما فى الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع توكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم فى الأذلين وأنهم هم الأخسرون . كما كتب أنه ورسله هم الغالبون . وفى ختام السورة تجىء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التى كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار . والتى كانت الآية الكريمة تشير لها كى ينتهى إليها أولئك الذين ما زالوا بعد فى الطريق ! (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . .) الخ الآية . . . كما وردت فى أول هذا التقديم .

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ{١} الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ{٢} وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{٣} فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٤} إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ{٥} يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{٦} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{٧} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ{٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{٩} إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{١٠} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٢} أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{١٣} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{١٤} أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{١٥} اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{١٦} لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{١٧} يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ{١٨} اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ{١٩} إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ{٢٠} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{٢١} لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ){٢٢}

كان الرجل فى الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول أنت على كظهر أمى . فتحرم عليه ، ولا تطلق منه . وتبقى هكذا ، لا هى حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ؛ ولا هى مطلقة منه فتجد لها طريقا آخر . وكان هذا طرفا من العنت الذى تلاقيه المرأة فى الجاهلية . فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التى تشير إليها هذه الآيات ، ولم يكن قد شرع حكم للظهار . قال الإمام أحمد:حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب ، قالا:حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى معمر ابن عبدالله بن حنظلة ، عن يوسف بن عبدالله بن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة . قالت:فى والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت:كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت:فدخل على يوما فراجعته بشىء فغضب ، فقال:أنت على كظهر أمى . قالت:ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل على ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، قالت:قلت:كلا والذى نفس خويلة بيده ، لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت: فواثبنى ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى . قالت:ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت:فجعل رسول الله ﷺ يقول:" يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه " قالت:فوالله ما برحت حتى نزل فى قرآن ؛ فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال لى:" يا خويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنا " ثم قرأ على (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) إلى قوله تعالى (وللكافرين عذاب أليم) قالت:فقال لى رسول الله ﷺ " مريه فليعتق رقبة . "قالت:فقلت:يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال:" فليصم شهرين متتابعين " . قالت:فقلت:والله إنه لشيخ ما له من صيام . قال:" فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر " . قالت:فقلت:والله يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت:فقال رسول الله ﷺ " فإنا سنعينه بعرق من تمر " . قالت:فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر . قال:" قد أصبت وأحسنت

فاذهبى فتصدقى به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيرا " . قالت:ففعلت . فهذا هو الشأن الذى سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله ﷺ والمرأة التى جاءت تجادله فيه . وهذا هو الشأن الذى أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات ، ليعطى هذه المرأة حقها ، ويريح بالها وبال زوجها ، ويرسم للمسلمين الطريق فى مثل هذه المشكلة العائلية اليومية ! تقول عائشة – رضى الله عنها –:الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ فى جانب البيت ، ما أسمع ما تقول . فأنزل الله عز وجل: قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . . . الآية . وفى رواية خولة – أو خويلة للتصغير والتدليل – للحادث ، وتصرفها هى فيه ، وذهابها إلى رسول الله ﷺ ومجادلتها له ، ونزول القرآن بالحكم . . فى هذا كله صورة من حياة تلك الجماعة الفريدة فى تلك الفترة العجيبة . وشعورها بتلك الصلة المباشرة ، وانتظارها التوجيه من السماء فى كل شأن من شؤونها واستجابة السماء لهذا الانتظار ، والذى يجعل الجماعة كلها – عيال الله – هو يرعاها وهى تتطلع إليه تطلع الطفل الصغير لأبيه وراعيه ! وننظر فى رواية الحادث فى النص القرآنى ، فنجد عناصر التأثير والإيحاء والتربية والتوجيه تسير جنبا إلى جنب مع الحكم وتتخلله وتعقب عليه ، كما هو أسلوب القرآن الفريد (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير) وهو مطلع ذو إيقاع عجيب . . إنكما لم تكونا وحدكما . . لقد كان الله معكما . وكان يسمع لكما . لقد سمع قول المرأة . سمعها تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله . وعلم القصة كلها . وهو يعلم تحاوركما وما كان فيه . . إن الله سميع بصير . يسمع ويرى . هذا شأنه وهذه صورة منه فى الحادث الذى كان الله ثالثكما فيه . ثم يقرر أصل القضية ، وحقيقة الوضع فيها (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور) فهو علاج للقضية من أساسها . إن هذا الظهار قائم على غير أصل . فالزوجة ليست أما حتى تكون محرمة كالأم . فالأم هى التى ولدت . ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أما بكلمة تقال . إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع . وكلمة مزورة ينكرها الحق . والأمور فى الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع ، فى وضوح وتحديد ، فلا تختلط ذلك الاختلاط ، ولا تضطرب هذا الاضطراب (وإن الله لعفو غفور) فيما سلف من هذه الأمور . وبعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يجىء الحكم القضائى فى الموضوع (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير) وقد جعل الله العتق فى كفارات متنوعة ، وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التى أوقعها نظام الحروب فى الرق إلى أجل ، ينتهى بوسائل شتى هذه واحدة منها . وهناك أقوال كثيرة فى معنى (ثم يعودون لما قالوا) نختار منها أنهم يعودون إلى الوطء الذى حرموه على أنفسهم بالظهار . فهذا أقرب ما يناسب السياق . فتحرير رقبة من قبل العودة إلى حله . . ثم التعقيب (ذلكم توعظون به) فالكفارة مذكر وواعظ بعدم العودة إلى الظهار الذى لا يقوم على حق ولا معروف (والله بما تعملون خبير). . خبير بحقيقته ، وخبير بوقوعه ، وخبير بنيتكم فيه . وهذا التعقيب يجىء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب ، وتربية النفوس ، وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافيه . ثم يتابع بيان الحكم فيه (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) ثم التعقيب للبيان والتوجيه (ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) وهم مؤمنون . . ولكن هذا البيان ، وهذه الكفارات وما فيها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه . ذلك مما يحقق الإيمان ، ويربط به الحياة ؛ ويجعل له سلطانا بارزا فى واقع الحياة . (وتلك حدود الله) أقامها ليقف الناس عندها لا يتعدونها . وهو يغضب على من لا يرعاها ولا يتحرج دونها:) وللكافرين عذاب أليم). . بتعديهم وتحديهم وعدم إيمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله كالمؤمنين (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) إن المقطع الأول فى السورة كان صورة من صور الرعاية والعناية بالجماعة المسلمة . وهذا المقطع الثانى صورة من صور الحرب والنكاية للفريق الآخر . فريق الذين يحادون الله ورسوله ، أى الذين يأخذون لهم موقفا عند الحد الآخر فى مواجهة الله ورسوله ! وذكر المحادة بمناسبة ذكره قبلها لحدود الله . فهؤلاء لا يقفون عند حد الله ورسوله ، بل عند الحد الآخر المواجه ! وهو تمثيل للمتخاصمين المتنازعين ، لتفظيع عملهم وتقبيح موقفهم . وساء موقف مخلوق يتحدى فيه خالقه ورازقه ، ويقف فى تبجح عند الحد المواجه لحده ! هؤلاء المحادون المشاقون المتبجحون: (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم). . والأرجح أن هذا دعاء عليهم . والدعاء من الله – سبحانه – حكم . فهو المريد وهو الفعال لما يريد . والكبت القهر والذل . والذين من قبلهم إما أن يكونوا هم الغابرين من الأقوام الذين أخذهم الله بنكاله وإما أن يكونوا الذين قهرهم المسلمون فى بعض المواقع التى تقدمت نزول هذه الآية ، كما حدث فى غزوة بدر مثلا (وقد أنزلنا آيات بينات) تفصل هذه العبارة بين مصير الذين يحادون الله ورسوله فى الدنيا ومصيرهم فى الآخرة . . لتقرير أن هذا المصير وذاك تكفلت ببيانه هذه الآيات . وكذلك لتقرير أنهم يلاقون هذه المصائر لا عن جهل ولا عن غموض فى الحقيقة ، فقد وضحت لهم وعلموها بهذه الآيات البينات . ثم يعرض مصيرهم فى الآخرة مع التعقيب الموحى الموقظ

المربى للنفوس (وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا ، فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) والمهانة جزاء التبجح . وهى مهانة يوم يبعثهم الله جميعا . مهانة على رؤوس الجموع . وهو عذاب يقوم على حق وبيان لما عملوا . إن كانوا هم قد نسوه فإن الله أحصاه بعلمه الذى لا يند عنه شيء ، ولا يغيب عنه خاف (والله على كل شيء شهيد) وتلتقى صورة الرعاية والعناية ، بصورة الحرب والنكاية ، فى علم الله واطلاعه ، وشهوده وحضوره . فهو شاهد حاضر للعون والرعاية ؛ وهو شاهد حاضر للحرب والنكاية . فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون . وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون ! ويستطرد السياق إلى رسم صورة حية من هذا الشهود ، تمس أوتار القلوب (ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض) تبدأ الآية بتقرير علم الله الشامل لما فى السماوات وما فى الأرض على إطلاقه ، فتدع القلب يرود آفاق السماوات وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شيء فى هذا المدى الوسيع المتطاول . من صغير وكبير ، وخاف وظاهر ، ومعلوم ومجهول .ثم تتدرج من هذه الآفاق وتلك الأرجاء ، وتزحف وتقرب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهى تهز القلوب (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) وهى حقيقة فى ذاتها ، ولكنها تخرج فى صورة لفظية عميقة التأثير . صورة تترك القلوب وجلة ترتعش مرة ، وتأنس مرة ، وهى مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس . وحيثما اختلى ثلاثة تلفتوا ليشعروا بالله رابعهم . وحيثما اجتمع خمسة تلفتوا ليشعروا بالله سادسهم . وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك ! (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) وهذه لمسة أخرى ترجف وتزلزل . وتنتهى الآية بصورة عامة كما بدأت (إن الله بكل شيء عليم) وهكذا تستقر حقيقة العلم الإلهى فى القلوب ، بهذه الأساليب المنوعة فى عرضها فى الآية الواحدة (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون فى أنفسهم:لولا يعذبنا الله بما نقول ! حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) والآية توحى بأن خطة رسول الله ﷺ مع المنافقين فى أول الأمر كانت هى النصح لهم بالاستقامة والإخلاص ، ونهيهم عن الدسائس والمؤامرات التى يدبرونها بالاتفاق مع اليهود فى المدنية وبوحيهم . وأنهم بعد هذا كانوا يلجون فى خطتهم اللئيمة ، وفى دسائسهم الخفية ، وفى التدبير السيء للجماعة المسلمة ، وفى اختيار الطرق والوسائل التى يعصون بها أوامر الرسول ﷺ ويفسدون عليه أمره وأمر المسلمين المخلصين . وظاهر من سياق السورة من مطلعها أن الله قد أخبر الرسول ﷺ بما كانوا يقولونه فى أنفسهم ، وبمجالسهم ومؤامراتهم . فقد سبق فى السورة إعلان أن الله قد سمع للمرأة المجادلة ; وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم . . الخ . مما يوحى بأنه أطلع رسوله على مؤامرات أولئك المنافقين وهو حاضر مجالسهم ! وبما يقولونه كذلك فى أنفسهم . ثم رد عليهم بقوله تعالى (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) وهنا يلتفت إلى الذين آمنوا ، يخاطبهم بهذا النداء: يا أيها الذين آمنوا لينهاهم عن التناجى بما يتناجى به المنافقون من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويذكرهم تقوى الله ، ويبين لهم أن النجوى على هذا النحو هى من إيحاء الشيطان ليحزن الذين آمنوا ,فليست تليق بالمؤمنين (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون . إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهنا يناديهم الله بصفتهم التى تربطهم به ، وتجعل للنداء وقعه وتأثيره: يا أيها الذين آمنوا . . لينهاهم عن التناجى - إذا تناجوا - بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . ويبين لهم ما يليق بهم من الموضوعات التى يتناجى بها المؤمنون (وتناجوا بالبر والتقوى) لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما . والبر:الخير عامة . والتقوى:اليقظة والرقابة لله سبحانه ، وهى لا توحى إلا بالخير . ويذكرهم بمخافة الله الذى يحشرون إليه , فيحاسبهم بما كسبوا . وهو شاهده ومحصيه . مهما ستروه وأخفوه . ثم ينفرهم من التناجى والمسارة والتدسس بالقول فى خفية عن الجماعة المسلمة ، التى هم منها ، ومصلحتهم مصلحتها ، وينبغى ألا يشعروا بالانفصال عنها فى شأن من الشئون . فيقول لهم:إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحديث تبث فى قلوبهم الحزن والتوجس ، وتخلق جوا من عدم الثقة ؛ وأن الشيطان يغرى المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوساوس والهموم . ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا - إلا بإذن الله - وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله . فليس وراء ذلك توكل ، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون ! وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهى عن التناجى فى الحالات التى توقع الريبة وتزعزع الثقة وتبعث التوجس: جاء فى الصحيحين من حديث الأعمش - بإسناده - عن عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - قال:قال رسول الله [ص]:" إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه . " وهو أدب رفيع ، كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك . فأما حيث تكون هناك مصلحة فى كتمان سر ، أو ستر عورة ، فى شأن عام أو خاص ، فلا مانع من التشاور فى سر

وتكتم . وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة . ولا يجوز أن يكون تجمعا جانبيا بعيدا عن علم الجماعة (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فهو الحارس الحامى ، وهو القوى العزيز ، وهو العليم الخبير . وهو الشاهد الحاضر الذى لا يغيب . ولا يكون فى الكون إلا ما يريد . وقد وعد بحراسة المؤمنين . فأى طمأنينة بعد هذا وأى يقين ؟ ثم يأخذ الذين آمنوا بأدب آخر من آداب الجماعة (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم:تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . وإذا قيل:انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . والله بما تعملون خبير) ويظهر من بعض الروايات التى حكت سبب نزول الآية أن لها علاقة واقعية بالمنافقين , مما يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد فى السياق . قال قتادة:نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض . وقال مقاتل بن حيان:أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله ﷺ يومئذ فى الصفة , وفى المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا:السلام عليكم أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى ﷺ عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فعرف النبى ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم . فشق ذلك على النبى ﷺ فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر:قم يا فلان . وأنت يا فلان . فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر . فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبى ﷺ الكراهة فى وجوههم . فقال المنافقون:ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء ! إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . . فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال:" رحم الله رجلا يفسح لأخيه " . . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا ، فيفسح القوم لإخوانهم . ونزلت هذه الآية يوم الجمعة . وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التى تنهى عن أن يقيم الرجل الرجل من مكانه ليجلس فيه . كما جاء فى الصحيحين:" لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا " . .وما ورد كذلك من ضرورة استقرار القادم حيث انتهى به المجلس . فلا يتخطى رقاب الناس ليأخذ مكانا فى الصدر ! فالآية تحض على الإفساح للقادم ليجلس ، كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع . وهذا الأمريجىء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة . لا من القادم . والغرض هو إيجاد الفسحة فى النفس قبل إيجاد الفسحة فى المكان . ومتى رحب القلب اتسع وتسامح ، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة ، فأفسح لهم فى المكان عن رضى وارتياح . فأما إذا رأى القائد أن هناك اعتبارا من الاعتبارات يقتضى إخلاء المكان فالطاعة يجب أن ترعى عن طواعية نفس ورضى خاطر وطمأنينة بال . مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك ، من عدم تخطى الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه . وإنما هى السماحة والنظام يقررهما الإسلام . والأدب الواجب فى كل حال . وعلى طريقة القرآن فى استجاشة الشعور عند كل تكليف ، فإنه يعد المفسحين فى المجالس بفسحة من الله لهم وسعة (فافسحوا يفسح الله لكم) ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول برفعة فى المقام: (وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقى الأمر بالقيام . وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول ﷺ لتلقى العلم فى مجلسه . فالآية تعلمهم:أن الإيمان الذى يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر ، والعلم الذى يهذب القلب فيتسع ويطيع ؛ يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات . وفى هذا مقابل لرفعة المكان الذى تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول ﷺ (والله بما تعملون خبير) فهو يجزى به عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون . كذلك يعلمهم القرآن أدبا آخر فى علاقتهم برسول الله ﷺ فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله ﷺ ليحدثه كل فرد فى شأن يخصه ؛ ويأخذ فيه توجيهه ورأيه ; أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله ﷺ الجماعية ؛ وعدم الشعور بقيمة وقته ، وبجدية الخلوة به ، وأنها لا تكون إلا لأمر ذى بال . فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعانى بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذى يريد أن يخلو برسول الله ﷺ ويقتطع من وقته الذى هو من حق الجماعة . فى صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة . ذلك خير لكم وأطهر . فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) وقد عمل بهذه الآية الإمام على – كرم الله وجهه – فكان معه – كما روى عنه – دينار فصرفه دراهم . وكان كلما أراد خلوة برسول الله ﷺ لأمر تصدق بدرهم ! ولكن الأمر شق على المسلمين . وعلم الله ذلك منهم . وكان الأمر قد أدى غايته ، وأشعرهم بقيمة الخلوة التى يطلبونها . فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف ; وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله . والله خبير بما تعملون) وفى هاتين الآيتين والروايات التى ذكرت أسباب نزولهما نجد لونا من ألوان

الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة فى الصغير والكبير من شئون الشعور والسلوك . ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود ، فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم , ويتوعدهم بافتضاح أمرهم ، وسوء مصيرهم ، وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تدبيراتهم (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ؟ ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، فلهم عذاب مهين . لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء . ألا إنهم هم الكاذبون . إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوما غضب الله عليهم – وهم اليهود – تدل على أنهم كانوا يمعنون فى الكيد للمسلمين ، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم ; كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت ، بحيث يخافها المنافقون ، فيضطرون – عندما يواجههم رسول الله ﷺ والمؤمنون بما يكشفه الله من تدبيراتهم ومؤامراتهم – إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال ؛ وهم يعلمون أنهم كاذبون فى هذه الأيمان . إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم: اتخذوا أيمانهم جنة أى وقاية . وبذلك يستمرون فى دسائسهم للصد عن سبيل الله ! والله يتوعدهم مرات فى خلال هذه الآيات (أعد الله لهم عذابا شديدا . إنهم ساء ما كانوا يعملون) (فلهم عذاب مهين) (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ويصور مشهدهم يوم القيامة فى وضع مزر مهين ، وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم) مما يشير إلى أن النفاق قد تأصل فى كيانهم ، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة . وفى حضرة الله ذى الجلال . الذى يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور ! (ويحسبون أنهم على شىء) وهم على هواء لا يستندون إلى شىء . أى شىء ! ويدمغهم بالكذب الأصيل الثابت (ألا إنهم هم الكاذبون) ثم يكشف عن علة حالهم هذه . فقد استولى عليهم الشيطان كلية (فأنساهم ذكر الله) والقلب الذى ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر (أولئك حزب الشيطان) الخالص للشيطان الذى يقف تحت لوائه ، ويعمل باسمه ، وينفذ غاياته . وهو الشر الخالص الذى ينتهى إلى الخسران الخالص (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وهى حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التى يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين . وتطمئن قلوب المسلمين . والله – سبحانه وتعالى – يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين ! (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى . إن الله قوى عزيز) وهذا وعد الله الصادق الذى كان والذى لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانا من الظاهر الذى يخالف هذا الوعد الصادق . فالذى وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة فى الله فى هذه الأرض ؛ ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف فى طريقها من عقبات الشرك والوثنية ، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور فى بعض بقاع الأرض – كما يقع الآن فى الدول الملحدة والوثنية – فإن العقيدة فى الله ظلت هى المسيطرة بصفة عامة . فضلا على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد ، لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدى فى كل يوم إلى أدلة جديدة تهدى إلى الاعتقاد فى الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد . وفى النهاية تجىء القاعدة الثابتة التى يقف عليها المؤمنون ، أو الميزان الدقيق للإيمان فى النفوس ، إنها المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائى للصف المتميز , والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط فى العروة الواحدة بالحبل الواحد (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) فما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما يجمع إنسان فى قلب واحد ودين:ودا لله ورسوله ووودا لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معا فلا يجتمعان (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان . إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان . والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التى لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبو عبيدة أباه فى يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلى وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجردين من علائق الدم والقرابة إلى أصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم فى ميزان الله (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) فهو مثبت فى قلوبهم بيد الله مكتوب فى صدورهم بيمين الرحمن . فلا زوال له ولا اندثار , ولا انطماس فيه ولا غموض ! (وأيدهم بروح منه) وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذى يمدهم بالقوة والإشراق ،

ويصلهم بمصدر القوة والإشراق (ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) جزاء ما تجردوا فى الأرض من كل رابطة وآصرة ؛ ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة ، ترسم حالة المؤمنين هؤلاء ، فى مقام عال رفيع . وفي جو راض وديع . ، ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم . انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به ؛ فتقبلهم فى كنفه ، وأفسح لهم فى جنابه ، وأشعرهم برضاه . فرضوا . رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه (أولئك حزب الله) فهم جماعته . المتجمعة تحت لوائه . المتحركة بقيادته . المهتدية بهديه . المحققة لمنهجه . الفاعلة فى الأرض ما قدره وقضاه . فهى قدر من قدر الله (ألا إن حزب الله هم المفلحون) ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون ؟ وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين:حزب الله وحزب الشيطان . وإلى رايتين اثنتين:راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق , وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل . . وهما صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان !! لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية . .أنما هي العقيدة ، والعقيدة وحدها . فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائرهم وتختلف أسرهم ، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله ، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل , فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لا من أرض ، ولا من جنس ، ولا من وطن ولا من لون ، ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر . . لقد أنبتت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فأنبتت هذه الوشائج جميعا . . وهذه الصورة هي أنسب ختام للسورة التي بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة فى واقعة المرأة الفقيرة التى سمع الله لها وهى تجادل رسوله ﷺ فى شأنها وشأن زوجها !

سورة الحشر

مدنية ، و آياتها ٢٤

نزلت هذه السورة في حادث بنى النضير – حى من أحياء اليهود – فى السنة الرابعة من الهجرة . تصف كيف وقع ؟ ولماذا وقع ؟ وما كان فى أعقابه من تنظيمات فى الجماعة الإسلامية . . ترويها بطريقة القرآن الخاصة ، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات كانت وقعة بنى النضير فى أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . ومما يذكر عنها أن رسول الله ﷺ ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى – رضى الله عنهم – إلى محلة بنى النضير ، يطلب منهم المشاركة فى أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد فى أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بنى النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم ، بينما كانوا يدبرون أمرا لاغتيال رسول الله ﷺ ومن معه . وكان ﷺ جالسا إلى جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض:إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فمن رجل منكم يعلو هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب . فقال:أنا لذلك . فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال . فأطلعهم رسول الله ﷺ ما يبيت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضى أمرا . فلما غاب استبطأه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه ، فعلموا أنه دخل المدينة . وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحرب بنى النضير لظهور الخيانة منهم ، ونقض عهد الأمان الذى بينه وبينهم . وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف – من بنى النضير – فى هجاء رسول الله ﷺ وتأليبه الأعداء عليه . وما قيل من أن كعبا ورهطا من بنى النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبى ﷺ مع قيام ذلك العهد بينهم وبينه . مما جعل رسول الله ﷺ يأذن لمحمد بن مسلمة فى قتل كعب بن الأشرف . فقتله . فلما كان التبييت للغدر برسول الله ﷺ فى محلة بنى النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم . وفق القاعدة الإسلامية (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين) فتجهز رسول الله ﷺ وحاصر محلة بنى النضير ، وأمهلهم ثلاثة أيام – وقيل عشرة – ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم . ولكن المنافقين فى المدينة – وعلى رأسهم عبدالله بن أبى بن سلول رأس النفاق – أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة , وقالوا لهم:أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم . وإن قوتلتم قاتلنا معكم , وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتحصن اليهود فى الحصون ؛ فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخيلهم والتحريق فيها . فنادوه:أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ وفى الرد عليهم نزل قوله تعالى (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) ولما بلغ الحصار ستا وعشرين ليلة ، يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح . فأجابهم رسول الله ﷺ فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهر بعيره ؛ أو يخربه حتى لا يقع فى أيدى المسلمين ؛ وكان المسلمون قد هدموا وخربوا بعض الجدران التى اتخذت حصونا فى أيام الحصار . وفى هذا يقول الله فى هذه السورة (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين , فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) وكان منهم من سار إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام . وكان من أشرافهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وحى بن أخطب ، ممن ورد ذكرهم بعد ذلك فى تأليب المشركين على المسلمين فى غزوة الأحزاب ووقعة بنى قريظة" فى سورة الأحزاب" وكان لبعضهم كذلك ذكر فى فتح خيبر "فى سورة الفتح" وكانت أموال بنى النضير فيئا خالصا لله وللرسول ؛ لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا جمال . فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف ، وأبو دجانة سماك بن خرشة . وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذى تركوه فى مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم . وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم فى أريحية عالية ، وأخوة صادقة ، وإيثار عجيب . فلما واتت هذه الفرصة سارع رسول الله ﷺ لإقامة الأوضاع الطبيعية فى المجتمع الإسلامى , كى يكون للفقراء مال خاص ، وكى لا يكون

المال متداولا فى الأغنياء وحدهم . ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين اللذين يستحقان لفقرهما . . وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم – والراجح أنهم من المنافقين – فقال تعالى (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير) وقال رسول الله ﷺ للأنصار:" إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة " فقالت الأنصار:بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، وفى هذا نزل قوله تعالى (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا , ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فهذا هو الحادث الذى نزلت فيه هذه السورة ، وتعلقت به نصوصها ، بما فى ذلك خاتمة السورة التى يتوجه فيها الخطاب للذين آمنوا ممن شهدوا هذا الحادث وممن يعرفونه بعد ذلك . على طريقة القرآن فى تربية النفوس بالأحداث وبالتعقيب عليها ، وربطها بالحقائق الكلية الكبيرة . . ثم الإيقاع الأخير فى السورة بذكر صفات الله الذى يدعو الذين آمنوا ويخاطبهم بهذا القرآن . وهى صفات ذات فاعلية وأثر فى هذا الكون ؛ وعلى أساس تصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعى المدرك البصير . وتبدأ السورة وتختتم بتسبيح الله الذى له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . فيتناسق البدء والختام مع موضوع السورة ، ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكر فى تدبير الله الحكيم .والآن نسير مع النصوص القرآنية لنرى كيف تصور الأحداث ، وكيف تربى النفوس بهذه الأحداث . .

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١} هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ{٢} وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ{٣} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{٤} مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ{٥} وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ{٦} مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{٧} لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{٨} وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{٩} وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{١٠} أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{١١} لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ{١٢} لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ{١٣} لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ{١٤} كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٥} كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ{١٦} فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ{١٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{١٨} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{١٩} لَا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ{٢٠} لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{٢١} هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ{٢٢} هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ{٢٣} هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ){٢٤}

(سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم) بهذه الحقيقة التى وقعت وكانت فى الوجود . حقيقة تسبيح كل شىء فى السماوات وكل شىء فى الأرض لله ، واتجاهها إليه بالتنزيه والتمجيد .

تفتتح السورة التى تقص قصة إخراج الله للذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ، وإعطائها للمؤمنين به المسبحين بحمده الممجدين لأسمائه الحسنى (وهو العزيز الحكيم) القوى القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه . الحكيم فى تدبيره وتقديره (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . والله هو فاعل كل شىء . ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة فى صورة مباشرة , توقع فى الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر ! وساق المخرجين للأرض التى منها يحشرون ، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التى أخرجوا منها . ويؤكد فعل الله المباشر فى إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية فى الآية (ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ولا هم كانوا يسلمون فى تصور وقوعه ! فقد كانوا من القوة والمنعة فى حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا . وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التى لا تردها الحصون ! (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف فى قلوبهم الرعب)

أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم ! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب ، ففتحوا حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ! فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم ، ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم ، ويمكنون المؤمنين من إخرابها (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) وبهذا تتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب ، فى تلك الصورة الموحية ، وهذه الحركة المصورة . هنا يجىء أول تعقيب فى ظل هذه الصورة ، وعلى إيقاع هذه الحركة (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وهو هتاف يجىء فى مكانه وفى أوانه . والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار . والآية التالية تقرر أن إرادة الله فى النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم فى الدنيا غير ما ينتظرهم فى الآخرة (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار) فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله . بهذه الصورة التى وقعت أو بصورة أخرى . ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابا آخر . غير عذاب النار الذى ينتظرهم هناك . فقد استحقوا عذاب الله فى صورة من صوره على كل حال ! (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) والمشاقة أن يأخذوا لهم شقا غير شق الله ، وجانبا غير جانبه . وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب فى صدر الآية . فاكتفى فى عجزها بمشاقة الله وحده فهى تشمل مشاقة الرسول وتتضمنها . ثم ليقف المشاقون فى ناحية أمام الله - سبحانه - وهو موقف فيه تبجح قبيح ، حين يقف المخاليق فى وجه الخالق يشاقونه ! وموقف كذلك رعيب ، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه . وهو شديد العقاب . ولا يفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بنى النضير بأنهم (الذين كفروا من أهل الكتاب) وتكرار هذه الصفة فى السورة . فهى حقيقة لأنهم كفروا بدين الله فى صورته العليا التى جاء بها محمد ﷺ وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها .. فذكر هذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ ! ثم يطمئن المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ، أو تركه كذلك قائما ، وبيان حكم الله فيه . وقد دخل نفوس بعض المسلمين شىء من هذا (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ، وليخزى الفاسقين) واللينة هى الجيدة من النخل ، أو نوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك . وقد قطع المسلمون بعض نخل اليهود ، وأبقوا بعضه . فتحرجت صدورهم من الفعل ومن الترك . وكانوا منهيين قبل هذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه فى التخريب والتحريق . فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص ، يطمئن القلوب . فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله . فهو الذى تولى بيده هذه الموقعة ؛ وأراد فيها ما أراد ، وأنفذ فيها ما قدره , وكان كل ما وقع من هذا بإذنه . أراد به أن يخزى الفاسقين . وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه ؛ وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته . وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء . فأما المقطع الثانى فى السورة فيقرر حكم الفىء الذى أفاءه الله على رسوله فى هذه الوقعة وفيما يماثلها ، مما لم يتكلف فيه المسلمون غزوا ولا قتالا . . أى الوقائع التى تولتها يد الله جهرة ومباشرة وبدون ستار من الخلق كهذه الوقعة ، وهذه الآيات التى تبين حكم الله فى هذا الفىء وأمثاله ، تحوى فى الوقت ذاته وصفا لأحوال الجماعة المسلمة فى حينها ؛ كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالى العصور , وخصائصها المميزة التى تترابط بها وتتماسك على مدار الزمان ، لا ينفصل فيها جيل عن جيل ، ولا قوم عن قوم ، ولا نفس عن نفس ، فى الزمن المتطاول بين أجيالها المتعاقبة فى جميع بقاع الأرض , وهى حقيقة ضخمة كبيرة ينبغى الوقوف أمامها طويلا فى تدبر عميق (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير) والإيجاف: هو الركض والإسراع . والركاب: هو الجمال . والآية تذكر المسلمين أن هذا الفىء الذى خلفه وراءهم بنو النضير لم يركضوا هم

عليه خيلا ، ولم يسرعوا إليه ركبا ، فحكمه ليس حكم الغنيمة التى أعطاهم الله أربعة أخماسها ، واستبقى خمسها فقط لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كما حكم الله فى غنائم بدر الكبرى . إنما حكم هذا الفيء أنه كله لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والرسول ﷺ هو الذى يتصرف فيه كله فى هذه الوجوه . وذو القربى المذكورون فى الآيتين هم قرابة رسول الله ﷺ أن كانت الصدقات لا تحل لهم ، فليس لهم فى الزكاة نصيب ، وأن كان النبى لا يورث فليس لذوى قرابته من ماله شيء . وفيهم الفقراء الذين لا مورد لهم . فجعل لهم من خمس الغنائم نصيبا ، كما جعل لهم من هذا الفيء وأمثاله نصيبا . فأما بقية الطوائف والمصارف فأمرها معروف . والرسول ﷺ هو المتصرف فيها هذا هو حكم الفيء تبينه الآيات . ولكنها لا تقتصر على الحكم وعلته القريبة . إنما تفتح القلوب على حقيقة أخرى كبيرة (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) فهو قدر الله . وهم طرف من هذا القدر يسلطه على من يشاء (والله على كل شيء قدير) فما يتحركون بهواهم ، وما يأخذون أو يدعون لحسابهم . وما يغزون أو يقعدون ، وما يخاصمون أو يصالحون ، إلا لتحقيق جانب من قدر الله فى الأرض منوط بهم وبتصرفاتهم وتحركاتهم فى هذه الأرض . والله هو الفاعل من وراء ذلك كله . وهو على كل شيء قدير (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وتبين هذه الآية الحكم الذى أسلفنا تفصيلا . ثم تعلل هذه القسمة فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الإقتصادى والإجتماعى فى المجتمع الإسلامى (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) كما تضع قاعدة كبرى فى التشريع الدستورى للمجتمع الإسلامى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفيء وتوزيعه ، إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى آماد كثيرة فى أسس النظام الاجتماعى الإسلامى . والقاعدة الأولى ، قاعدة التنظيم الاقتصادى ، تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية فى الإسلام . فالملكية الفردية معترف بها فى هذا النظرية . ولكنها محددة بهذه القاعدة . قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعا من التداول بين الفقراء . فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الإغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعى كله . وجميع الارتباطات والمعاملات فى المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقى عليه إن وجد . ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة . ففرض الزكاة . وجعل حصيلتها فى العام اثنين ونصفا فى المئة من أصل رؤوس الأموال النقدية ، وعشرة أو خمسة فى المئة من جميع الحاصلات . وما يعادل ذلك فى الأنعام . وجعل الحصيلة فى الركاز وهو كنوز الأرض مثلها فى المال النقدى . وهى نسب كبيرة . ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينما جعل الفيء كله للفقراء . وجعل نظامه المختار فى إيجار الأرض هو المزارعة – أى المشاركة فى المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها . وجعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء . وأن يوظف فى أموال الأغنياء عند خلو بيت المال . وحرم الاحتكار . وحظر الربا . وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء . وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادى كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التى تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى. ومن ثم فالنظام الإسلامى نظام يبيح الملكية الفردية ، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالى ، كما أن النظام الرأسمالى ليس منقولا عنه ، فما يقوم النظام الرأسمالى إطلاقا بدون ربا وبدون احتكار ، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير . نشأ وحده . وسار وحده ، وبقى حتى اليوم وحده . نظاما فريدا متوازن الجوانب ، متعادل الحقوق والواجبات ، ومتناسقا تناسق الكون كله . مذ كان صدوره عن خالق الكون . والكون متناسق موزون ! فأما القاعدة الثانية – قاعدة تلقى الشريعة من مصدر واحد (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون فى الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ من عند الله قرآنا أو سنة . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول ﷺ . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، لأنه فقد السند الأول الذى يستمد منه السلطان . . وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التى تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات فى الإسلام هو شرع الله الذى جاء به الرسول ﷺ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها – والإمام نائب عن الأمة فى هذا – وفى هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما أتاها الرسول فى أى تشريع فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول ﷺ وهذا لا ينقض تلك النظرية ، إنما هو فرع عنها . فالمرجع فى أى تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول ﷺ إن كان هناك نص . وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لا نص فيه . وتنحصر سلطة الأمة – والإمام النائب عنها – فى هذه الحدود . وهو نظام فريد لا

يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية . وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله . وينسق بين ناموس الكون الذى وضعه الله له والقانون الذى يحكم البشر وهو من الله . كى لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون ، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح ! وتربط الآية هاتين القاعدتين فى قلوب المؤمنين بمصدرهما الأول . . وهو الله . . فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وهذا هو الضمان الأكبر الذى لا احتيال عليه ، ولا هروب منه . فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر ، خبير بالأعمال ، وإليه المرجع والمآب . وعلموا أنه شديد العقاب . وعلموا أنهم مكلفون ألا يكون المال دولة بينهم ، وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه فى غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب . ولقد كان توزيع ذلك الفيء – فيء بنى النضير – على المهاجرين وحدهم عدا رجلين من الأنصار إجراء خاصا بهذا الفيء ، تحقيقا لقاعدة (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) فأما الحكم العام ، فهو أن يكون للفقراء عامة . من المهاجرين ومن الأنصار وممن يأتى بعدهم من الأجيال . وهذا ما تضمنته الآيات التالية فى السياق . ولكن القرآن لا يذكر الأحكام جافة مجردة ، إنما يوردها في جو حى يتجاوب فيه الأحياء . ومن ثم أحاط كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث بصفاتها الواقعية الحية التى تصور طبيعتها وحقيقتها ؛ وتقرر الحكم حيا يتعامل مع هؤلاء الأحياء (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا , وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون) وهى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين . . أخرجوا إخراجا من ديارهم وأموالهم . أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم فى مكة . لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله . وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) اعتمادهم على الله فى فضله ورضوانه . لا ملجأ لهم سواه , ولا جناب لهم إلا حماه . . وهم مع أنهم مطاردون قليلون (ينصرون الله ورسوله) بقلوبهم وسيوفهم فى أحرج الساعات وأضيق الأوقات (أولئك هم الصادقون) الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وصدقوها بعملهم . وكانوا صادقين مع الله فى أنهم اختاروه . وصادقين مع رسوله فى أنهم اتبعوه . وصادقين مع الحق فى أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس ! وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار . هذه المجموعة التى تفردت بصفات ، وبلغت إلى آفاق ، لولا أنها وقعت بالفعل ، لحسبها الناس أحلاما طائرة ورؤى مجنحة ومثلا عليا قد صاغها خيال محلق (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم) أى دار الهجرة . يثرب مدينة الرسول ﷺ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين . كما تبوأوا فيها الإيمان . وكأنه منزل لهم ودار . وهو تعبير ذو ظلال . وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان . لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذى تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم . وبهذا البذل السخى . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء . حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر فى دار أنصارى إلا بقرعة . لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين ! (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) مما يناله المهاجرون من مقام مفضل فى بعض المواضع ، ومن مال يختصون به كهذا الفيء ، فلا يجدون فى أنفسهم شيئا من هذا . ولا يقول:حسدا ولا ضيقا . إنما يقول (شيئا) مما يلقى ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم ، فلا تجد شيئا أصلا (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا . وكانوا كذلك فى كل مرة وفى كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فهذا الشح . شح النفس . هو المعوق عن كل خير . لأن الخير بذل فى صورة من الصور . بذل فى المال . وبذل فى العاطفة . وبذل فى الجهد . وبذل فى الحياة عند الاقتضاء . وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطى . ومن يوق شح نفسه ، فقد وقى هذا المعوق عن الخير ، فانطلق إليه معطيا باذلا كريما . وهذا هو الفلاح فى حقيقة معناه (والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون:ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان , ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم) وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية . وهى تبرز أهم ملامح التابعين . كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق فى جميع الأوطان والأزمان . هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار – ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية فى المدينة ، إنما كانوا قد جاءوا فى علم الله وفى الحقيقة القائمة فى هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان – سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها فى طلب المغفرة , لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان ؛ وفى طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان . مع الشعور برأفة الله ، ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة (ربنا إنك رؤوف رحيم) وتتجلى من وراء تلك

النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة فى هذا الوجود . تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التى تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها , فى تضامن وتكافل وتواد وتعاطف . وشعور بوشيجة القربى العميقة التى تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب ؛ وتتفرد وحدها فى القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة , فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة ، كما يذكر أخاه الحى ، أو أشد ، فى إعزاز وكرامة وحب . ويحسب السلف حساب الخلف . ويمضى الخلف على آثار السلف . صفا واحدا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان ، تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم ، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم . وحين ينتهى السياق من رسم هذه الصورة الوضيئة ، ورفعها على الأفق فى إطار النور . يعود إلى الحادث الذى نزلت فيه السورة ، ليرسم صورة لفريق آخر ممن اشتركوا فيها . فريق المنافقين ، وهى حكاية لما قاله المنافقون ليهود بنى النضير ، ثم لم يفوا به ، وخذلوهم فيه ، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب . ولكن فى كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة ، وتمس قلبا ، وتبعث انفعالا ، وتقر مقوما من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق . وأول لفتة هى تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) فأهل الكتاب هؤلاء كفروا . والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام ! ثم هذا التوكيد الشديد فى وعد المنافقين لإخوانهم (لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم) والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون ، ويؤكد غير ما يؤكدون (والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار . ثم لا ينصرون) وكان ما شهد به الله . وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه ! ثم يقرر حقيقة قائمة فى نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب (لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله . ولو خافوا الله ما خافوا أحدا من عباده . فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة . ولا يجتمع فى قلب خوف من الله وخوف من شىء سواه . فالعزة لله جميعا ، وكل قوى الكون خاضعة لأمره (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) فمم يخاف إذن ذلك الذى يخاف الله ؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة . ويقرر فى الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة . ويمضى يقرر حالة قائمة فى نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب ، تنشأ من حقيقتهم السابقة ، ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله (لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز فى "تشخيص" حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم فى أى زمان وفى أى مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة فى الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة . فما كانوا يقاتلونهم إلا فى المستعمرات المحصنة فى أرض فلسطين . فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان . حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء . وسبحان العليم الخبير ! وتبقى الملامح النفسية الأخرى (بأسهم بينهم شديد) (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم ، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان ، والجنس والوطن والعشيرة (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض ، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا فى معسكر واحد . ولكن الخبر الصادق يأتينا من عند الله بأنهم ليسوا كذلك فى حقيقتهم ؛ إنما هو مظهر خارجى خادع . وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع . فيبدو من ورائه صدق الخبر فى دنيا الواقع المنظور ، وينكشف الحال عن نزاع فى داخل المعسكر الواحد ، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء ، وتصادم الاتجاهات . وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذى لا يمثل حقيقة الحال . وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس فى القلوب الشتيتة المتفرقة ! إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب . . من المسلمين . . عندما تتفرق قلوب المسلمين ، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التى عرضتها الآية فى المقطع السابق فى هذه السورة . فأما فى غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز ، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب (بأسهم بينهم شديد) (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) ولم يكن حادث بنى النضير هو الأول من نوعه ، فقد سبقه حادث بنى قينقاع الذى تشير إليه الآية بعد ذلك غالبا (كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) ووقعة بنى قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد . وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد . فلما انتصر المسلمون على المشركين فى بدر كره اليهود ذلك ، وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار العظيم , وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم فى المدينة فيضعف

من مركزهم بقدر ما يقوى من مركز المسلمين . وبلغ رسول الله ﷺ ما يتهامسون به وما يفكرون فيه من الشر ، فذكرهم العهد وحذرهم مغبة هذ الاتجاه . فردوا ردا غليظا مغيظا فيه تهديد . قالوا:يا محمد . إنك لترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ! ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين ؛ وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وشدت يهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين . فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع . وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه . فقام رأس المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول يجادل رسول الله عنهم ، باسم ما كان بينهم وبين الخزرج من عهد ! ولكن الحقيقة كانت هى هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ! فرضى رسول الله ﷺ فى النهاية أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم - إلا السلاح - ورحلوا إلى الشام . فهذه هى الواقعة التى يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بنى النضير وحقيقتهم . . وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء ! ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة ، فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة . يضرب لهم مثلا بحال دائمة . حال الشيطان مع الإنسان ، الذى يستجيب لإغرائه فينتهى وإياه إلى شر مصير (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان:اكفر . فلما كفر قال:إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين) وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بنى الإنسان ، تتفقان مع طبيعته ومهمته . فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان . وحاله هو هذا الحال ! وبهذا المثل الموحى تنتهى قصة بنى النضير . وقد ضمت فى ثناياها وفى أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات . واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة . وعند هذا الحد من رواية الحادث والتعقيب عليه وربطه بالحقائق البعيدة المدى يتجه الخطاب فى السورة إلى المؤمنين ، يهتف بهم باسم الإيمان ، ويناديهم بالصفة التى تربطهم بصاحب الخطاب (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) والتقوى حالة فى القلب يشير إليها اللفظ بظلاله ، ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها . حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله فى كل حالة . خائفا متحرجا مستحييا أن يطلع عليه الله فى حالة يكرهها . وعين الله على كل قلب فى كل لحظة . فمتى يأمن أن لا يراه ؟! (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه .! (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء . . والله خبير بما يعملون . . وبمناسبة ما تدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم فى الآية التالية . من أن يكونوا (كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) وهى حالة عجيبة . ولكنها حقيقة . . فالذى ينسى الله يهيم فى هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى ، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التى ترعى . وفى هذا نسيان لإنسانيته (أولئك هم الفاسقون) المنحرفون الخارجون . وفى الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار ، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) لا يستويان طبيعة وحالا ، ولا طريقا ولا سلوكا ، ولا وجهة ولا مصيرا . فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا فى طريق . ولا يلتقيان أبدا فى سمة . ولا يلتقيان أبدا فى خطة . ولا يلتقيان أبدا فى سياسة . ولا يلتقيان أبدا فى صف واحد فى دنيا ولا آخرة (أصحاب الجنة هم الفائزون) يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه . معروفا . وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير ! ثم يجىء الإيقاع الذى يتخلل القلب ويهزه ؛ وهو يعرض أثر القرآن فى الصخر الجامد لو تنزل عليه (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) إن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شىء يتلقاه بحقيقته . واللحظات التى يكون فيها الكيان الإنسانى متفتحا لتلقى شىء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف إرتجافا . ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله فى عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام . أو أشد . والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) والذين أحسوا شيئا من مس القرآن فى كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآنى المشع الموحى (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وهى خليقة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير . . وأخيرا تجىء تلك التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى ؛ وكأنما هى أثر من آثار القرآن فى كيان الوجود كله ، ينطلق بها لسانه وتتجاوب بها أرجاؤه ؛ وهذه الأسماء واضحة الآثار فى صميم هذا الوجود وفى حركته وظواهره ، فهو إذ يسبح بها يشهد كذلك بآثارها (هو الله الذى لا إله إلا هو) فتتقرر فى الضمير وحدانية الاعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس

بالكون وبسائر الأحياء . وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله (عالم الغيب والشهادة) فيستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية ؛ ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله ، الذى لا يعيش وحده ، ولو كان فى خلوة أو مناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لا يغفل بعده قلب ولا ينام ! (هو الرحمن الرحيم) فيستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح . ويتعادل الخوف والرجاء ، والفزع والطمأنينة . فالله فى تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم . ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولا يتركهم بلا عون وهم يصارعون الشرور والأهواء (هو الله الذى لا إله إلا هو) يعيدها فى أول التسبيحة التالية ، لأنها القاعدة التى تقوم عليها سائر الصفات (الملك) فيستقر فى الضمير أن لا ملك إلا الله الذى لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتوجهون إليه (القدوس) وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة . ويلقى فى ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحا لتلقى فيوض الملك القدوس , والتسبيح له والتقديس (السلام) وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه . فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه . وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام (المؤمن) واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان . (المهيمن) (العزيز . الجبار . المتكبر) فهى صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو . ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد فى صفاته هذه . وما يتصف بها سواه . فهو المتفرد بها بلا شريك . ومن ثم يجىء ختام الآية (سبحان الله عما يشركون) ثم يبدأ المقطع الأخير فى التسبيحة المديدة (هو الله). . فهى الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله (الخالق) (البارئ) والخلق هو :التصميم والتقدير . والبرء هو :التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق (المصور) وهى كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شىء شخصيته الخاصة (له الأسماء الحسنى) الحسنى فى ذاتها . بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم . والحسنى التى توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها . وهى الأسماء التى يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها ، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج فى مراقيه وهو يتطلع إليها . وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مع مدلولاتها الموحية وفى فيوضها العجيبة ، هى مشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات الوجود , وينبعث من كل موجود (يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ؛ ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء . . كما يتلاقى فيه المطلع والختام . فى تناسق والتئام .

سورة الممتحنة

مدنية ، و آياتها ١٣

هذه السورة حلقة فى سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعى والدولة في المجتمع المدنى . حلقة من تلك السلسلة الطويلة ، أو من ذلك المنهج الإلهى المختار للجماعة المسلمة المختارة ، التى ناط بها الله تحقيق منهجه الذى يريده للحياة الإنسانية ,فى صورة واقعية عملية ، كيما يستقر فى الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ؛ تبلغ إليه البشرية أحيانا ، وتقصر عنه أحيانا ، ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه ؛ وتبقى أمامها صورة واقعية منه ، تحققت يوما فى هذه الأرض . وكان رسول الله ﷺ يقوم في يقظة دائمة وإلهام بصير ، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات فى كل فرصة ، واستخدامها بحكمة بالغة فى بناء هذه النفوس . والوحى والإلهام يؤيدانه ويسددانه ﷺ حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله . بتوفيق الله . على يدى رسول الله . هذه السورة حلقة في سلسلة ذلك الإعداد الطويل ، تستهدف – مع غيرها مما جاء فى مثل موضوعها – إقامة عالم رباني خالص في ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده , يشد المسلمين إلى هذا المحور وحده ، بعروة واحدة لا انفصام لها ؛ ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى . عصبية للقوم أو للجنس أو للأرض أو للعشيرة أو للقرابة . ليجعل في مكانها جميعا عقدة واحدة . هي عقدة الإيمان بالله . والوقوف تحت راية الله . فى حزب الله . ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة – كانت فى البيئة العربية وما تزال فى العالم كله إلى اليوم – عقبات من التعصب للبيت ، والتعصب للعشيرة ، والتعصب للقوم ، والتعصب للجنس ، والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب , من الحرص والشح وحب الخير للذات ، ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية . . وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور ! وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم فى سبيل عقيدتهم ، ما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوى قربى . وعلى الرغم من كل ما ذاقوا من العنت والأذى فى قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ؛ وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التى تكلفهم قتال أهليهم وذوى قرابتهم ، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات ! وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه .وهو - سبحانه - يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعا – وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالا بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت – فكان يأخذهم يوما بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ , بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن ! وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ، وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سر الحملة . . وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة , وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشرى مهما بلغ من كمالها وقوتها ؛ وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذى يعين عليها . ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول ﷺ وهو لا يعجل حتى يسأل:" ما حملك على ما صنعت " فى سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة فى نفس صاحبه ، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه:" صدق لا تقولوا إلا خيرا " . . ليعينه وينهضه من عثرته , فلا يطارده بها ولا يدع أحدا يطارده . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم فى شدة عمر:"إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فدعنى فلأضرب عنقه" . . فعمر – رضى الله عنه – إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله ﷺ فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها ، مع العطف الكريم الملهم الذى تنشئه المعرفة الكلية . فى موقف المربى الكريم العطوف المتأنى الناظر إلى جميع الملابسات والظروف . كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى . وكان ينشىء فى هذه النفوس صورة جديدة ، وقيما جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين فى الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى . وكان كأنما يجمع هذه النبتات الصغيرة الجديدة فى كنف الله ؛ ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد , وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ، وأنه يريد بهم أمرا ، ويحقق بهم قدرا . ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته ، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعا . فى الدنيا والآخرة . وإذن فليكونوا خالصين له ،

منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته . في عالم الشعور وعالم السلوك . والسورة كلها في هذا الاتجاه . حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة في آخرها عن معاملة المهاجرات المؤمنات ، ومبايعة من يدخلن في الإسلام ، والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من الكفار . وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر . . فكلها تنظيمات منبثقة من ذلك التوجيه العام .

ثم ختام السورة كما بدأت بالنهي عن موالاة أعداء الله ، ممن غضب عليهم الله ، سواء من المشركين أو من اليهود . ليتم التمييز والانفراد والمفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة وغير وشيجة الإيمان . .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ{١} إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ{٢} لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٣} قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ{٤} رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٥} لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{٦} عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٧} لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{٨} إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{١٠} وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ{١١} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٢} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ){١٣}

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحى: يا أيها الذين آمنوا . . نداء من ربهم الذى آمنوا به ، يدعوهم باسم الإيمان الذى ينسبهم إليه . يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم , ويحذرهم حبائل أعدائهم ، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم . وفى مودة يجعل عدوهم عدوه ، وعدوه عدوهم (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) فيشعر المؤمنين بأنهم منه وإليه . يعاديهم من يعاديه . فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته فى هذه الأرض ، وهم أوداؤه وأحباؤه . فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه . ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم ، وعدوانهم على هذا كله فى تجن وظلم (وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم . أن تؤمنوا بالله ربكم) فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة ؟ كفروا بالحق . وأخرجوا الرسول والمؤمنين ، لا لشىء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم ؟ إنه يهيج فى قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم . وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت ، ذكرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهادا فى سبيله (إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وإبتغاء مرضاتى) فما يجتمع فى قلب واحد أن يهاجر جهادا فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله ، وهو عدو الله وعدو رسول الله ! ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم ، وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة ، وهو مطلع على خفية القلوب وعلانيتها (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) ثم يهددهم تهديدا مخيفا ، يثير فى القلب المؤمن الوجل والمخافة (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) وهل يخيف المؤمن شىء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول ؟! وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد . ثم تجىء البقية (إن

يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل . ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدى وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل (والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى) (وودوا لو تكفرون) وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان . فالذى يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز . كنز الإيمان . ويرتد إلى الكفر ، هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان ! والذى يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر ، ويهتدى بنوره بعد الضلال ، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار . أو أشد . فعدو الله هو الذى يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوى بعد عالم الإيمان المعمور . هذه هى الجولة الأولى بلمساتها المتعددة . ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة ؛ والتى تشتجر فى القلوب فتجرها جرا إلى المودة ; وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير) إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة . يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . فلمسة قلبه بما يكون فى الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة ، من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج فى فترة الحياة الدنيا القصيرة ؛ وتوجهه إلى طلب الوشيجة الدائمة التى لا تنقطع فى دنيا ولا فى آخرة ومن ثم يقول لهم (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) التى تهفون إليها وتتعلق قلوبكم بها ؛ وتضطركم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها (والله بما تعملون بصير) مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه فى الضمير ثم تأتى الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة:أمة التوحيد . وهذه القافلة الواحدة:قافلة الإيمان . فإذا هى ممتدة فى الزمان ، متميزة بالإيمان ، متبرئة من كل وشيجة تنافى وشيجة العقيدة . . إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم . أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى . وفيه أسوة لا فى العقيدة وحدها ، بل كذلك فى السيرة ,وفى التجارب التى عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها ؛ ثم خلص منها هو ومن آمن معه ، وتجرد لعقيدته وحدها (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه) وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمان . وإذا هو راجع إلى إبراهيم ، لا فى عقيدته فحسب ، بل فى تجاربه التى عاناها كذلك . فيشعر أن له رصيدا من التجارب أكبر من رصيده الشخصى وأكبر من رصيد جيله الذى يعيش فيه . مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التى يعانيها المسلمون المهاجرون . وفيهم أسوة حسنة (إذ قالوا لقومهم:إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) فهى البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم . وهو الكفر بهم والإيمان بالله . وهى العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهى المفاصلة الحاسمة الجازمة التى لا تستبقى شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان . وفى هذا فصل الخطاب فى مثل هذه التجربة التى يمر بها المؤمن فى أى جيل . وفى قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين . ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال (وما أملك لك من الله من شىء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) وهذا التسليم المطلق لله ، هو السمة الإيمانية الواضحة فى إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين . كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه ، وإبراز ما فى ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات ويستطرد لهذا فى إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) فلا تسلطهم علينا . فيكون فى ذلك فتنة لهم ، إذ يقولون:لو كان الإيمان يحمى أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم ! وهى الشبهة التى كثيرا ما تحيك فى الصدور ، حين يتمكن الباطل من الحق ، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان – لحكمة يعلمها الله – فى فترة من الفترات . والمؤمن يصبر للابتلاء ، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذى يجعله فتنة وشبهة تحيك فى الصدور . وبقية الدعاء (واغفر لنا) ويختم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء (ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) العزيز:القادر على الفعل ، الحكيم:فيما يمضى من تدبير . وفى نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفى استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها ؛ مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) فالأسوة فى إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . وهؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التى عاناها هذا الرهط الكريم ، ويجدون فيها أسوة تتبع ,وسابقة تهدى . فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة . . وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين . فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج . من يريد أن يحيد عن طريق القافلة . من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق . فما بالله من حاجة إليه – سبحانه – (فإن الله هو الغنى الحميد) وتنتهى الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد ، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم فى الأرض ؛ وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم فى الأجيال المتطاولة ,ورأوا القرار الذى انتهى إليه من مروا بهذه

التجربة ؛ ووجدوها طريقا معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها .بعدئذ يعود فينسم على هذه القلوب التى يعلم الله ما بها من حنين ورغبة فى زوال حالة العداء والجفوة ، وفى الآية الأولى من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذى لا يغلب عليه اليأس ؛ فى معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين ، وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) وهذا الرجاء من الله ، معناه القطع بتحققه . والمؤمنون الذين سمعوه لا بد قد أيقنوا به ، ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة ، وأن أسلمت قريش ، وأن وقف الجميع تحت لواء واحد ، وأن طويت الثارات والمواجد ، وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفى القلوب (والله قدير) يفعل ما يريد بلا معقب (والله غفور رحيم) يغفر ما سلف من الشرك والذنوب . (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وإلى أن يتحقق وعد الله الذى دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم فى موادة من لم يقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم . ورفع عنهم الحرج فى أن يبروهم ، وأن يتحروا العدل فى معاملاتهم معهم فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئا . ولكنه نهى أشد النهى عن الولاء لمن قاتلوهم فى الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم . وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون . وتلك القاعدة فى معاملة غير المسلمين هى أعدل القواعد التى تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية ، بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد ، المتعاون فى تصميمه اللدنى وتقديره الأزلى ، من وراء كل اختلاف وتنويع . وهى أساس شريعته الدولية ، التى تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هى الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربى وضرورة رده ، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهى تهديد بالاعتداء ؛ أو الوقوف بالقوة فى وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وهو كذلك اعتداء . وفيما عدا هذا فهى السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين .

ثم يعود سياق السورة الى حكم المؤمنات المهاجرات (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) وقد ورد فى سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذى جاء فيه:"على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . . "فلما كان الرسول ﷺ والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءته نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام فى المدينة ؛ وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذا للمعاهدة . ويظهر أن النص لم يكن قاطعا فى موضوع النساء ، فنزلت هاتات الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار ، يفتن فى دينهن وهن ضعاف . ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، وما فيها من شطط وجور . على طريقة الإسلام فى كل معاملاته الداخلية والدولية . وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحرى سبب الهجرة ، فلا يكون تخلصا من زواج مكروه ، ولا طلبا لمنفعة ، ولا جريا وراء حب فردى فى دار الإسلام ! قال ابن عباس:كان يمتحنهن:بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله . وقال عكرمة:يقال لها:ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فرارا من زوجك . وهذا هو الامتحان . . وهو يعتمد على ظاهر حالهن واقرارهن مع الحلف بالله . فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله ، ولا سبيل للبشر إليها (الله أعلم بإيمانهن) فإذا ما أقررن هكذا (فلا ترجعوهن إلى الكفار) (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) . فقد أنبتت الوشيجة الأولى . . وشيجة العقيدة . . فلم تعد هناك وشيجة أخرى يمكن أن تصل هذه القطيعة . والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، لا يمكن أن تقوم إذا انقطعت هذه الوشيجة الأولى . والإيمان هو قوام حياة القلب الذى لا تقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يواده ولا أن يسكن إليه ويطمئن فى جواره . والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن . وكان الأمر فى أول الهجرة متروكا بغير نص ، فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر ؛ ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة ، لأن المجتمع الإسلامى لم يكن قد استقرت قواعده بعد . فأما بعد صلح الحديبية – أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة – فقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة ؛ وأن يستقر فى ضمير المؤمنين والمؤمنات ، كما يستقر فى واقعهم ، أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان ، وأن لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة ، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله . ومع إجراء التفريق إجراء التعويض – على مقتضى العدل والمساواة – فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التى فارقته تعويضا للضرر . كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الكافرة التى يطلقها من عصمته . وبعد ذلك يحل للمؤمنين نكاح المؤمنات المهاجرات متى آتوهن

مهورهن . . مع خلاف فقهى:هل لهن عدة ، أم لا عدة إلا للحوامل حتى يضعن حملهن ؟ وإذا كانت لهن عدة فهل هى عدة المطلقات . . . ثلاثة قروء . . أم هى عدة استبراء للرحم بحيضة واحدة ؟ (وآتوهم ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن . ولا تمسكوا بعصم الكوافر ،واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا) ثم يربط هذه الأحكام كلها بالضمانة الكبرى فى ضمير المؤمن . ضمانة الرقابة الإلهية وخشية الله وتقواه (ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم) وهى الضمانة الوحيدة التى يؤمن عليها من النقض والالتواء والاحتيال . فحكم الله ,هو حكم العليم الحكيم . وهو حكم المطلع على ذوات الصدور ، فإذا فات المؤمنين شىء مما أنفقوا ، بامتناع الكوافر أو أهليهن من رد حق الزوج المؤمن - كما حدث فى بعض الحالات - عوضهم الإمام مما يكون للكافرين الذين هاجرت زوجاتهم من حقوق على زوجاتهم فى دار الإسلام ، أو مما يقع من مال الكفار غنيمة فى أيدى المسلمين (وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) ويربط هذا الحكم وتطبيقاته كذلك بالضمان الذى يتعلق به كل حكم وكل تطبيق (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) ثم بين لرسول الله ﷺ كيف يبايعهن على الإيمان ، هن وغيرهن ممن يردن الدخول فى الإسلام . وعلى أى الأسس يبايعهن (يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن , ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم) وهذه الأسس هى المقومات الكبرى للعقيدة ، كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة . .إنها عدم الشرك بالله إطلاقا . . وعدم إتيان الحدود . . السرقة والزنا . . وعدم قتل الأولاد . . إشارة إلى ما كان يجرى فى الجاهلية من وأد البنات ، كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب . . وهن أمينات على ما فى بطونهن . . (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) قال ابن عباس: يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن . وكذلك قال مقاتل . والشرط الأخير: (ولا يعصينك فى معروف) وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمرهن به . وهو لا يأمر إلا بمعروف . ولكن هذا الشرط هو أحد قواعد الدستور فى الإسلام ، وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا فى المعروف الذى يتفق مع دين الله وشريعته . وأنها ليست طاعة مطلقة لولى الأمر فى كل أمر ! وهى القاعدة التى تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله ، لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله . فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله ، ومنها يستمدان السلطات ! فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت بيعتهن . واستغفر لهن الرسول ﷺعما سلف (إن الله غفور رحيم). . يغفر ويرحم ويقيل العثرات . وفى الختام يجىء هذا الإيقاع العام (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) يجىء هتافا للذين آمنوا باسم الإيمان ، وبالصفة التى تميزهم عن سائر الأقوام ، إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله . وقد وردت بعض الروايات بأن المقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود ، استنادا إلى دمغهم بهذه الصفة فى مواضع أخرى من القرآن . ولكن هذا لا يمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم فى السورة ، وكل أعداء الله . وكلهم غضب عليه الله . وكلهم يائس من الآخرة ، لا يعلق بها رجاء ، ولا يحسب لها حسابا كيأس الكفار من الموتى - أصحاب القبور - لاعتقادهم أن أمرهم انتهى ، وما عاد لهم من بعث ولا حساب . وهو هتاف يتجمع من كل إيقاعات السورة واتجاهاتها . فتختم به كما بدأت بمثله . ليكون هو الإيقاع الأخير . الذى تترك السورة أصداءه فى القلوب .

.

سورة الصف
مدنية ، و آياتها ١٤

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح ، إلي جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التى يمكن إرجاعها إلي ذينك الأمرين الأساسيين: تستهدف أولاً أن تقرر فى ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهى للبشرية فى صورته الأخيرة , سبقته صور منه تناسب أطوارا معينة فى تاريخ البشرية ، وسبقته تجارب فى حياة الرسل وحياة الجماعات ، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد ، الذى أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات . وأن يظهره على الدين كله فى الأرض . ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا , ولم يعودوا امناء على دين الله فى الأرض (وإذ قال موسى لقومه:يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله ؛ فلم يعودوا أمناء عليه ، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدى القوم الفاسقين . ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتدادا لرسالة موسى ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة , وممهدا للرسالة الأخيرة ومبشرا برسولها ؛ ووصلة بين الدين الكتابى الأول والدين الكتابى الأخير(وإذ قال عيسى ابن مريم:يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم , مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهى التى حملها بعد موسى إلى الرسول الذى يبشر به . وكان مقررا فى علم الله وتقديره أن تنتهى هذه الخطوات إلي قرار ثابت دائم ، وأن يستقر دين الله فى الأرض فى صورته الأخيرة على يدى رسوله الأخير (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) هذا الهدف الأول الواضح فى السورة يقوم عليه الهدف الثانى . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة ، وإدراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه هو من أمانتها فى الأرض . . يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعورا يدفعه إلي صدق النية فى الجهاد لإظهار دينه على الدين كله – كما أراد الله – وعدم التردد بين القول والفعل ؛ ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة فى الجهاد ثم ينكص عنه ، كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات . . ومن ثم يجيء فى مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون وما فيه لله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ثم يدعوهم فى وسط السورة إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها:نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين) ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا ، ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصارهإلى الله ، على الرغم من تكذيب بنى إسرائيل به وعدائهم لله (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين:من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون:نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) وفى أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره . وهو أن لا يقول ما لا يفعل ، وألا يختلف له قول وفعل ، ولا ظاهر وباطن ، ولا سريرة وعلانية . وأن يكون هو نفسه فى كل حال . متجردا لله . خالصا لدعوته . صريحا فى قوله وفعله . ثابت الخطو فى طريقه . متضامنا مع إخوانه . كالبنيان المرصوص . .

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ{٢} كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ{٣} إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ{٤} وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{٥} وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ{٦} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ{٧} يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ{٨} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ{٩} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{١٠} تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{١١} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٢} وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{١٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ){١٤}

(سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) تجىء هذه التسبيحة من الوجود كله لله العزيز الحكيم ، فى مطلع السورة التى تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة فى دين الله ؛ وأنهم هم الأمناء على هذا الدين الذى يوحد الله . ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شديدا على أمر حدث من طائفة منهم . أمر يكرهه الله أشد الكره ، ويمقته أكبر المقت ، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ، كأنهم بنيان مرصوص) قال على بن طلحة عن ابن عباس قال:كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون:لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . . .) وقد اختار ابن جرير فى تفسيره هذا القول . والراجح من سياق الآيات وذكر القتال أن مناسبة النزول هى التى عليها الجمهور وهى اختيار ابن جرير . ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التى تنزل الآيات لمواجهتها ، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التى نزلت بسببها . ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة ، مع اعتبار الحادث الذى تذكره روايات النزول . إنها تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟) وتثنى باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق فى صيغة تضخم هذا الاستنكار (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ؟) والمقت الذى يكبر (عند الله) هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر . . وهذا غاية التفظيع لأمر ، وبخاصة فى ضمير المؤمن ، الذى ينادى بإيمانه ، والذى يناديه ربه الذى آمن به والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذى قالوا فيه ما لم يفعلوا . وهو الجهاد .وتقرر ما يحبه الله فيه ويرضاه (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) فليس هو مجرد القتال . ولكنه هو القتال فى سبيله . والقتال فى تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف . والقتال فى ثبات وصمود (صفا كأنهم بنيان مرصوص) وننظر فى هذه الآيات الثلاث فنرى امتزاج الخلق الفردى بالحاجة الجماعية ، فى ظل العقيدة الدينية ، وطبيعتها التى تقتضى تحقيقها فى الحياة البشرية فى صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه . إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون . وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل فى شخصية المسلم . . الصدق . . والاستقامة . وأن يكون باطنه كظاهره ، وأن يطابق فعله قوله . . إطلاقا . . وفى حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذى يجىء فى الآية الثالثة . وهم يقاتلون فى سبيل الله . . لا فى سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أى لون . . عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت . . . فى سبيل الله وحده ، لتكون كلمة الله هى العليا . والرسول ﷺ يقول:" من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله " ونقف أمام الحالة التى يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها: (صفا كأنهم بنيان مرصوص). . فهو تكليف فردى فى ذاته ، ولكنه فردى فى صورة جماعية . فى جماعة ذات نظام . ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا . صفا سويا منتظما , وصفا متينا راسخا ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة , وأن ينشئ مجتمعا متماسكا . . متناسقا . فصورة الفرد المنعزل الذى يعبد وحده ، ويجاهد وحده ، ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ، وعن مقتضياته فى حالة الجهاد , وفى حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة . وهذه الصورة التى يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم ، وتوضح لهم معالم الطريق ,وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذى يرسمه التعبير القرآنى المبدع (صفا كأنهم بنيان مرصوص) بنيان تتعاون لبناته وتتضامن وتتماسك ، وتؤدى كل لبنة دورها , وتسد ثغرتها ، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها . بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهى ومراحلها فى الرسالات قبل الإسلام (وإذ قال موسى لقومه:يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله

لا يهدى القوم الفاسقين) وإيذاء بنى إسرائيل لموسى – وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم - إيذاء متطاول متعدد الألوان ، وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق . ويذكر القرآن فى قصص بنى إسرائيل صورا شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء . وفى حادث البقرة التى كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون: (ادع لنا ربك يبين لنا ما هى) (ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها) (ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا). . (فذبحوها وما كادوا يفعلون)! ثم طلبوا يوم عطلة مقدسا فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه . وأمام الأرض المقدسة التى بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم فى الوقت ذاته لموسى (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد ، والاتهام الشخصى بالباطل كما جاء فى بعض الأحاديث . وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيغا ,وأزاغ قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدا (والله لا يهدى القوم الفاسقين) وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيغ والضلال . ثم جاء عيسى بن مريم . جاء يقول لبنى إسرائيل (يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم) فلم يقل لهم:إنه الله ، ولا إنه ابن الله ، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله (مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) فى هذه الصيغة التى تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهى متماسكة فى حقيقتها ، واحدة فى اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتصلة . . وهى الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه . فهو منهج واحد فى أصله ، متعدد فى صوره ، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها ، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى ، فتجىء الحلقة الأخيرة فى الصورة الأخيرة كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد ، فى ضوء تلك التجارب ,وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده ، وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التى كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التى أحاطت بها لا تجعلها هى المرجع فى هذا الشأن . وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى فى الجزيرة العربية وفيه (النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل). . وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبدالله بن سلام بهذه الحقيقة ، التى كانوا يتواصون بتكتمها ! كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبى قد أظلهم زمانه ,وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى فى الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ,كرهوا هذا وحاربوه ! وعلى أية حال فالنص القرآنى بذاته هو الفيصل فى مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير . . ويبدو أن الآيات التالية فى السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بنى إسرائيل – اليهود والنصارى – للنبى الذى بشرت به كتبهم . والتنديد بهذا الاستقبال ، وكيدهم للدين الجديد الذى قدر الله أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون هو الدين الأخير !(فلما جاءهم بالبينات قالوا:هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لا يهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم , والله متم نوره ولوكره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ولقد وقف بنو إسرائيل فى وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم . حاربوه بالاتهام (فلما جاءهم بالبينات قالوا:هذا سحر مبين) كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد . وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامى ,للإيقاع بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وبين الأوس والخزرج من الأنصار . وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة . وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع فى غزوة الأحزاب . وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى فى حديث الإفك على يد عبدالله بن أبى بن سلول ، ثم ما جرى فى فتنة عثمان على يد عدو الله عبدالله بن سبأ . وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التى دسوها فى الحديث وفى السيرة وفى التفسير – حين عجزوا عن الوضع والكذب فى القرآن الكريم ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام ، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه فى غير وناة ولا هدنة فى جيل من الأجيال . حاربوه فى الحروب الصليبية فى المشرق ، وحاربوه فى الأندلس وفى المغرب ، وحاربوه فى الوسط فى دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه "الرجل المريض" . . واحتاجوا أن يخلقوا أبطالا مزيفين فى أرض الإسلام يعملون لهم فى تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام . فلما أرادوا تحطيم "الخلافة" والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامى صنعوا فى تركيا "بطلا" ! . . ونفخوا فيه . وتراجعت جيوش الحلفاء التى كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلا فى أعين مواطنيه . بطلا يستطيع إلغاء الخلافة ، وإلغاء اللغة العربية وفصل تركيا عن المسلمين ، وإعلانها

دولة مدنية لا علاقة لها بالدين ! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية فى بلد من بلاد المسلمين ، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ! ورأية غير راية الدين (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون) وهذا النص القرآنى يعبر عن حقيقة ، ويرسم فى الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ! فهى حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم (هذا سحر مبين) ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد . وهى صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل ! (والله متم نوره ولو كره الكافرون) وصدق وعد الله . أتم نوره فى حياة الرسول ﷺ فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهى المختار . صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة ، تترسمها الأجيال لا نظرية فى بطون الكتب ، ولكن حقيقة فى عالم الواقع . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الإسلام دينا يحبونه ، ويجاهدون فى سبيله ، ويرضى أحدهم أن يلقى فى النار ولا يعود إلى الكفر . فتمت حقيقة الدين فى القلوب وفى الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين . وتنبض وتنتفض قائمة – على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد . لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه , ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد ، فى أيدى العبيد ! وإن خيل للطغاة الجبارين , وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغو هذا الهدف البعيد ! لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فكان من الحتم أن يكون (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون) وشهادة الله لهذا الدين بأنه (الهدى ودين الحق) هى الشهادة . وهى كلمة الفصل التى ليس بعدها زيادة . ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله . ظهر فى ذاته كدين , فما يثبت له دين آخر فى حقيقته وفى طبيعته . فأما الديانات الوثنية فليست فى شىء فى هذا المجال . وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها ، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها ، فهو هى ، فى الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان . وفى ظلال قصة العقيدة ، وفى مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير ، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا . . من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتى بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين . . يهتف بهم إلى أربح تجارة فى الدنيا والآخرة . تجارة الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله ، يبدأ بالنداء باسم الإيمان: يا أيها الذين آمنوا . . يليه الاستفهام الموحى . فالله – سبحانه – هو الذى يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟) ومن ذا الذى لا يشتاق لأن يدله الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهى هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجىء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: (تؤمنون بالله ورسوله) وهم مؤمنون بالله ورسوله . فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ! (وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) وهو الموضوع الرئيسى الذى تعالجه السورة ، يجىء فى هذا الأسلوب ، ويكرر هذا التكرار , ويساق فى هذا السياق . فقد علم الله أن النفس البشرية فى حاجة إلى هذا التكرار , وهذا التنويع ، وهذه الموحيات ، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضرورى الذى لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته فى الأرض . . . ثم يعقب على عرض هذه التجارة التى دلهم عليها بالتحسين والتزيين (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد . . ثم يفصل هذا الخير فى آية تالية مستقلة ، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه ، ويقره فى الحس ويمكن له (يغفر لكم ذنوبكم) وهذه وحدها تكفى . فمن ذا الذى يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شىء ؟ أو يدخر فى سبيلها شيئا ؟ ولكن فضل الله ليست له حدود (ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن) وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن فى حياته القصيرة – حتى حين يفقد هذه الحياة كلها – ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن فى نعيم مقيم . . وحقا . (ذلك الفوز العظيم) وكأنما ينتهى هنا حساب التجارة الرابحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطى المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة . فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من فى السوق . فكيف بمن يتجر فى أيام قليلة معدودة فى هذه الأرض ، ومتاع محدود فى هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلودا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله ، ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع ؟ فهذا هو ذا يختم السورة بنداء جديد ، يحمل طابعا جديدا ، وإغراء جديدا ، وموحيا جديدا (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين:من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون:نحن أنصار الله) والحواريون هم تلاميذ المسيح – عليه السلام – قيل:الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به , وينقطعون للتلقى عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه . والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة ، فنسير نحن معها فى ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها فى هذا الموضع من السورة وماذا كانت العاقبة ؟ (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين:إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقا من استقام ومن دخلت فى عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم

يؤمنوا به أصلا كما حدث فى التاريخ . وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد فى وجه المؤلهين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التى انحرفت عن التوحيد . ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أى بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذى هم عليه هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير ؛ وجعل له الجولة الأخيرة فى الأرض كما وقع فى التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح فى هذا السياق . والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هى العبرة التى أشرنا إليها ، وهى استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمناء على منهج الله فى الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى . استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه (كما قال عيسى بن مريم للحواريين:من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون:نحن أنصار الله) والنصر فى النهاية لأنصار الله المؤمنين . إنها الجولة الأخيرة فى السورة ، واللمسة الأخيرة فى السياق ؛ وهى ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها ، مع ما فيها من تجدد فى اللون وتنوع فى المذاق . .

سورة الجمعة
مدنية ، و آياتها ١١

نزلت هذه السورة بعد سورة "الصف" السابقة . وهى تعالج الموضوع الذى عالجته سورة الصف , ولكن من جانب آخر ، وبأسلوب آخر ، وبمؤثرات جديدة . إنها تعالج أن تقر فى أخلاد الجماعة المسلمة فى المدينة أنها هى المختارة أخيرا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ؛ وأن هذا فضل من الله عليها ؛ وأن بعثة الرسول الأخير فى الأميين – وهم العرب – منة كبرى تستحق الالتفات والشكر ، وتقتضى كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التى استجابت للرسول ، واحتملت الأمانة ؛ وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبتة ، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ؛ وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارا ، ولا وظيفة له فى إدراكها ، ولا مشاركة له فى أمرها ! تلك هى الحقيقة الرئيسية التى تعالج السورة إقرارها فى قلوب المسلمين . من كان منهم فى المدينة يومذاك على وجه الخصوص ، وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامى فى صورة واقعة . ومن يأتى بعدهم ممن أشارت إليهم السورة ، وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان . وفى الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة فى تلك الجماعة الأولى ؛ فى أثناء عملية البناء النفسى العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة فى الربح ، وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى ، والاستعداد النفسى لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله ﷺ يخطبهم فى المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ; فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذى كانت القافلة تحاط به – على عادة الجاهلية – من ضرب بالدفوف وحداء وهيصة ! وتركوا رسول الله ﷺ قائما . فيما عدا اثنى عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات ، التى قد لا تكون دقيقة من حيث العدد ، ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها فى القرآن الكريم . وفى السورة مباهلة مع اليهود ، بدعوتهم إلى تمنى الموت للمبطلين من الفريقين وذلك ردا على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن بعثة الرسول فى غيرهم لا تكون ! كما كانوا يدعون ! مع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التى دعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذى يفرون منه ، وأنه ملاقيهم مهما فروا ، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فمنبئهم بما كانوا يعملون . . وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم ، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله فى نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر فى نفوس حملة أمانة الله فى الأرض ، لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق ! هذا هو اتجاه السورة ، وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها ، مع تميز كل منهما بالجانب الذى تعالجه ، وبالأسلوب الذى تأخذ القلوب به ، والظلال التى تلقيها هذه وتلك فى الإتجاه الواحد العام . فلننظر كيف يتناول الأسلوب القرآنى هذا الاتجاه .

.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ {١} هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٢} وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {٣} ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {٤} مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ {٥} قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {٦} وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ {٧} قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٩} فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {١٠} وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) {١١}

(يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، الملك القدوس العزيز الحكيم) هذا المطلع يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من كل ما فى الوجود لله ؛ ويصفه - سبحانه - بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة . السورة التى اسمها "الجمعة" وفيها تعليم عن صلاة الجمعة ، وعن التفرغ لذكر الله فى وقتها ، وترك اللهو والتجارة , وابتغاء ما عند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة . ومن ثم تذكر (الملك) الذى يملك كل شىء بمناسبة التجارة التى يسارعون إليها ابتغاء الكسب . وتذكر(القدوس) الذى يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما فى السماوات والأرض ، بمناسبة اللهو الذى ينصرفون إليه عن ذكره . وتذكر (العزيز) بمناسبة المباهلة التى يدعى إليها اليهود والموت الذى لا بد أن يلاقى الناس جميعا والرجعة إليه والحساب . وتذكر (الحكيم) بمناسبة اختيار الأميين ليبعث فيهم رسولا يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال . ثم يبدأ فى موضوع السورة الرئيسى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة , وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم) قيل إن العرب سموا الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون - فى الأعم الأغلب - وروى عن النبى ﷺ أنه قال:الشهر هكذا وهكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال:" إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب " . . وقيل:إنما سمى من لا يكتب أميا لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم . وربما سموا كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم:إنهم "جوييم" باللغة العبرية أى أمميون . نسبة إلى الأمم - بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم - ! والنسبة فى العربية إلى المفرد . . أمة . . أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة . ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم ، فيجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذل . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب ، أى يطلبون الفتح بذلك النبى الأخير ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبى من العرب ، من الأميين غير اليهود ؛ فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعدما كان منها فى تاريخها الطويل ! وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - تلك الدعوة التى أطلقها فى ظل البيت هو وإسماعيل عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم) وتحققت هذه الدعوة - وفق قدر الله وتدبيره - بنصها الذى تعيده السورة هنا لتذكر بحكاية ألفاظ إبراهيم (رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) كما قال إبراهيم ! حتى صفة الله فى دعاء إبراهيم: (إنك أنت العزيز الحكيم) هى ذاتها التى تعقب على التذكير بمنة الله وفضله هنا: (وهو العزيز الحكيم) وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال:" دعوة أبى إبراهيم . وبشرى عيسى . ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام " (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) والمنة ظاهرة فى اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين ؛ وليرسل فيهم رسولا منهم ، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ؛ ويخرجهم من أميتهم أو من أمميتهم بتلاوة آيات الله عليهم ، وتغيير ما بهم ، وتمييزهم على العالمين (ويزكيهم) وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذى كان يأخذهم به الرسول ﷺ تطهير للضمير والشعور ، وتطهير للعمل والسلوك ، وتطهير للحياة الزوجية ، وتطهير للحياة الاجتماعية . تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ؛ ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح . (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب . ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور ، ويحسنون التقدير ، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير (وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ضلال الجاهلية التى وصفها جعفر بن أبى طالب لنجاشى الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة ليكرهاه فى المهاجرين من المسلمين ، ويشوها موقفهم عنده ، فيخرجهم من ضيافته وجيرته . . فقال جعفر :أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش , ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام" ومع كل ما كانوا عليه فى الجاهلية من ضلال فقد علم الله أنهم هم حملة هذه العقيدة الأمناء عليها ، بما علم فى نفوسهم من استعداد للخير والصلاح ؛ ومن رصيد مذخور للدعوة الجديدة ؛ وقد فرغت منه نفوس اليهود التى أفسدها الذل الطويل فى مصر ، فامتلأت بالعقد والالتواءات والانحرافات ، ومن ثم لم تستقيم أبدا بعد ذلك ، لا فى حياة موسى عليه السلام ، ولا من بعده . حتى كتب

الله عليهم لعنته وغضبه ، وانتزع من أيديهم أمانة القيام على دينه فى الأرض إلى يوم القيامة . وعلم الله أن الجزيرة فى ذلك الأوان هى خير مهد للدعوة التى جاءت لتحرير العالم كله من ضلال الجاهلية ، ومن انحلال الحضارة فى الامبراطوريات الكبيرة ، التى كان سوس الانحلال قد نخر فيها حتى اللباب ! هذه الحالة التى يصفها كاتب أوربى حديث فيقول :ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية ، كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه " . . وهذه الصورة مأخوذة من زاوية النظر لكاتب أوربى . وهى من زاوية النظر الإسلامية أشد عتاما وظلاما !

وقد اختار الله – سبحانه – تلك الأمة البدوية فى شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين ، بما علم فى نفوسها وفى ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء . فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم) وهؤلاء الآخرون وردت فيهم روايات متعددة . . قال الإمام البخارى – رحمه الله تعالى –:حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور ، عن أبى الغيث ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال:"كنا جلوسا عند النبى ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين لما يلحقوا بهم) قالوا:من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسى ثم قال:" لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء " . فهذا يشير إلى أن هذا النص يشمل أهل فارس . ولهذا قال مجاهد فى هذه الآية:هم الأعاجم وكل من صدق النبى ﷺ من غير العرب . وقال ابن أبى حاتم:حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى . قال:قال رسول الله ﷺ :" إن فى أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب " ثم قرأ: (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) يعنى بقية من بقى من أمة محمد ﷺ . وكلا القولين يدخل فى مدلول الآية . فهى تدل على آخرين غير العرب . وعلى آخرين غير الجيل الذى نزل فيه القرآن . وتشير إلى أن هذه الأمة موصولة الحلقات ممتدة فى شعاب الأرض وفى شعاب الزمان ، تحمل هذه الأمانة الكبرى ، وتقوم على دين الله الأخير (وهو العزيز الحكيم). . القوى القادر على الاختيار . الحكيم العليم بمواضع الاختيار . واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى ، وليكون مستودع نور الله وموضع تلقى فيضه ، والمركز الذى تتصل فيه السماء بالأرض . . إن اختيار الله هذا لفضل لا يعدله فضل . فضل عظيم يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ; ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد . بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم فى حمل أمانة الله ؛ فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التى لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ! والله لا يهدى القوم الظالمين) فبنوا إسرائيل حملوا التوراة ، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة . . (ثم لم يحملوها . .(فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه ، وينتهى بالعمل لتحقيق مدلولها فى عالم الضمير وعالم الواقع . ولكن سيرة بنى إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم – وكما هى فى حقيقتها – لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة ، ولا أنهم فقهوا حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها . ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام ، وليس له منها إلا ثقلها . فهو ليس صاحبها . وليس شريكا فى الغاية منها ! وهى صورة زرية بائسة ، ومثل سيئ شائن ، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها . . كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها . والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة ، والذين يعيشون فى هذا الزمان ، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب ، وهم لا ينهضون بما فيها . . أولئك كلهم ، كالحمار يحمل أسفارا . وهم كثيرون كثيرون ! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . إنما هى مسألة فقه وعمل بما فى الكتب (قل:يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل:إن الموت الذى تفرون منه

فإنه ملاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون) والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجها لوجه ، ودعاؤهما معا إلى الله أن ينكل بالمبطل منهما . . وقد خاف كل من دعاهم رسول الله ﷺ إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها ، ولم يقبلوا التحدى فيها . مما يدل على أنهم فى قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله ﷺ وحقية هذا الدين . وقد لا تكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم ، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس . فما يخيفهم إذن من الموت ، ويجعلهم أجبن خلق الله ؟ وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون ؟! ثم عقب على هذا التحدى بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون ، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه ، وما يرجون الثواب والقربى عليه ، إنما قدموا المعصية التى تخيفهم من الموت وما وراءه . والذى لم يقدم الزاد يجفل من ارتياد الطريق (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وفى نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت وما بعده ، ويكشف لهم عن قلة الجدوى فى فرارهم من الموت ، فهو حتم لا مهرب منه ، وما بعده من رجعة إلى الله ، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه (قل:إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم . ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون) وهى لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين . تقر فى الأخلاد حقيقة ينساها الناس ، وهى تلاحقهم أينما كانوا . . فهذه الحياة إلى انتهاء . والبعد عن الله فيها ينتهى للرجعة إليه ، فلا ملجأ منه إلا إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة . فلا مهرب ولا فكاك . والآن يجىء المقطع الأخير فى السورة خاصا بتعليم يتعلق بالجمعة ، بمناسبة ذلك الحادث الذى وقع ربما أكثر من مرة ، لأن الصيغة تفيد التكرار (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل:ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين) وصلاة الجمعة هى الصلاة الجامعة ، التى لا تصح إلا جماعة . . وهى صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله . وهى عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام فى الإعداد للدنيا والآخرة فى التنظيم الواحد وفى العبادة الواحدة ؛ وكلاهما عبادة . وهى ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التى تحدثنا عنها فى ظلال سورة الصف . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب . وروى أصحاب السنة الأربعة من حديث أوس بن أوس الثقفى قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول ":من غسل واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها " .وروى الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك عن أبى أيوب الأنصارى قال:سمعت رسول الله [ص] يقول:" من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه , ثم خرج يأتى المسجد ، فيركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحدا ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينهما وبين الجمعة الأخرى " . والآية الأولى فى هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع – وسائر نشاط المعاش – بمجرد سماعهم للأذان (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) وترغبهم فى هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول فى الذكر فى هذا الوقت (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) مما يوحى بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضى هذا الترغيب والتحبيب . وهو فى الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس ؛ فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض ، ليخلو إلى ربه ، ويتجرد لذكره ، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى ، ويملأ قلبه وصدرهمن ذلك الهواء النقى الخالص العطر ويستروح شذاه ! ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الإرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وهذا هو التوازن الذى يتسم به المنهج الإسلامى . التوازن بين مقتضيات الحياة فى الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر . وهى ضرورة لحياة القلب لايصلح بدونها للاتصال والتلقى والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه فى أثناء ابتغاء المعاش ,والشعور بالله فيه هو الذى يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه – مع هذا – لابد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد الممحض . كما توحى هاتان الآيتان . وكان عراك بن مالك – رضى الله عنه – إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال":اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى . فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين" [رواه ابن أبى حاتم] وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا ، فى بساطة تامة ، فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك ! ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذى ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذى بلغت إليه ، مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية . مما تصوره الآية الأخيرة فى السورة (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما . قل:ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين) عن جابر

– رضى الله عنه – قال:" بينا نحن نصلى مع النبى ﷺ إذ أقبلت عير تحمل طعاما , فالتفتوا إليها حتى ما بقى مع النبى ﷺ إلا اثنا عشر رجلا ، منهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . فنزلت (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) وفى الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة . وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله (والله خير الرازقين) وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذى بذل فى التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة فى التاريخ . ويمنح القائمين على دعوة الله فى كل زمان رصيدا من الصبر على ما يجدونه من ضعف ونقص وتخلف وتعثر فى الطريق . فهذه هى النفس البشرية بخيرها وشرها . وهى قابلة أن تصعد مراقى العقيدة والتطهر والتزكى بلا حدود , مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة ، وعدم النكوص من منتصف الطريق . والله المستعان

سورة المنافقون
مدنية ، و آياتها١١

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص "المنافقون" الدال على موضوعها . . ليست هى السورة الوحيدة التى فيها ذكر النفاق والمنافقين ، ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحا . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين ، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التى وقعت منهم ورويت عنهم . وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما فى نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب . وليس فى السورة عدا هذا إلا لفتة فى نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين ، ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله , والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد ، والتقاعس عن البذل فى سبيل الله حتى يأتى اليوم الذى لا ينفع فيه البذل والصدقات . وحركة النفاق التى بدأت بدخول الإسلام المدينة ، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله ﷺ ولم تنقطع فى أى وقت تقريبا ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين . هذه الحركة ذات أثر واضح فى سيرة هذه الفترة التاريخية وفى أحداثها ؛ وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا ؛ وورد ذكرها فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة ، وأثرها البالغ فى حياة الدعوة فى ذلك الحين . ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذى قام به المنافقون ، وخاصة فى أوائل العهد , أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التى كانت ما تزال قوية الأثر فى نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ فى هذا السواد رسوخا كافيا ؛ وأن النبى ﷺ كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب ، وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود فى المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعى على توحيد المسعى ، والتضامن فى موقف المعارضة والكيد ، حتى ليمكن القول:إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار فى الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبى من هؤلاء وأظهره عليهم ، وكفاه شرهم]

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ{١} اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٢} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ{٣} وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{٤} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ{٥} سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{٦} هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ{٧} يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ{٨} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{٩} وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ{١٠} وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ){١١}

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم فى مداراة ما فى قلوبهم من الكفر ، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبى ﷺ هو رسول الله . وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون ، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ، ويخدعون المسلمين فيهم (إذا جاءك المنافقون قالوا:نشهد إنك لرسول الله – والله يعلم إنك لرسوله – والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون) فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان ، لا

يقصدون بها وجه الحق ، إنما يقولونها للتقية ، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين . فهم كاذبون فى أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة , فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها ، ويداروا أنفسهم بقولها . ومن ثم يكذبهم الله فى شهادتهم بعد التحفظ الذى يثبت حقيقة الرسالة (والله يعلم إنك لرسوله) (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه . فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين . ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين فى موضوع شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها خالصى الضمير ! (اتخذوا أيمانهم جنة) وهى توحى بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم , أو عرف عنهم كيد أو تدبير ، أو نقلت عنهم مقالة سوء فى المسلمين . كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها , ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم (فصدوا عن سبيل الله) صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة (إنهم ساء ما كانوا يعملون) وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل ! ؟ ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة ، وأيمان مكذوبة خادعة ، وصد عن سبيل الله وسوء عمل . . يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان ، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون) فهم عرفوا الإيمان إذن ، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر . وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه ، أو تذوق ، أو حياة . وإلا فمن ذا الذى يذوق ويعرف ، ويطلع على التصور الإيمانى للوجود ، وعلى التذوق الإيمانى للحياة ، ويتنفس فى جو الإيمان الذكى ، ويحيا فى نور الإيمان الوضىء ، ويتفيأ ظلال الإيمان الندية . . ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوى المجدب الكنود ؟ من ذا الذى يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود ، الذى لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد ! (فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ؛ تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس ، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود . بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية فى معرض الوجود (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صيحة عليهم . هم العدو فاحذرهم . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟) فهم أجسام تعجب . لا أناسى تتجاوب ! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون . . فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة (تسمع لقولهم كأنهم خشب) ولكنها ليست خشبا فحسب . إنما هى (خشب مسندة) لا حركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار ! هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح ! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفزع الدائم والاهتزاز الدائم (يحسبون كل صيحة عليهم) فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء . وهم يخشون فى كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف . والتعبير يرسمهم أبدا متلفتين حواليهم ؛ يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف ، يحسبونه يطلبهم ، وقد عرف حقيقة أمرهم !! وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان . . إذا هم كالقصبة المرتجفة فى مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال ! وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول ﷺ وللمسلمين (هم العدو فاحذرهم) هم العدو الحقيقى . العدو الكامن داخل المعسكر ، المختبئ فى الصف . وهو أخطر من العدو الخارجى الصريح (فاحذرهم) ولكن الرسول ﷺ لم يؤمر هنا بقتلهم ، فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم – كما سيجىء نموذج من هذه المعاملة بعد قليل (قاتلهم الله أنى يؤفكون) فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا . والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء , وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه . . وهذا هو الذى كان فى نهاية المطاف . ويستطرد السياق فى وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم ، وتبييتهم للرسول ﷺ وكذبهم عند المواجهة . . وهى مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون (وإذا قيل لهم:تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون:لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون:لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون) وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبدالله بن أبى بن سلول كان يعيش بين المسلمين . قريبا من رسول الله ﷺ تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول . ولكن الله لا يهدى قلبه للإيمان ، لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة . وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير ، تقف دونه إحنة فى صدره أن لم يكن ملكا على الأوس والخزرج ، بسبب مقدم رسول الله ﷺ بالإسلام إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى . الذى تواجهه دلائله من كل جانب . وهو يعيش فى فيض الإسلام ومده فى يثرب ! وهذا ابنه عبدالله – رضى الله عنه وأرضاه – نموذج رفيع للمسلم

المتجرد الطائع . يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه . ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف .ويسمع أن رسول الله ﷺ يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة ، يواجهها هو فى صراحة وفى قوة وفى نصاعة . إنه يحب الإسلام ، ويحب طاعة رسول الله ﷺ ويحب أن ينفذ أمره ولو فى أبيه . ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشى على الأرض بعده أمام ناظريه . وهو يخشى أن تخونه نفسه ، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية ، وهتاف الثأر . . وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه ، ويرفع عنه هذا العنت الذى يلاقيه . فيطلب منه إن كان لا بد فاعلاً أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لا بد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كى لا يتولى ذلك غيره ، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشى على الأرض . فيقتله . فيقتل مؤمنا بكافر . فيدخل النار . وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر فى هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان فى قلب إنسان ، وهو يعرض على رسول الله ﷺ أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية – أن يقتل أباه – وهو صادق النية فيما يعرض . يتقى به ما هو أكبر فى نظره وأشق . . وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر ، فيدخل النار . . وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشرى تجاه أبيه وهو يقول:"فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى" . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ؛ لا بأن يرد أمره أو يغيره – فالأمر مطاع والإشارة نافذة – ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه ! والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة ، فيمسح عنها الحرج فى سماحة وكرامة]:بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا [. . ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رأيه:" فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ " . ثم تصرف الرسول ﷺ فى الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم . . وأمره بالسير فى غير أوان ، ومتابعة السير حتى الإعياء ، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التى أثارها صياح الرجلين المتقاتلين:يا للأنصار ! يا للمهاجين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التى أطلقها المنافق عبدالله بن أبى بن سلول ، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين فى تاريخ العقائد وفى تاريخ الإنسان . . وحديث الرسول ﷺ مع أسيد بن حضير ، وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة ، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة فى قومه حتى بعد الإسلام ! وأخيرا نقف أمام المشهد الرائع الأخير . مشهد الرجل المؤمن عبدالله بن عبدالله بن أبى . وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل . تصديقا لمقاله هو (ليخرجن الأعز منها الأذل) ليعلم أن رسول الله هو الأعز . وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتى رسول الله ﷺ فيأذن له . فيدخلها بإذنه . ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . فى نفس الواقعة . وفى ذات الأوان . ألا إنها لقمة سامقة تلك التى رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة , وهم بعد بشر ، بهم ضعف البشر ، وفيهم عواطف البشر ، وخوالج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق ما فى هذه العقيدة ، حين يدركها الناس على حقيقتها ، وحين يصبحون هم حقيقتها التى تدب على الأرض فى صورة أناسى تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق . ثم نعيش فى ظلال النصوص القرآنية التى تضمنت تلك الأحداث (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) فهم يفعلون الفعلة ، ويطلقون القولة . فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ﷺ جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة . فإذا قال لهم قائل:تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، وهم فى أمن من مواجهته ، لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارا ! وهذه وتلك سمتان متلازمتان فى النفس المنافقة . وإن كان هذا التصرف يجىء عادة ممن لهم مركز فى قومهم ومقام . ولكنهم هم فى ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ؛ فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا فى أمان من المواجهة . حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان ! ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بما قضاه الله فى شأنهم على كل حال . وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدى القوم الفاسقين) ويحكى طرفا من فسقهم ، الذى استوجب قضاء الله فيهم (هم الذين يقولون:لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) وهى قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهى خطة التجويع التى يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان ، فى حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يسحبون لقمة العيش هى كل شىء فى الحياة كما هى فى حسهم فيحاربون بها المؤمنين . إنها خطة قريش وهى تقاطع بنى هاشم فى الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين ! وهى خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع ! وهى خطة الشيوعيين فى حرمان المتدينين فى بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعا أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة ! وهى خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامى فى بلاد الإسلام , بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق . . وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان . . ناسين الحقيقة البسيطة التى يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية (ولله خزائن السماوات

والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون) ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم . فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين ! وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوى قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة , التى يلجأ أعداء الله إليها فى حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله فى السماوات والأرض هى خزائن الأرزاق للجميع . والذى يعطى أعداءه لا ينسى أولياءه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيرا ولا قليلا لو قطع عنهم الأرزاق ! وهو أكرم أن يكل عباده – ولو كانوا أعداءه – إلى ما يعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء ! ثم قولتهم الأخيرة (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) وقد رأينا كيف حقق ذلك عبدالله بن عبدالله بن أبى ! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز ! (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون) ويضم الله – سبحانه – رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفى عليهم من عزته ، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ! وأى تكريم بعد أن يوقف الله – سبحانه – رسوله والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول:ها نحن أولاء ! هذا لواء الأعزاء . وهذا هو الصف العزيز ! وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان فى القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التى لا تهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تلين . ولا تزايل القلب المؤمن فى أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة (ولكن المنافقين لا يعلمون) وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل ؟ لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله فى صفه مع رسول الله ﷺ وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير فى السورة ، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ، ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد ، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ، ويدرك غاية وجوده ، ويشعر أن له هدفا أعلى يليق بالمخلوق الذى نفخ الله فيه من روحه ، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية فى حدود طاقته البشرية . وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة فى الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذى تلقى منه ما هو به إنسان . ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ، ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال (و من يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وأول ما يخسرونه هو هذه السمة . سمة الإنسان . فهى موقوفة على الاتصال بالمصدر الذى صار به الإنسان إنسانا . ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شىء . مهما يملك من مال ومن أولاد . ويلمسهم فى موضوع الإنفاق لمسات متنوعة فى آية واحدة (وأنفقوا مما رزقناكم) فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذى فى أيديهم . فهو من عند الله الذى آمنوا به والذى يأمرهم بالإنفاق (من قبل أن يأتى أحدكم الموت) فيترك كل شىء وراءه لغيره ؛ وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه ، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران . ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين ! وأنى له هذا (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) وأنى له ما يتقدم به (والله خبير بما تعملون) إنها اللمسات المنوعة فى الآية الواحدة . فى مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين . ولواذ المؤمنين بصف الله الذى يقيهم كيد المنافقين . . فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان ، وألا يغفلوا عن ذكر الله . وهو مصدر الأمان . . وهكذا يربى الله المسلمين بهذا القرآن الكريم . .

سورة التغابن

مدنية ، و آياتها ١٨

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية فى موضوعها وفى سياقها وفى ظلالها وإيحاءاتها , وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدنى يتبين إلا فى فقراتها الأخيرة . والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء: يا أيها الذين آمنوا . . تستهدف بناء أسس العقيدة , وإنشاء التصور الإسلامى فى القلوب بأسلوب السور المكية التى تواجه الكفار المشركين ابتداء ، وتخاطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ فى مواجهته . ثم هى تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ؛ وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث ، وتوكيده توكيدا شديدا ، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين . فأما الفقرات الأخيرة فهى تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم فى السور المدنية ، لحثهم على الإنفاق ، وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد . وهى الدعوة التى تكررت نظائرها فى العهد المدنى بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها . كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين ، ورد الأمر فيها إلى قدر الله ، وتثبيت هذا التصور . . وهو ما يتكرر فى السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات . والمقطع الأول فى السورة يستهدف بناء التصور الإيمانى الكونى ، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق – سبحانه – وهذا الكون الذى خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها فى الكون وفى الحياة الإنسانية (يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير . يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون . والله عليم بذات الصدور) وهذا التصور الكونى الإيمانى هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون فى تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسالات الإلهية كلها بوحدانية الله ، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق ، ورعايته لكل كائن فى الوجود . لا نشك فى هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسالات كلها . ولا عبرة بما نجده فى الكتب المفتراة والمحرفة ; أو فيما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لا يؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة الإيمانية من أتباعها ، فبدا أنها لم تأت بالتوحيد الخالص , أو لم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارئ لا من أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسالات إلى خاتمة الرسالات . ويستحيل أن ينزل الله دينا يخالف هذه القواعد ، كما يزعم الزاعمون بناء على ما يجدونه فى كتب مفتراة أو محرفة باسم الدين ! ولكن تقرير هذه الحقيقة لا ينافى أن التصور الإسلامى عن الذات الإلهية ، وصفاتها العلوية , وآثار هذه الصفات فى الكون وفى الحياة الإنسانية . . أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق فى الديانات الإلهية . . وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشرى الذى جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ؛ وتنشئ فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{١} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{٢} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ{٣} يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٤} أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٥} ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ{٦} زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{٧} فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{٨} يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٩} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{١٠} مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{١١} وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{١٢} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{١٣} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٤} إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{١٥} فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{١٦} إِن

تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ{١٧} عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ){١٨}

(يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، له الملك وله الحمد) فكل ما فى السماوات والأرض متوجه إلى ربه ، مسبح بحمده ؛ وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شىء فى هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شىء . وكل شىء شاعر بهذه الحقيقة . والله محمود بذاته ممجد من مخلوقاته (وهو على كل شىء قدير) فهى القدرة المطلقة ، التى لا تتقيد بقيد . وهى حقيقة يطبعها القرآن فى القلب المؤمن فيعرفها ويتأثر بمدلولها ، ويعلم أنه حين يركن إلى ربه فإنما يركن إلى قدرة تفعل ما تشاء ، وتحقق ما تريد . بلا حدود ولا قيود . وهذا التصور لقدرة الله وتسبيح كل شىء له ، وتوجه الوجود إليه بالحمد . . هو طرف من ذلك التصور الإيمانى الكبير . واللمسة الثانية فى صميم القلب الإنسانى ، الذى يقف فى خضم الوجود المؤمن المسبح بحمد الله . مؤمنا تارة وكافرا تارة . وهو وحده الذى يقف هذا الموقف الفريد (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فعن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان ؛ وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ؛ وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ؛ ونيطت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد . وهى أمانة ضخمة وتبعة هائلة . ولكن الله كرم هذا المخلوق فأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار ؛ وأمده بعد ذلك بالميزان الذى يزن به عمله ويقيس به اتجاهه . وهو الدين الذى نزله على رسل منه . فأعانه بهذا كله على حمل هذه الأمانة . ولم يظلمه شيئا (والله بما تعملون بصير) فهو رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل ، بصير بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير . وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامى الواضح المستقيم لموقف الإنسان فى هذ الوجود ، واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود . واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن فى طبيعة الوجود ، الذى تقوم به السماوات والأرض ، كما تشير إلى صنعة الله المبدعة فى كيان المخلوق الإنسانى . وتقرر رجعة الجميع إليه فى نهاية المطاف (خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير) وصدر هذا النص (خلق السماوات والأرض بالحق) يقر فى شعور المؤمن أن الحق أصيل فى كيان هذا الكون ، ليس عارضا وليس نافلة ؛ فبناء الكون قام على هذا الأساس . والذى يقرر هذه الحقيقة هو الله الذى خلق السماوات والأرض ، والذى يعلم على أى أساس قامتا . واستقرار هذه الحقيقة فى الحس يمنحه الطمأنينة والثقة فى الحق الذى يقوم عليه دينه ، ويقوم عليه الوجود من حوله ؛ فهو لا بد ظاهر ، ولا بد باق ، ولا بد مستقر فى النهاية بعد زبد الباطل ! والحقيقة الثانية (وصوركم فأحسن صوركم) تشعر الإنسان بكرامته على الله ، وبفضل الله عليه فى تحسين صورته:صورته الخلقية وصورته الشعورية . فالإنسان هو أكمل الأحياء فى الأرض من ناحية تكوينه الجثمانى ؛ كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعورى واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة . ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض ، وأقيم فى هذا الملك العريض بالقياس إليه ! ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان ، أو إلى أى جهاز من أجهزته ، تثبت تلك الحقيقة وتجسمها (وصوركم فأحسن صوركم) وهى هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال . ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل . ولكن التصميم فى ذاته جميل وكامل الصنعة , ووافٍ بكل الوظائف والخصائص التى يتفوق بها الإنسان فى الأرض على سائر الأحياء (وإليه المصير) مصير كل شىء وكل أمر وكل خلق . . مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان . فمن إرادته انبثق ، وإليه – سبحانه – يعود . ومنه المنشأ وإليه المصير . وهو الأول والآخر . المحيط بكل شىء من طرفيه:مبدئه ونهايته . وهو – سبحانه – غير محدود ! واللمسة الرابعة فى هذا المقطع هى تصوير العلم الإلهى المحيط بكل شىء ، المطلع على سر الإنسان وعلانيته ، وعلى ما هو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور(يعلم ما فى السماوات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور) واستقرار هذه الحقيقة فى القلب المؤمن يفيده المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته . ويمنحه جانبا من التصور الإيمانى الكونى . ويؤثر فى مشاعره واتجاهاته ؛ فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائرة فى الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور . وإن آيات ثلاثة كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركا لحقيقة وجوده ، ووجود الكون كله ، وصلته بخالقه ، وأدبه مع ربه ، وخشيته وتقواه ، فى كل حركة وكل اتجاه . والمقطع الثانى فى السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسل والبينات ، المعترضين على بشرية الرسل . كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول ﷺ ويكفرون بما جاءهم به من البينات (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا:أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا ، واستغنى الله , والله غنى حميد) والخطاب هنا للمشركين – غالبا – وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة . والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وقد يكون

للفت أنظارهم إلى هذا النبأ الذى يقصه عليهم . وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين . كعاد وثمود وقرى لوط . وهم يمرون عليها فى شبه الجزيرة ، فى رحلاتهم للشمال والجنوب (واستغنى الله . والله غنى حميد) استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم . وما هو - سبحانه - بمحتاج إلى شىء منهم ولا من غيرهم ، ولا بمحتاج أصلا (والله غنى حميد) فهذا نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وهذا سبب ما ذاقوا وما ينتظرهم . فكيف يكذب بعد هذا النبأ مكذبون جدد ؟ أليلقوا مصيرا كهذا المصير ؟ والمقطع الثالث بقية للمقطع الثانى يحكى تكذيب الذين كفروا بالبعث - وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول ﷺ يواجههم بالدعوة - وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيدا وثيقا . وتصوير لمشهد القيامة ومصير المكذبين والمصدقين فيه ؛ ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شىء لله فيما يقع لهم فى الحياة (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربى لتبعثن) ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعما ، فيقضى بكذبه من أول لفظ فى حكايته . ثم يوجه الرسول ﷺ إلى توكيد أمر البعث بأوثق توكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه توكيد (قل:بلى وربى لتبعثن) (ثم لتنبئون بما عملتم) فليس شىء منه بمتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ! (وذلك على الله يسير) فهو يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شىء قدير . كما جاء فى مطلع السورة تمهيدا لهذا التقرير . وفى ظل هذا التوكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والنور الذى أنزله مع رسوله . وهو هذا القرآن . وهو هذا الدين الذى يبشر به القرآن . وهو نور فى حقيقته بما أنه من عند الله . والله نور السماوات والأرض . وهو نور فى آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شىء (والله بما تعملون خبير) وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذى أكده لهم أوثق توكيد (يوم يجمعكم ليوم الجمع:ذلك يوم التغابن) فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق فى جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله . ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء فى حديث رسول الله ﷺ - عن أبى ذر رضى الله عنه - قال:قال رسول الله ﷺ :" إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أطت السماء وحق لها أن تيط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجدا . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى . لوددت أنى شجرة تعضد " (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) وقبل أن يكمل نداءه إليهم بالإيمان يقرر قاعدة من قواعد التصور الإيمانى فى القدر ، وفى أثر الإيمان بالله فى هداية القلب (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم) ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هى مجرد بيانها فى صدد عرض حقيقة الإيمان الذى دعاهم إليه فى هذا المقطع . فهو الإيمان الذى يرد كل شىء إلى الله ، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله . وهى حقيقة لا يكون إيمان بغيرها . فهى أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها . كما يجوز أن تكون هناك مناسبة حاضرة فى واقع الحال عند نزول هذه السورة . أو هذه الآية من السورة ، فيما كان يقع بين المؤمنين والمشركين من وقائع (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) وقد فسرها بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة . وعن ابن عباس يعنى يهدى قلبه هداية مطلقة . ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة . ويصله بأصل الأشياء والأحداث ، فيرى هناك منشأها وغايتها . ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح . ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغنى عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور . ومن ثم يكون التعقيب عليها (والله بكل شىء عليم) فهى هداية إلى شىء من علم الله ، يمنحه لمن يهديه ، حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب ، وكشف الأسرار بمقدار ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا . وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ . فإذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب ، وأقام الحجة . وبقى ما ينتظرهم هم من المعصية والتولى ، مما ذكروا به منذ قليل . ثم يختم هذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدانية التى ينكرونها ويكذبونها ، ويقرر شأن المؤمنين بالله فى تعاملهم مع الله (الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وحقيقة التوحيد هى أساس التصور الإيمانى كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيمانى فى القلوب . وبهذه الآية يدخل السياق فى خطاب المؤمنين . فهى وصلة بين ما مضى من السورة وما يجىء . وفى النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله ، والسمع والطاعة والإنفاق ، كما يحذرهم شح الأنفس ، ويعدهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح . ويذكرهم فى الختام بعلم الله للحاضر والغائب ، وقدرته وغلبته ، مع خبرته وحكمته (يا

أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئک هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) النص القرانى أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كئالتحذير الذى فى الآية التالية من الأموال والأولاد معا: أنما أموالكم وأولادكم فتنة . . والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوا . .إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة فى الحياة البشرية . ويمس وشائج متشابكة دقيقة فى التركيب العاطفي وفى ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير فى تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التى تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقاه المجاهد في سبيل الله ! ثم كرر هذا التحذير فى صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد . وكلمة فتنة تحتمل معنيين : الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم ، فانتبهوا لهذا ، وحاذروا وكونوا أبدا يقظين لتنجحوا في الابتلاء ، وتخلصوا وتتجردوا لله . كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب ! والثانى أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها فى المخالفة والمعصية , فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله . وكلا المعنيين قريب من قريب . ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد ، والعداوة المستسرة في بعض الأبناء والأزواج . فهذه فتنة (والله عنده أجر عظيم) ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والإستطاعة ، وبالسمع والطاعة (فاتقوا الله ما استطعتم – واسمعوا وأطيعوا) وفى هذا القيد (ما إستطعتم) يتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقاتهم فى تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله ﷺ :" إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " فالطاعة فى الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع . أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان . ويهيب بهم إلى الإنفاق ، فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، ويعدها الخير لهم حين يفعلون . ويريهم شح النفس بلاء ملازما . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ؛ والوقاية منه فضل من الله (ومن يوق شح نفسه فأولئک هم المفلحون) ثم يمضى فى إغرائهم بالبذل وتحبيبهم فى الإنفاق ، فيسمى إنفاقهم قرضا لله . ومن ذا الذى لا يربح هذه الفرصة التى يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به , ويشكر المقرض ، ويحلم عليه حين يقصر فى شكره . وهو الله ! (إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حليم) وتبارک الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضا . يضاعفه . ثم . يشكر لعبده الذى أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم فى تقصيره هو عن شكر مولاه . . ! يالله !!! ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب ، بصفة الله التى بها الإطلاع والرقابة على القلوب (عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) فكل شيء مكشوف لعلمه ، خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته . كى يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه . ويكفى أن يستقر هذا التصور فى القلوب ، لتتقى الله وتخلص له وتستجيب .

سورة الطلاق

مدنية ، و آياتها ١٢

هذه سورة الطلاق ، يبين الله فيها أحكامه ، ويفصل فيها الحالات التى لم تفصل فى السورة الأخرى "سورة البقرة" التى تضمنت بعض أحكام الطلاق ؛ ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذى يمكن أن يقع فيه الطلاق الذى يقبله الله ويجرى وفق سنته (يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) وحق المطلقة وواجبها فى البقاء فى بيتها – وهو بيت مطلقها – فترة العدة لا تخرج (بضم التاء) ولا تخرج إلا أن تأتى بفاحشة مبينة (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) وحقها بعد انقضاء العدة فى الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء ، ما لم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها فى فترة العدة ، لا ليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلها عن الزواج ، ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) وهذا مع الإشهاد على الإمساك أو الفراق (وأشهدوا ذوى عدل منكم) وفى سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض – وهى ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهى – وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التى انقطع حيضها وللصغيرة التى لم تحض (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن) وبين عدة الحامل (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) ثم فصل حكم المسكن الذى تعتد فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع: (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه ، وأجر الأم على الرضاعة فى حالة الإتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما ، وفى حالة إرضاعه من أخرى (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) ثم زاد حكم النفقة والأجر فى جميع الحالات تفصيلا ، فجعله تابعا لحالة الزوج وقدرته (لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات ، وما يتخلف عنها ، بأحكام مفصلة دقيقة ، ولم تدع شيئا من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته فى مكانه ، وبينت حكمه ، فى رفق وفى دقة وفى وضوح . ويقف الإنسان مدهوشا أمام هذه السورة وهى تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهى تحشد للأمر هذه الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله فى السماوات والأرضين ، وسنن الله فى هلاك العاتين عن أمره ، وفى الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضى ، وإيثار الجميل . والإطماع فى الخير . والتذكير بقدر الله فى الخلق وفى الرزق ، وفى اليسر والعسر . . يقف الإنسان مدهوشا أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى فى معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام – حتى ليوجه الخطاب إلى النبى ﷺ بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة فى الاهتمام وإشعارا بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ، والأمر المشدد فى كل حكم بالدقة فى مراعاته ، وتقوى الله فى تنفيذه ، ومراقبة الله فى تناوله . والإطالة فى التعقيب بالترغيب والترهيب ، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التى تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ؛ وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارين بأعنف وأشد ما يلقاه عاص ؛ وتلوح للناس بالرجاء الندى والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير . ويقرأ القارئ فى هذه السورة (واتقوا الله ربكم) (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) (وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله) (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا) (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) (ذلك أمر الله أنزله إليكم) (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) (سيجعل الله بعد عسر يسرا) كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا ، وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا) يعقبه التحذير من مثل هذا المصير ، والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور ، والتلويح بالأجر الكبير (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا ، قد

أنزل الله إليكم ذكرا:رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكونى الكبير (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) يقرأ هذا كله تعقيبا على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة فى القرآن ، من هذا الطراز ، كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالةومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان فى المجال الكونى والنفسى . وهى حالة تهدم لا حالة بناء ، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء . . لأسرة . . لا لدولة . . وهى توقع فى الحس أنها أضخم من إنشاء دولة ! علام يدل هذا ؟ إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته وانبثاقه من نبع غير بشرى على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة ! إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى: فالإسلام نظام أسرة . البيت فى اعتباره مثابة وسكن ، فى ظله تلتقى النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ؛ وفى كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ؛ ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل . ويحيط الإسلام هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام الكلية ، فإنه لا يكتفى بالإشعاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية . والدلالة الثانية لسياق السورة ، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال فى القرآن كله ، هى اتجاه النظام الإسلامى لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ؛ واتخاذها وسيلة للتطهر الروحى والنظافة الشعورية - لا كما كان ينظر إليها فى العقائد الوثنية ، وعند أتباع الديانات المحرفة ، البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التى فطر الناس عليها . ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتفاع فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها:) وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله (ويسمى الزواج إحصانا أى وقاية وصيانة . ويستقر فى أخلاد المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله . فيقول الإمام على - كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجه فاطمة بنت الرسول ﷺ : " لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عزب " . . فيدخل الزواج فى عرف المؤمن فى الطاعات التى يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة فى ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه . والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هى واقعية هذا النظام الإسلامى ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هى فى فطرتها ، مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم ، عن طريق استعداداتها وملابسات حياتها . ومن ثم لا يكتفى بالتشريع الدقيق فى هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفى بالتوجيه . ويستخدم هذا وذاك فى مواجهة واقع النفس وواقع الحياة . إن الأصل فى الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التى تكفل استقرارها واستمرارها . وفى سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التى تمنع التبرج والفتنة كى تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة فى الأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ؛ ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليهاوالاستئذان بين أهلها فى داخلها . وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة ، ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامة ، منعا للفوضى والاضطراب والنزاع . . إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته . ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تتهدم وتتحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات . وهى حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية ، اعترافا بمنطق الواقع الذى لا يجدى إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية ، ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس ! هذا دين رفيع . . لا يعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلا منكوس ، ولا يحاربه إلا موكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه . والآن نستعرض الأحكام فى سياق السورة - بعد هذا الاستطراد الذى لا يبعد كثيرا عن جو هذا الجزء وما فيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة - والأحكام فى سياق السورة شىء آخر غير ذلك التلخيص . شىء حى . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إيحاء . . وله إيقاع . وهذا هو الفارق الأصيل بين مدارسة الأحكام فى القرآن ومدارستها فى كتب الفقه والأصول .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا{١} فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ

عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{٣} وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً{٤} ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً{٥} أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى{٦} لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً{٧} وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً{٨} فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً{٩} أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً{١٠} رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً{١١} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً){١٢}

(يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم , لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله , ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) هذه هى أول مرحلة وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبى ﷺ(يا أيها النبى)ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه ﷺ (إذا طلقتم النساء) فيوحى هذا النسق من التعبير بما وراءه ، وهو إثارة الإهتمام ، وتصوير الجدية . فهو أمر ذو بال ، ينادى الله نبيه بشخصه ليلقى إليه فيه بأمره ، كما يبلغه لمن وراءه . وهى إيحاءات نفسية واضحة الدلالة على ما يراد بها من احتفال واحتشاد (إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) وقد ورد فى تحديد معنى هذا النص حديث صحيح رواه البخارى ، أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال:" ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر بها الله عز وجل " ومن ثم يتعين أن هناك وقتا معينا لإيقاع الطلاق ؛ وأنه ليس للزوج أن يطلق حينما شاء إلا أن تكون امرأته فى حالة طهر من حيض ، ولم يقع بينهما فى هذا الطهر وطء . وتفيد آثار أخرى أن هناك حالة ثانية يجوز فيها الطلاق ، وهو أن تكون الزوجة حاملا بينة الحمل . والحكمة فى ذلك التوقيت هى أولا إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التى تتجه فيها النفس للطلاق ؛ وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوئام . كما أن فيه تأكدا من الحمل أو عدمه قبل الطلاق . فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل . فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملا . فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقيق من عدم الحمل ، واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر . وهذه أول محاولة لرأب الصدع فى بناء الأسرة ، ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء . وليس معنى هذا أن الطلاق لا يقع إلا فى هذه الفترة . فهو يقع حيثما طلق . ولكنه يكون مكروها من الله ، مغضوبا عليه من رسول الله . وهذا الحكم يكفى فى ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتى الأجل . فيقضى الله ما يريد فى هذه المسألة . (وأحصوا العدة) كى لا يكون فى عدم إحصائها إطالة للأمد على المطلقة ، ومضارة لها بمنعها من الزواج بعد العدة . أو نقص فى مدتها لا يتحقق به الغرض الأول ، وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل المستكن حفظا للأنساب . ثم هو الضبط الدقيق الذى يوحى بأهمية الأمر , ومراقبة السماء (يقصد مراقبة الله) و هذه المصطلحات الغربية من بقايا قراءات سيد قطب السابقة فى التراث الغربى له ، ومطالبة أصحابه بالدقة فيه ! (واتقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) هذا أول تنبيه – بعد وهلة النداء الأول – وأول تحذير من الله وتقديم تقواه . قبل الأمر بعدم إخراجهن من بيوتهن – وهى بيوت أزواجهن ولكنه يسميها بيوتهن لتوكيد حقهن فى الإقامة بها فترة العدة – لا يخرجن منها ولا يخرجن ، إلا فى حالة وقوع فاحشة ظاهرة منهن . وقد ورد أن هذه الفاحشة قد تكون الزنا فتخرج للحد ، وقد تكون إيذاء أهل الزوج . وقد تكون هى النشوز على الزوج – ولو أنه مطلق – وعمل ما يؤذيه . ذلك أن الحكمة من إبقاء المطلقة فى بيت الزوج هى إتاحة الفرصة للرجعة ، واستثارة عواطف المودة , وذكريات الحياة المشتركة ، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ؛ فيفعل هذا فى المشاعر فعله بين الإثنين ! فأما حين ترتكس فى حمأة الزنا وهى فى بيته ! أو تؤذى أهله ، أو تنشز عليه ، فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة ، واستجاشة المودة الدفينة . ولا حاجة إلى استبقائها فى فترة العدة . فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحييها ! (تلك حدود الله . ومن

يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) وهذا هو التحذير الثانى . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأى مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟! إنه الهلاك والبوار (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه . وهى وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار . . ثم . . (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) وهى لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذى يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة , وأمره ببقاء المطلقات فى بيوتهن . . إنه يلوح هناك أمل ، ويوصوص هناك رجاء . وقد يكون الخير كله . وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضى . فقدر الله دائم الحركة , دائم التغيير ، ودائم الأحداث . والتسليم لأمر الله أولى ، والرعاية له أوفق , وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك ! والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، وما فيها من أوضاع وملابسات ، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل ، فتعيش فى سجن اللحظة الحاضرة ، وتشعر أنها سرمد ، وأنها باقية ، وأن ما فيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها . . وهذا سجن نفسى مغلق مفسد للأعصاب فى كثير من الأحيان . وليست هذه هى الحقيقة . فقدر الله دائما يعمل ، ودائما يغير ، ودائما يبدل ، ودائما ينشئ ما لا يجول فى حسبان البشر من الأحوال والأوضاع . فرج بعد ضيق . وعسر بعد يسر . وبسط بعد قبض . والله كل يوم هو فى شأن ، يبديه للخلق بعد أن كان عنهم فى حجاب . ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة فى نفوس البشر ، ليظل تطلعهم إلى ما يحدثه الله من الأمر متجددا ودائما . ولتظل أبواب الأمل فى تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة . ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل ، ندية بالرجاء ، لا تغلق المنافذ ولا تعيش فى سجن الحاضر . واللحظة التالية قد تحمل ما ليس فى الحسبان . . (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا) وهذه هى المرحلة الثانية وهذا هو حكمها . وبلوغ الأجل آخر فترة العدة . وللزوج ما دامت المطلقة لم تخرج من العدة – على آجالها المختلفة التى سبق بيانها – أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها – وهذا هو إمساكها – أو أن يدع العدة تمضى فتبين منه ولا تحل له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة . وسواء راجع أم فارق فهو مأمور بالمعروف فيهما . منهى عن المضارة بالرجعة ، كأن يراجعها قبيل انتهاء العدة ثم يعود فيطلقها الثانية ثم الثالثة ليطيل مدة بقائها بلا زواج ! أو أن يراجعها ليبقيها كالمعلقة , ويكايدها لتفتدى منه نفسها – وكان كلاهما يقع عند نزول هذه السورة ، وهو ما يزال يقع كلما انحرفت النفوس عن تقوى الله . وهى الضمان الأول لأحكامه فى المعاشرة والفراق . كذلك هو منهى عن المضارة فى الفراق بالسب والشتم والغلظة فى القول والغضب ، فهذه الصلة تقوم بالمعروف وتنتهى بالمعروف استبقاء لمودات القلوب ؛ فقد تعود إلى العشرة ، فلا تنطوى على ذكرى رديئة ، لكلمة نابية ، أو غمزة شائكة ، أو شائبة تعكر صفائها عندما تعود . ثم هو الأدب الإسلامى المحض الذى يأخذ الإسلام به الألسنة والقلوب . وفى حالتى الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك . شهادة اثنين من العدول . قطعا للريبة . فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة ، فتثور شكوك وتقال أقاويل . والإسلام يريد النصاعة والطهارة فى هذه العلاقات وفى ضمائر الناس وألسنتهم على السواء . والرجعة تتم وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها . ولكن الإجماع أن لا بد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين . وعقب بيان الحكم تجىء اللمسات والتوجيهات تترى (وأقيموا الشهادة لله)فالقضية قضية الله ، والشهادة فيها لله ، هو يأمر بها ، وهو يراقب استقامتها ، وهو يجزى عليها . والتعامل فيها معه لا مع الزوج ولا الزوجة ولا الناس ! (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) والمخاطبون بهذه الأحكام هم المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر . فهو يقول لهم:إنه يعظهم بما هو من شأنهم . فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون . وهذا هو محك إيمانهم ، وهذا هو مقياس دعواهم فى الإيمان ! (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) مخرجا من الضيق فى الدنيا والآخرة ، ورزقا من حيث لا يقدر ولا ينتظر . وهو تقرير عام , وحقيقة دائمة . ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحى بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقى المتقون الله فى هذا الشأن بصفة خاصة . وهو الشأن الذى لا ضابط فيه أحس ولا أدق من ضابط الشعور والضمير ، فالتلاعب فيه مجاله واسع ، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره) فهنا إيحاء بترك هذه المحاولة ، والتوكل على الله ، وهو كاف لمن يتوكل عليه . فالله بالغ أمره . فما قدر وقع ، وما شاء كان ؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر , وقوة القاهر . الفعال لما يريد . البالغ ما يشاء (قد جعل الله لكل شيء قدرا) فكل شيء مقدر بمقداره ، وبزمانه ، وبمكانه ، وبملابساته ، وبنتائجه وأسبابه . وليس شيء مصادفة ، وليس شيء جزافا . فى هذا الكون كله ، وفى نفس الإنسان وحياته . . وهى حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم – إن ارتبتم – فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . ومن

يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) وهذا تحديد لمدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل . يشمل اللواتى انقطع حيضهن ، واللاتى لم يحضن بعد لصغر أو لعلة . ذلك أن المدة التى بينت من قبل فى سورة البقرة كانت تنطبق على ذوات الحيض – وهى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات . حسب الخلاف الفقهى فى المسألة – فأما التى انقطع حيضها والتى لم تحض أصلا فكان حكمها موضع لبس:كيف تحسب عدتها ؟ فجاءت هذه الآية تبين وتنفى اللبس والشك ، وتحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء ، لاشتراكهن فى عدم الحيض الذى تحسب به عدة أولئك . أما الحوامل فجعل عدتهن هى الوضع . طال الزمن بعد الطلاق أم قصر . ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس . لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار . والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع ، فلا حكمة فى انتظارها بعد ذلك ، وهى غير قابلة للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال . وقد جعل الله لكل شىء قدرا . فليس هناك حكم إلا ووراءه حكمة .هذا هو الحكم ثم تجىء اللمسات والتعقيبات (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) واليسر فى الأمر غاية ما يرجوه إنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده . فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة . يأخذ الأمور بيسر فى شعوره وتقديره . وينالها بيسر فى حركته وعمله . ويرضاها بيسر فى حصيلتها ونتيجتها . ويعيش من هذا فى يسر رخى ندى ، حتى يلقى الله . . ألا إنه لإغراء باليسر فى قضية الطلاق مقابل اليسر فى سائر الحياة ! (ذلك أمر الله أنزله إليكم) وهذه لمسة أخرى فى جانب آخر . لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر . . فقد أنزله الله . أنزله للمؤمنين به ، فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان ، ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله (ثم عودة إلى التقوى التى يدق عليها دقا متواصلا فى هذا المجال (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) فالأولى تيسير للأمور . والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير . . فهو الفيض المغرى والعرض المثير . وهو حكم عام ووعد شامل . ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله ، ويغمر القلب بالشعور بالله وفضله العميم . فما له إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير ؟ (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ،ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ,وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا) وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة فى البيوت ، والإنفاق فى فترة العدة – على اختلاف مدتها . فالمأمور به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى . لا أقل مما هم عليه فى سكناهم ، وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم . غير عامدين إلى مضارتهم سواء بالتضييق عليهن فى فسحة المسكن أو مستواه أو فى المعاملة فيه . وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة – مع وجوب النفقة لكل معتدة – لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة عنه إذا قصرت مدته . فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعى . ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجبا على الأم بلا مقابل . فما دامت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجرا على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير ، وهذا منتهى المراعاة للأم فى هذه الشريعة . وفى الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف فى شأن هذا الوليد ، ويتشاورا فى أمره ورائدهما مصلحته ، وهو أمانة بينهما ، فلا يكون فشلهما هما فى حياتهما نكبة على الصغير البرىء فيهما ! وهذه هى المياسرة التى يدعوهما الله إليها . فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها ، فالطفل مكفول الحقوق (فسترضع له أخرى) دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل فى الرضاعة ، بسبب تعاسرهما بعد فشلهما ! ثم يفصل الأمر فى قدر النفقة . فهو اليسر والتعاون والعدل . لا يجور هو ، ولا تتعنت هى . فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة . سواء فى السكن أو فى نفقة المعيشة أو فى أجر الرضاعة . ومن ضيق عليه فى الرزق ، فليس عليه من حرج ، فالله لا يطالب أحدا أن ينفق إلا فى حدود ما آتاه . فهو المعطى ، ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله . فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر ، وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) ثم لمسة الإرضاء ، وإفساح الرجاء ، للاثنين على السواء (سيجعل الله بعد عسر يسرا) فالأمر منوط بالله فى الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر . فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله ، وأن يتجها إليه بالأمر كله ، وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه . وهو المانح المانع . القابض الباسط . وبيده الضيق والفرج ، والعسر واليسر ، والشدة والرخاء . وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته ، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ؛ ولم يدع من البيت المتهدم أنقاضا ولا غبارا يملأ النفوس ويغشى القلوب ، ولم يترك بعده عقابيل غير مستريحة بعلاج ، ولا قلاقل تثير الاضطراب . وإن الزوجين ليفارقان – فى ظل تلك الأحكام والتوجيهات – وفى قلوبهما بذور للود لم تمت ، ونداوة قد تحيى هذه البذور فتنبت . . ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذى يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ، ويشيع فيها أرجه وشذاه . فإذا انتهى السياق من هذا

كله ساق العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله ، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلق هذه العبرة على الرؤوس ، تذكرهم بالمصير البائس الذى ينتظر من لا يتقى ولا يطيع . كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع: (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا) وهو إنذار طويل وتحذير مفصل المشاهد . كما أنه تذكير عميق بنعمة الله بالإيمان والنور , ووعده بالأجر فى الآخرة وهو أحسن الرزق وأكرمه . فأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ثم تصوير العاقبة وسوء المصير (فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا) ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة فى الآية التالية (أعد الله لهم عذابا شديدا) كل هذا لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله . وهي طريقة من طرق الأسلوب القرآنى فى تعميق الأثر فى الحس وإطالة مكثه فى الأعصاب . وفى مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولى الألباب الذين آمنوا . الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان . يهتف بهم ليتقوا الله الذى أنزل لهم الذكر (قد أنزل الله إليكم ذكرا) ويجسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول ﷺ فيجعل شخصه الكريم هو الذكر ، أو بدلا منه في العبارة (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات) وهنا لفتة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل منوعة . . إن هذا الذكر الذى جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب شخصية الرسول شيئا من حقيقته . والوجه الثانى لإيحاء النص هو أن شخصية الرسول [ص] قد استحالت ذكرا ، فهى صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو . وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن . وكذلك كان رسول الله ﷺ وهكذا وصفته عائشة – رضى الله عنها – وهى تقول:" كان خلقه القرآن " . . وهكذا كان القرآن فى خاطره فى مواجهة الحياة . وكان هو القرآن يواجه الحياة ! وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح ، وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبدا . وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق ، فلا يقاس إليه رزق الأرض: (قد أحسن الله له رزقا). . وهو الرازق فى الدنيا والآخرة ، ولكن رزقا خير من رزق ، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم . وفى الختام يجيء ذلك الإيقاع الكونى الهائل ، فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها بقدر الله وقدرة الله ، وعلم الله ، فى المجال الكونى العريض (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) والسماوات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها . وكذلك الأراضى السبع . فقد تكون أرضنا هذه التى نعرفها واحدة منهن والباقيات فى علم الله . وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السماوات فهى مثلهن فى تركيبها أو خصائصها . . وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا ، لأن علمنا لا يحيط بالكون ، حتى نقول على وجه التحقيق:هذا ما يريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علما يقينيا . . وهيهات . . ! ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين:

الأول أن الله الذى أحاط بكل شيء علما هو الذى يأمر بهذه الأحكام . فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملابساتهم ومصالحهم واستعداداتهم . فهى أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات ؛ وهى من وضع العليم المحيط بكل شيء علما .

والثانى أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمانلحساسية هذه الضمائر ، فى شأن لا يجدى فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور .

وهكذا تختم السورة بهذا الإيقاع الذى يهول ويروع ، بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع . فسبحان خالق القلوب ، العليم بما فيها من المنحنيات والدروب !

سورة التحريم
مدنية ، و آياتها ١٢

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ، وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقى إلى آخر الخليقة ؛ وأن تجرى حياة المؤمنين به وفق الناموس الكونى العام ، وأن يكون هذا الدين هو الذى يقود حياة البشرية ويهيمن على نشاطها فى كل ميدان . عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج فى هذه الصورة ، شاملا كاملا متكاملا ، يلبى كل طاقات البشر واستعداداتهم ، فى الوقت الذى يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله فى الأرض ، وبالكائن الذى كرمه الله على كثير من عباده ، ونفخ فيه من روحه . وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام ، نموا وتكاثرا ، ورفعة وتطهرا ، فى آن واحد . فلم يعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعدادا نافعا . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفى الوقت ذاته حافظ على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم ، الذى يهيئ الأرواح فى الدنيا لمستوى نعيم الآخرة ، ويعد المخلوق الفانى فى الأرض للحياة الباقية فى دار الخلود . وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها ﷺ إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدى ، قوى البنية ، سليم البناء ؛ صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما . وهو فى ذات الوقت ضخم العاطفة ، حى الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقى والإستجابة . وهو فى الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوى الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه . . ثم هو بعد ذلك كله . . النبى . . الذى تشرق روحه بالنور الكلى ، والذى تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذى ينادى من السماء ، والذى يرى نور ربه ، والذى تتصل حقيقته بحقيقة كل شىء فى الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد - الجبل . . ! . . ثم تتوازن فى شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التى اختير لها . . ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللبشرية كلها ، تقرأ فيه صور هذه العقيدة ، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا ، ولا سترا مطويا . بل يعرض جوانب كثيرة منها فى القرآن ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس فى حياة الإنسان العادى . حتى مواضع الضعف البشرى الذى لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول ﷺ للناس ! وهذه السورة تعرض فى صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ﷺ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض ، وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات فى حياته ﷺ وفى حياة الجماعة المسلمة كذلك . . ثم فى التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع فى بيوت رسول الله وبين أزواجه . والوقت الذى وقعت فيه الأحداث التى تشير إليها السورة ليس محددا . ولكن بالرجوع إلى الروايات التى جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش قطعا . لكل زوجة من أزواجه ﷺ قصة وسببا فى زواجه منها . وهن فيمن عدا زينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، لم يكن شواب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال . وكانت عائشة - رضى الله عنها - هى أحب نسائه إليه . وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسى وإنسانى آخر - إلى جانب جاذبيتهن - ولست أحاول أن أنفى عنصر الجاذبية الذى لحظته عائشة فى جويرية مثلا ، ولا عنصر الجمال الذى عرفت به زينب . فلا حاجة أبدا إلى نفى مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبى ﷺ وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبيهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنسانا . ولكن إنسانا رفيعا . وهكذا كان . وهكذا كانت دوافعه فى حياته وفى أزواجه ﷺ على اختلاف الدوافع والأسباب . ولقد عاش فى بيته مع أزواجه بشرا رسولا كما خلقه الله ، وكما أمره أن يقول (قل:سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟) استمتع بأزواجه وأمتعهن ، كما قالت عائشة - رضى الله عنها - عنه:" كان إذا خلا بنسائه ألين الناس . وأكرم الناس ضحاكا بساما " . . ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه ، ومن فيض قلبه ، ومن حسن أدبه ، ومن كريم معاملته . فأما حياتهن المادية فكانت فى غالبها كفافا حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبحبح المسلمون بالغنائم والفىء . وقد سبق فى سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة فى النفقة ، وما أعقب

هذا الطلب من أزمة ، انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة ، أو المتاع والتسريح من عصمته ﷺ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة . ولكن الحياة فى جو النبوة فى بيت رسول الله ﷺ لم تكن لتقضى على المشاعر البشرية ، والهواتف البشرية فى نفوس أزواجه – رضى الله عنهن – فقد كان يبدر أو يشجر بينهن ، ما لابد أن يشجر فى قلوب النساء فى مثل هذه الحال . وقد سلف فى رواية ابن إسحاق عن عائشة – رضى الله عنها – أنها كرهت جويرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملاح رسول الله ﷺ لها إذا رآها . وصح ما توقعته فعلا ! وكذلك روت هى نفسها حادثا لها مع صفية . قالت . " قلت للنبى ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا" . قال الراوى:تعنى قصيرة ! فقال ﷺ " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " . وهذه الوقائع التى روتها عائشة – رضى الله عنها – عن نفسها – بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة – ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنسانى الذى لابد منه فى مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول ﷺ يؤدى رسالته بالتربية والتعلية فى بيته كما يؤديها فى أمته سواء . وهذا الحادث الذى نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التى كانت تقع فى حياة الرسول [ص] وفى حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية فى السورة . وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه فى السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهليهم من النار .كما ورد مشهد للكافرين فى هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر فى بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان فى بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التى تطهرت فتلقت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم) (وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت:من أنبأك هذا ؟ قال:نبأنى العليم الخبير) (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) وردت فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخارى عند هذه الآية قال:حدثنا إبراهيم ابن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة ، قالت:كان النبى – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له:أكلت مغافير . إنى أجد منك ريح مغافير . قال:" لا . ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لا تخبرى بذلك أحدا " . . فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له (لم تحرم ما أحل الله لك ؟) ويبدو أن التى حدثها رسول الله ﷺ هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتآمرة معها . فأطلع الله رسوله ﷺ على الأمر . فعاد عليها فى هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشيا مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هى وسألته (من أنبأك هذا ؟) . ولعله دار فى خلدها أن الأخرى هى التى نبأته ! ولكنه أجابها (نبأنى العليم الخبير) فالخبر من المصدر الذى يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول ﷺ يعلم كل ما دار ، لا الطرف الذى حدثها به وحده ! وقد كان من جراء هذا الحادث وما كشف عنه من تآمر ومكايدات فى بيت الرسول ﷺ أن غضب . فآلى من نسائه لا يقربهن شهرا ، وهم بتطليقهن – على ما تسامع المسلمون – ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه ﷺ فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث . وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائى من حديث أنس ، أن رسول الله ﷺ كان له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . فأنزل الله عز وجل: يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ؛ تبتغى مرضات أزواجك . وفى رواية لابن جرير ولابن أسحاق أن النبى ﷺ وطئ مارية أم ولده إبراهيم فى بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله ﷺ بتحريم مارية وحلف بهذا. وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة . . فهذا هو الحديث الذى جاء ذكره فى السورة . وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذى وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدى إلى طلاق زوجات الرسول ﷺ نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا . وهى فى الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التى ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذى يسود بيوت النبى ، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئا كبيرا . . والله أعلم أى ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث – حادث إيلاء النبى [ص] من أزواجه ، فيصوره الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وهو يرسم كذلك جانبا من صورة المجتمع الإسلامى يومذاك .

. قال:حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور ، عن ابن عباس قال:"لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله ﷺ اللتين قال الله تعالى (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت:يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما)؟ فقال عمر:واعجبا لك يا ابن عباس ! [قال الزهري:كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه] قال:هي عائشة وحفصة . قال:ثم أخذ يسوق الحديث ، قال:كنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم . قال:وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال:فغضبت يوما على امرأتي ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني . فقالت:ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله [ص] ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال:فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت:أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت:نعم ! قلت:وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت:نعم ! قلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئا وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال:وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوما وأنزل يوما ، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال:وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا . فنزل صاحبي يوما ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم نادى ، فخرجت إليه ، فقال:حدث أمر عظيم . فقلت:وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال:لا . بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله ﷺ نساءه ! فقلت:قد خابت حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي . فقلت:أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ فقالت:لا أدري . هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاما أسودا فقلت:استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم . فجلست عنده قليلا ، ثم غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت:استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال:ذكرتك له فصمت ! فوليت مدبرا فإذا الغلام يدعوني . فقال:ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت:أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلي وقال:" لا " . فقلت:الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتي يوما ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت:ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت:قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ؛ فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقلت:يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت:لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك ! فتبسم أخرى . فقلت:أستأنس يا رسول الله ! قال:" نعم " فجلست ، فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئا يرد البصر إلا هيبة مقامه فقلت:ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالسا وقال:" أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا " . فقلت:استغفر لي يا رسول الله . . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجدته حتى عاتبه الله عز وجل] . . " وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص] . .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١} قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{٢} وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ{٣} إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ{٤} عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً{٥} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ{٦} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٨} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{٩}

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ{١٠} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{١١} وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ{١٢}

هذه رواية الحادث فى السير . فلننظر فى السياق القرآنى الجميل:

تبدأ السورة بهذا العتاب من الله سبحانه لرسوله ﷺ (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم ؟ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم) وهو عتاب مؤثر موح . فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع . والرسول ﷺ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعى ؛ إنما كان قد قرر حرمان نفسه . فجاء هذا العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالا فلا يجوز حرمان النفس منه عمدا وقصدا إرضاء لأحد . والتعقيب (والله غفور رحيم) يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة ، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته . وهو إيحاء لطيف .فأما اليمين التي يوحى النص بأن الرسول ﷺ قد حلفها ، فقد فرض الله تحلتها . أى كفارتها التى يحل منها . ما دامت فى غير معروف والعدول عنها أولى (والله مولاكم) فهو يعينكم على ضعفكم وعلى ما يشق عليكم . ومن ثم فرض تحلة الأيمان ، للخروج من العنت والمشقة (وهو العليم الحكيم) يشرع لكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم . فلا تحرموا إلا ما حرم ، ولا تحلوا غير ما أحل . وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيه . ثم يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله ، لأن موضوعه ليس هو المهم ، وليس هو العنصر الباقى فيه . إنما العنصر الباقى هو دلالته وآثاره (وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا) ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة فى تاريخ البشرية . الفترة التى يعيش فيها الناس مع السماء . والسماء (يقصد القدرة الإلهية) تتدخل فى أمرهم علانية وتفصيلا . ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث الذى أسره إلى بعض أزواجه . وأنه ﷺ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه . ترفعا عن السرد الطويل ، وتجملا عن الإطالة فى التفصيل ؛ وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل (فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت:من أنبأك هذا ؟ قال:نبأنى العليم الخبير) والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة فى حالة التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار ! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التى ربما نسيتها أو غفلت عنها ، وترد القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن . ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) وحين نتجاوز صدر الخطاب ، ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله ، فقد بعدت عنه بما كان منها . . حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديدا رعيبا مخيفا . ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره فى قلب رسول الله ﷺ حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول ﷺ ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير ! ولا بد أن الموقف فى حس رسول الله ﷺ وفى محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذى يتناسب مع هذه الحملة . ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء فى الرواية على لسان الأنصارى صاحب عمر – رضى الله عنهما – وهو يسأله:جاءت غسان ؟ فيقول لا بل أعظم من ذلك وأطول . وغسان هى الدولة العربية الموالية للروم فى الشام على حافة الجزيرة ، وهجومها إذ ذاك أمر خطير . ولكن الأمر الآخر فى نفوس المسلمين كان أعظم وأطول ! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير ، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن . وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ! وهو تقدير يوحى بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور . وهو تقدير يلتقى بتقدير السماء للأمر ، فهو إذن صحيح قويم عميق . وكذلك دلاله الآية التالية ، وتفصيل صفات النساء اللواتى يمكن أن يبدل الله النبى بهن من أزواجه ولو طلقهن . مع توجيه الخطاب للجميع فى معرض التهديد (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات وأبكارا) وهى الصفات التى يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح . الإسلام الذى تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذى يعمر القلب ، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهى الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة . والعبادة وهى أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياحة وهى التأمل والتدبر والتفكر فى إبداع الله والسياحة بالقلب فى ملكوته . وهن –

مع هذه الصفات – من الثيبات ومن الأبكار . كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر . وهو تهديد لهن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكايداتهن فى قلب رسول الله ﷺ وما كان ليغضب من قليل ! وقد رضيت نفس النبى ﷺ بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته . واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ، وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه . وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره فى إنشاء منهج الله فى الأرض وتثبيت أركانه . وفى ظلال هذا الحادث الذى كان وقعه عميقا فى نفوس المسلمين ، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم فى بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير ، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار . ويرسم لهم مشهدا من مشاهدها . وحال الكفار عندها . وفى ظلال الدعوة إلى التوبة التى وردت فى سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة ، ويصور لهم الجنة التى تنتظر التائبين . ثم يدعو النبى ﷺ إلى جهاد الكفار والمنافقين . . وهذا هو المقطع الثانى فى السورة (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) إن تبعة المؤمن فى نفسه وفى أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التى تنتظر هناك . إنها نار . فظيعة متسعرة (وقودها الناس والحجارة) الناس فيها كالحجارة سواء . فى مهانة الحجارة وفى رخص الحجارة ، وفى قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفظعها نارا هذه التى توقد بالحجارة ! وما أشده عذابا هذا الذى يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب (عليها ملائكة غلاظ شداد) تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذى هم به موكلون (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم , ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم . وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة . وعلى المؤمن أن يقى نفسه وأن يقى أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار . فها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف ، فلا يؤبه لاعتذارهم ، بل يجبهون بالتيئيس (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . إنما تجزون ما كنتم تعملون) لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل . وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار ! فكيف يقى المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار ؟ إنه يبين لهم الطريق ، ويطمعهم بالرجاء (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) هذا هو الطريق . . توبة نصوح . . توبة تنصح القلب وتخلصه ، ثم لا تغشه ولا تخدعه . توبة عن الذنب والمعصية ، تبدأ بالندم على ما كان ، وتنتهى بالعمل الصالح والطاعة , فهى عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصى وعكارها ؛ وتحضه على العمل الصالح بعدها . فهذه هى التوبة النصوح . التوبة التى تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم , ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار . يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه)فإذا كانت هذه التوبة فهى مرجوة إذن فى أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخلهم الجنات . فى اليوم الذى يخزى فيه الكفار كما هم فى المشهد الذى سبق فى السياق . ولا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه . وإنه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم ، أن يضم الله المؤمنين إلى النبى ﷺ فيجعلهم معه صفا يتلقى الكرامة فى يوم الخزى . ثم يجعل لهم نورا (يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) نورا يعرفون به فى ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونورا يهتدون به فى الزحام المريج . ونورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة فى نهاية المطاف ! وهم فى رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدى الله (يقولون:ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شىء قدير) وإلهامهم هذا الدعاء فى هذا الموقف الذى يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور . فأين هذا من النار التى وقودها الناس والحجارة ؟ ثم تجىء الجولة الثالثة والأخيرة . وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى . إذ تتحدث عن نساء كافرات فى بيوت أنبياء . ونساء مؤمنات فى وسط كفار (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين , فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين . . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة , ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا , وصدقت بكلمات ربها وكتبه . وكانت من القانتين) والمأثور فى تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ، أنها كانت خيانة فى الدعوة ، وليست خيانة الفاحشة . امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين من قومه ؛ وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهى تعلم شأنهم مع ضيوفه ! والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة فى قصره – ولعلها كانت أسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوى قبل موسى . وقد ورد فى التاريخ أن أم "أمنحوتب الرابع" الذى وحد الآلهة فى مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس ، وسمى نفسه "إخناتون" . . كانت أسيوية على دين غير دين المصريين . . والله أعلم إن كانت هى المقصودة فى هذه السورة أم أنها امرأة فرعون موسى . . وهو غير "أمنحوتب" هذا . . ولا يعنينا هنا التحقيق التاريخى لشخص امرأة فرعون .

فالإشارة القرآنية تعنى حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص . والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة . إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا ، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار . كما يراد أن يقال لأزواج النبى ﷺ وأزواج المؤمنين كذلك:إن عليهن أنفسهن بعد كل شىء . فهن مسؤولات عن ذواتهن ، ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبى أو صالح من المسلمين ! وها هى ذى امرأة نوح . وكذلك امرأة لوط (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) (فخانتاهما) (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا) (وقيل:ادخلا النار مع الداخلين) فلا كرامة ولا شفاعة فى أمر الكفر والإيمان . وأمر الخيانة فى العقيدة حتى لأزواج الأنبياء ! وها هى ذى امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه . . فى قصر فرعون . . عن طلب النجاة وحدها . . وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا فى الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شىء وهى ألصق الناس به (ونجنى من فرعون وعمله)وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم (ونجنى من القوم الظالمين) ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا فى أزهى صورة . فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهى . . ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه . وتتفلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !وهى امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية . . وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة – كما أسلفنا – أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة . . وحدها . . فى وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، والمقام الملوكى . فى وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء . . وحدها . . فى خضم هذا الكفر الطاغى ! وهى نموذج عال فى التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوقات , وكل هذه الهواتف . ومن ثم استحقت هذه الإشارة فى كتاب الله الخالد . الذى تتردد كلماته فى جنبات الكون وهى تتنزل من الملأ الأعلى . . (ومريم ابنة عمران) إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التى قصها الله فى سور أخرى . ويذكر هنا تطهرها (التى أحصنت فرجها) يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة ! (فنفخنا فيه من روحنا) ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام ، كما هو مفصل فى السورة المفصلة لهذا المولد "سورة مريم" فلا نستطرد معه هنا تمشيا مع ظل النص الحاضر ، الذى يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التى جعلتها قرينة مريم فى الذكر . بسبب ملابسات حياتها التى أشرنا إليها . و هى أمثلة و نماذج إيجابية و سلبية ، يقدمها الله لرسوله الكريم ﷺ و للمؤمنين و المؤمنات .

الفهرس

سورة الشورى..... ص :٣

سورة الزخرف .....ص: ١٥

سورة الدخان ..... ص : ٢٧

سورة الجاثية ..... ص : ٣٢

سورة الأحقاف ..... ص : ٣٩

سورة محمد ﷺ ..... ص : ٥٠

سورة الفتح .....ص : ٦٠

سورة الحجرات ..... ص : ٧٠

سورة ق ..... ص : ٧٧

سورة الذاريات ..... ص : ٨٣

سورة الطور ..... ص : ٩٠

سورة النجم ..... ص ٩٦

سورة القمر ..... ص :١٠٣

سورة الرحمن ..... ص : ١٠٨

سورة الواقعة ..... ص : ١١٣

سورة الحديد ..... ص : ١١٩

سورة المجادلة ..... ص : ١٢٨

سورة الحشر ..... ص: ١٣٥

سورة الممتحنة ..... ص : ١٤٣

سورة الصف ..... ص : ١٤٨

سورة الجمعة ..... ص : ١٥٣

سورة المنافقون ..... ص : ١٥٨

سورة التغابن..... ص : ١٦٢

سورة الطلاق ..... ص : ١٦٦

سورة التحريم ..... ص : ١٧٢

الفهرس ..... ص : ١٧٨

الأستاذ : محمد رباعة من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٦٣ ب القراح (القرزى) بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، (الجزائر) كاتب عصامى و صحفى مستقل ، مدير دار القبس للنشر الإلكتروني ، و رئيس تحرير مجلة القبس الشهرية السياسية الثقافية الإلكترونية ، الف العديد من الكتب أهمها: موسوعة النظام الجزائرى من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ التى تتكون من ستة (٦) أجزاء ، تقدم قراءة تحليلية موضوعية لأهم الأحداث و القرارات و المواقف و الإنجازات ، و كتب التصور الإسلامى لله و الحياة و الإنسان و هو معالجة عصرية لأهم عناصر العقيدة الإسلامية ، و مأزق الحداثة و ما بعد الحداثة و موقف الإسلام منهما ، الذى عالج الموضوع بأسلوب بسيط قريب الى الأذهان و بعيد عن تعقيدات و غموض الكتابات الحداثية و العلمانية ، و الحراك الإسلامي فى الجزائر من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ ، و كتاب مختصر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ، و كل كتبه مطبوعة بطريق ة ألكترونية **PDF** طباعة راقية و أنيقة